

جامعة آل البيت

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

قسم التاريخ

بلاد الشام في العصر البيزنطي (القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع ميلادي)

(The Levant Region During the Byzantine Era (4 th Century - The Middle of the 7 th Century)

إعداد الطالبة

كلوديا خالد عبيد جديع

الرقم الجامعي

(١٦٢٠٣٠٣٠٠٧)

إشراف الدكتور

موسى بني خالد

قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في التاريخ

عمادة الدراسات العليا

الفصل الدراسي الاول

٢٠١٨م



نموذج التفويض

أنا الطالبة كلوديا خالد عبيد جديع أفوض جامعة آل البيت بتزويد نسخ من رسالتي للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة في الجامعة.

التاريخ:

التوقيع:

نموذج اقرار والتزام

انا الطالبة كلوديا خالد عبيد جديع الرقم الجامعي: ١٦٢٠٣٠٣٠٠٧

تخصص: تاريخ كلية: الاداب والعلوم الانسانية

أعلنُ بأني قد التزمت بقوانين جامعة آل البيت وانظمتها وتعليماتها وقراراتها السارية المفعول المتعلقة بإعداد رسائل الماجستير والدكتوراه عندما قمت شخصياً بإعداد رسالتي بعنوان:

"بلاد الشام في العصر البيزنطي (القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع ميلادي)"

وذلك بما ينسجم مع الأمانة العلمية المتعارف عليها في كتابة الرسائل والأطاريح العلمية. كما أنني أُعلن بأن رسالتي هذه غير منقولة أو مستلة من رسائل أو أطاريح أو كتب أو أبحاث أو أي منشورات علمية تم نشرها أو تخزينها في أي وسيلة اعلامية، وتأسيساً على ما تقدم فأنني اتحمل المسؤولية بأنواعها كافة فيما لو تبين غير ذلك بما فيه حق مجلس العمداء في جامعة آل البيت بإلغاء قرار منحي الدرجة العلمية التي حصلت عليها وسحب شهادة التخرّج مني بعد صدورها دون أن يكون لي الحق في التظلم أو الأعتراض أو الطعن بأي صورة كانت في القرار الصادر عن مجلس العمداء بهذا الصدد.

التاريخ:...................

التوقيع:..................



قرار لجنة المناقشة

بلاد الشام في العصر البيزنطي (القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع ميلادي)

نوقشت هذه الرسالة:

" وأجيزت بتاريخ 24/ 10/ 2018م

لجنة المناقشة	التوقيع
د. **موسى بني خالد** (مشرفاً ورئيساً) أستاذ تاريخ المغرب والاندلس قسم التاريخ- جامعة آل البيت	....
أ. د. **عليان الجالودي** (عضواً) استاذ التاريخ الاسلامي / العصر السلجوقي قسم التاريخ – جامعة ال البيت	....
د. **محمد العيسى** (عضواً) استاذ تاريخ الأيوبي – مملوكي قسم التاريخ – جامعة ال البيت	....
د. **محمد النصارات** (عضواً خارجياً) أستاذ تاريخ العرب قبل الإسلام قسم التاريخ – جامعة الحسين بن طلال	....

الإهداء

الى سيّد الخلق ونبي أمة إقرأ رسولنا الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم) ....

الى أرواح شهداء الأمة الأسلامية وشهداء العراق أخوتي بكر و كرار رحمهم الله ....

والى كل من يحمل شعلة في طريق العلم ....

والى من ربياني صغيرا وأرشداني كبيرا والديّ الكريمين ....

وأهدي ثمرة جهدي الى زوجي رفيق دربي وسندي وأبنائي .... هذا الجهد المتواضع الذي بتوفيق من الله ودعمهم أنجزته ....



الشكر والتقدير

يقتضي واجب الوفاء والعرفان بالجميل ان اتقدم بجزيل شكري وفائق تقديري واحترامي الى استاذي الاول الدكتور موسى بني خالد، لما اولاه وبذله من جهود وما قدمه من توجيهات، فلم اشعر لحظة انه بخل عليّ بجهد او ضجر من اسئلتي الكثيرة... بل الحق اقول اني رأيت في كل مرة ابتسامة صبر كريمة ترتسم على محياه واسمع منه اجوبة تتدفق من فيه كانحدار المياه من اعالي الجبال و أستقبال كالأخ الكبير، إذ أنه استنزف وقته العائلي في متابعة رسالتي و إرشادي و نصحي .

كما تأمرني اخلاقي ان لا انسى من كان لهم فضل عليّ لما ابدوه من توجيهات قيمة عززت من الكيان العلمي للرسالة من اساتذتي الافاضل الذين درسوني في السنة التحضيرية.

ويطيب لي في هذا المقام ان اقدم شكري واحترامي الى الاساتذة اعضاء لجنة المناقشة، كما واسجل شكري وتقديري الى قسم التاريخ في جامعة ال البيت، لما بذلوه من جهد ووقت في خدمة واخيراً اكرر شكري وتقديري لكل من قدم لي المساعدة.

وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه.



قائمة المحتويات

قائمة الملاحق



قائمة المختصرات

الرمز	المدلول
م. م	مؤلف مجهول
د.ت.	دون تاريخ طبع
د،م	دون مكان
د،ط	دون طبعة
p.	الصفحة (باللغة الإنكليزية)
Op. Cit.	المصدر السابق (باللغة الإنكليزية)
Ibid	المصدر نفسه (باللغة الإنكليزية)
Vol.	الجزء (باللغة الإنكليزية)



بلاد الشام في العصر البيزنطي (القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع ميلادي)

إعداد الطالبة

كلوديا خالد عبيد جديع

المشرف الدكتور

موسى بني خالد

الملخص باللغة العربية

الحضارة البيزنطية من الحضارات التي ادت دورا مهما في تاريخ بلاد الشام ، وهي إمتداد للحضارة الرومانية حيث اتسمت الحضارة البيزنطية بالسمات الشرقية مما جعلها مزيج من الرومانية و العربية فهي تعد من اهم الحضارات التي نشأة في بلاد الشام و التي لاتزال الشواهد التاريخية تعرفنا بها، ونتيجة للظروف الجغرافية والسياسية والاقتصادية انتقل الرومان بحضارتهم و أنظمتهم و علومهم الى المشرق بهدف التوسع الى أن انهارت الحضارة الرومانية و أستمرت الحضارة البيزنطية بالتوسع في المشرق العربي حيث ضمت يلاد الشام التي كانت تعتبر الحاجز الأول بين البيزنطيين و القبائل العربية الى أن جاء الاسلام و بدأت الفتوحات الاسلامية.

تناولت الدراسة موضوع بلاد الشام في ضوء المصادر العربية من القرن الرابع الى منتصف القرن السابع ميلادي حيث تناول الفصل الأول الحديث عن تاريخ نشأة الامبراطورية البيزنطية وتاريخ بلاد الشام في فترة الدراسة و تطرقنا لتسمية الامبراطورية البيزنطية و أهم مصادر التاريخ البيزنطي في المصنفات العربية.

وبينت الدراسة خلال الفصل الثاني اوضاع بلاد الشام في العهد البيزنطي منذ القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع الميلادي من حيث الأهمية الإستراتيجية لبلاد الشام في العصر البيزنطي، وأوضاع بلاد الشام خلال العهد البيزنطي " الدلالات الجغرافية والتاريخية " و أبرز التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في العهد البيزنطي و فصلنا العلاقات البيزنطية مع الممالك العربية و أثر تلك الجوانب على السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية.

كما تحدثنا في الفصل الثالث عن النظم الحضارية لبلاد الشام في العصر البيزنطي و تطور النظم السياسية والإدارية في الدولة البيزنطية في جنوب بلاد الشام، و أبرز معالم النظم والحضارة في بلاد الشام البيزنطية، من العلوم و الفنون المعمارية و الطوائف الدينية و ابرز الاعمال التجارية و الزراعية.

وقد ابرزت الدراسة دورالبيزنطينيين في نقل العديد من مظاهر الحضارة الرومانية الى المشرق و تأثر العرب بهذه الحضارة، و كيف استطاعت الدولة البيزنطينية تطبيق فكرها و سياستها من خلال توطيد علاقاتها بالقبائل و كسب ولائهم، و بينت الدراسة ان معظم الكتابات التاريخية تقتصر على فترات قريبة من العهد الاسلامي و تتناول مواضيع محددة كادت ان تقتصر على جوانب سياسية، مما يدعو الباحثين الى الاستعانة بدراسات الاثرية و الاجنبية لدراسة المجتمع و المظاهر الحضارية في الفترات التي سبقت قيام العصور الاسلامية.

المقدمة:

يطلق اسم العصر البيزنطي في بلاد الشام على الفترة التي تمتد من القرن الرابع الميلادي و حتى بداية القرن السابع الميلادي اي من فترة حكم الإمبراطور قسطنطين الأول وحتى عهد الامبراطور هرقل، و نستطيع ان نسمي هذه الحقبة بالعصر الروماني المتأخر او العصر البيزنطي الاول،ويسمى هذا العصر بالعصر البيزنطي بسبب احداث مهمة غيرت بنية الإمبراطورية الرومانية في عهد الإمبراطور قسطنطين الاول الذي نقل العاصمة الامبراطورية من روما باتجاه الشرق الى موقع مدينة اغريقية على ضفة البوسفور تدعى بيزنطة، و بذلك ولد عصر جديد في حياة الامبراطورية الرومانية كان له ميزات و احداث جسام ميزته عن التاريخ الروماني قبل القرن الرابع الميلادي.

فنرى علامتين فارقتين في التاريخ الروماني انجبتا في نهاية المطاف الامبراطورية البيزنطية، الاولى كانت نقل العاصمة باتجاه الشرق والذي كان له عدة اسباب:

فمن الناحية الإستراتيجية كان سبب انتقال العاصمة هو الحاجة الى مدينة قوية في الشرق تكون عاصمة جديدة للامبراطورية و تستطيع الوقوف بوجه الخطر الفارسي المتنامي في الشرق في التقاليد و الادبيات المسيحية نلاحظ ان المصادر الكنسية تضفي صبغة دينية على انتقال العاصمة الى الشرق و التي تعتبر الامبراطور قسطنطين كقديس و حامي للكنيسة عمل على انتقال العاصمة نحو الشرق للابتعاد عن روما الوثنية و لمراعاة مشاعر المسيحيين الذين كان عددهم كبير في مقاطعات الامبراطورية الشرقية مقارنة مع المقاطعات الغربية.

العلامة الفارقة الاخرى في هذا العصر كانت انتصار الديانة المسيحية و انتشارها بشكل رسمي في انحاء الامبراطورية و بذلك اصبحت الكنيسة جزء لا يتجزأ من تركيبة الامبراطورية و انطلقت علاقة جديدة بين الامبراطورية والكنيسة اثرت في مجريات التاريخ البيزنطي منذ البداية و حتى اخر لحظات عمر الامبراطورية، و بالتحليل نرى ان العصر الجديد حمل ثلاثة عناصر اساسية في البنية الجديدة للإمبراطورية وهي :

هيكلية نظام وقانون اداري روماني، و ثقافة اغريقية، وديانة مسيحية هذه العناصر اعلنت الانطلاقة للتاريخ البيزنطي و الذي شمل الولايات الشرقية للامبراطورية الرومانية سابقا و من ضمن هذه الولايات و اكثرها اهمية استراتيجة ستكون بلاد الشام التي كانت ميدان تفاعل كبير بين الحضارة الهلينستية و الحضارة الشرقية تمخضت في نهاية المطاف عن ولادة حضارة محلية او بلاد الشام تحت حكم امبراطوري خلال اخر حقبة من العصور الكلاسيكية في بلاد الشام و هي الحقبة البيزنطية.

ومن هنا جاءت أهمية الموضوع فأهمية تبرز من خلال بيان أثر انتقال الرومان و تشكل حضارة جديدة عرفت بالحضارة البيزنطية ذات الاسس الرومانية و السمات الشرقية، فدراسة هذه الفترة من خلال المؤرخين العرب، تعد من الدراسات الشاقة و المرهقة، بالنظر فيما سبق نجد ان دراسة التاريخ البيزنطي ذو قيمة علمية جدا مهمة و لكن الدراسات التي سبقت تناولت المصادر التاريخية بشكل عام و موسع شمل جميع المصادر دون تحديد او تخصيص لذا كانت رغبتي للبحث حول بلاد الشام في الفترة البيزنطية في ضوء المصادر العربية و الاسلامية و تتبع الخبر من خلال المصادر الاصول التي تحدثت عن الفترة البيزنطية بشقيها العربية و الاسلامية، و بناء تصور عن الوجود البيزنطي في بلاد الشام حسب نظرة المورخ العربي و الاسلامي بشكل خاص و التعريف بالعصر البيزنطي من وجهة نظر عربية و اسلامية على اعتبار ان الدولة البيزنطية جاءت الى بلاد الشام بنظام حاكم لشعوب عربية على الأغلب ، و العمل على تحليل ومقارنة الاخبار و تدقيقها.



تحاول الدراسة تحقيق بعض الأهداف، وهي عرض تاريخ بلاد الشام في المصادر العربية و الاسلامية ابراز دور بلاد الشام في الصراع الساساني و البيزنطي و توضيح اثار الصراع على ولايات بلاد الشام خاصة بيت المقدس وتتبع استقرار القبائل العربية في بلاد الشام و الدور اللذي لعبته في ظل الوجود البيزنطي و التعرف على الجوانب الادارية و السياسية و الاقتصادية و الحضارية في بلاد الشام بصفتها ولاية بيزنطية، متابعة محاولات العرب المسلمين لفتح بلاد الشام منذ غزوة دومة الجندل و حتى اليرموك، عرض مقدمات الفتح الاسلامي و اهميته في استرتيجيات الفتح قبل معركة اليرموك.

صعوبات الدراسة تبرز من خلال بحث الظاهرة التاريخية و تتبعها في المصادر الاولية و الاصول العربية و الاسلامية من خلال قراءة و عرض و تحليل و مقارنة و نقد المادة التاريخية التي تحتوي على الخبر و التوصل الى فهم طريقة التأريخ العربي و الاسلامي للتاريخ البيزنطي و خصوصية الموضوعية و المنهجية .

و تقوم هذه الدراسة على بيان فكرة انه هل للمصادر و الاصول الاتاريخية العربية و الاسلامية سمات و خصائص في طريقة تأريخ أو عرض المادة التاريخية للفترة البيزنطية و ما اهميتها ، وبماذا تختلف عن المصادر الأخرى التي أرخت للتاريخ البيزنطي مثل المصادر " اللاتينية - البيزنطية - السريانية " وغيرها .

واعتمدت المنهج التاريخي الوصفي القائم على تتبع الروايات التاريخية المبثوثة في ثنايا المصادر ذات الصلة وتنظيمها ومقارنتها وتحليلها والخروج بنتائج مناسبة للحقيقة على قدر ما قدمته المصادر الأولية من معطيات تاريخيه.



تمهيد: التطور التاريخي للحضارة البيزنطية

لم تكن الدولة البيزنطية إلا امتداداً للإمبراطورية الرومانية، كما أن التاريخ البيزنطي ليس إلا مرحلة جديدة من التاريخ الروماني، ولقد اعتبر الإمبراطور نفسه حاكماً رومانياً وخليفة القياصرة الرومان ووريثهم في ملكهم، وحرصت الدولة البيزنطية على صلتها بروما القديمة، وازداد تعلقها بالتراث الروماني، وعلى الرغم من ذلك فقد أخذت بيزنطة تبتعد[1] رويدا رويدا، وتمتع الرومان بعدة خصائص ومميزات؛ إذ غلبت عليهم الحضارة واللغة اليونانية ، وازداد تأثير الكنيسة اليونانية في الحياة البيزنطية، وأصبح هذا القسم من العالم الروماني (وهو القسم الشرقي) يونانياً شرقياً في لغته وثقافته وكنيسته.

الأسر الملكية البيزنطية:

أسرة قسطنطين الكبير (٣٠٦ – ٣٧٨ م):

كان عهد قسطنطين عهداً مميزاً في تاريخ الإمبراطورية؛ ففي عهده ظهرت عدة تطورات دينية وسياسية في تاريخ الدولة البيزنطية منها اعتراف قسطنطين رسمياً بالمسيحية، وجعلها إحدى الديانات المصرح باعتناقها في الإمبراطورية البيزنطية، كما نقل عاصمة الإمبراطورية من روما القديمة إلى مدينة بناها على شاطئ البسفور في الشرق سماها القسطنطينية، ومن أجل ذلك اعتبره المؤرخون محقق الانتقال من العالم القديم الى عالم العصور الوسطى .

اختار قسطنطين لبناء عاصمته موقع مدينة بيزنطة القديمة ذات الموقع الحصين والمناعة الطبيعية والصلاحية لإقامة الحصون والقلاع وبناء السفن والأساطيل ، فقد كانت بيزنطة قائمة على راس ناتئ في البحر نحو عشرة كيلو مترات في ساحل البسفور الأوروبي وهذا الرأس هي المعروفة بالقرن الذهبي، وهو النتوء الذي يتخذ شكل مثلث يواجه رأسه قارة أسيا ويطل جانباه على القرن الذهبي وبحر مرمرة، بينما يقوم سور قوي بحماية جانبه الثالث حيث لا تتحكم في ذلك السور مرتفعات مجاورة .اقيمت القسطنطينية عند مدخل البسفور، فأصبحت تتحكم على الانتقال من أوروبا إلى آسيا، ومن البحر الأسود إلى البحر المتوسط، واتخذت موقعاً استراتيجياً بالجانب الشرقي من الامبراطورية . وكانت مدينة بيزنطة القديمة التي أقيمت على موقعها المدينة الجديدة قد أصابها الذبول وتوالت عليها الكوارث الطبيعية والبشرية فذوت مكانتها في النهاية واضمحلت ثم تعرضت للتدمير على يد الإمبراطور سبتميوس سفروس؛ فجاء ذلك فصل ختام في عظمة تلك المدينة القديمة، ولم تعد في أوائل القرن الرابع سوى قرية صغيرة اتخذها الصيادون قاعدة لهم.

أما عن موقف قسطنطين من المسيحية؛ فقد ترتبت عليه نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لأوروبا والعالم الغربي بصفة عامة، وبالنسبة للإمبراطورية في الشرق بصفة خاصة، وكان قسطنطين قد تجول في صدر حياته في إقليم الإمبراطورية في الشرق، وزار مصر والأقاليم الأسيوية بصحبة دقلديانوس، ووقف دون شك على أحوال المسيحيين ومدى انتشار عقيدتهم في تلك الجهات، كما كان تعصب جاليريوس – أحد الأباطرة الأربعة على عهد دقلديانوس – ضد المسيحيين واضطهاده لهم قد ترك في نفس قسطنطين أثراً سيئا ، وأن جاليريوس ما لبث ان نازع قسطيون – والد قسطنطين – السلطة واظهر شعورا غير ودي نحو قسطنطين[2].

---

[1] **حسنين، إبراهيم، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة، ١٩٩٧م، ص ٩ ، وسيشار إليه لاحقاً : حسنين ، دراسات، سليمان ، أحمد عبد الكريم، المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط، د ن ، القاهرة ١٩٨٢م ، ص١٢، وسيشار إليه لاحقاً : سليمان، المسلمون والبيزنطيون.**

[2] ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد **الجزري** ،**(ت ٦٣٠هـ/١٢٣٣م)**،**الكامل في التاريخ**، دار الكتاب العربي، بيروت،(١٩٨٠م)**م.ج٢ ، ص ٢١٢ ، وسيشار إليه لاحقاً: ابن الأثير، الكامل في التاريخ .**



استمر اضطهاد المسيحيين على أيدي الأباطرة الرومان بعد دقلديانوس، حتى إذا كان عام (٣٢٣)نجح قسطنطين في تولي الحكم وأصبح أول إمبراطور مسيحي للإمبراطورية الرومانية، وكان أول عمل قام به هذا الإمبراطور[١] هو الاعتراف الرسمي بالمسيحية، وبذلك بدأت عهدا وتاريخا جديدا يختلف كل الاختلاف عن سيرتها السابقة ، فمنذ ذلك الوقت بدا المسيحيون يعملون في حرية واطمئنان ، وكان لذلك نتائجه السيئة أيضا ، ففي عصر الخوف والترقب السابق لم يجرؤ المسيحيون على إظهار خلافهم وانقسامهم في الرأي؛ لأنهم في ذلك الوقت كانوا اشد الحاجة إلى تماسكهم وتساندهم ، وربما أودى أي انقسام بينهم بالحركة كلها ، ولم يكن معنى ذلك انه لم توجد بين المسيحيين خلافات في الرأي قبل قسطنطين ، بل وجدت هذه الخلافات[٢] .

بدأ قسطنطين سياسته الجديدة بأن حرم اضطهاد المسيحيين في الشطر الغربي من الإمبراطورية، فأعطى مسيحي ذلك الجزء قدراً من الأمان، وفي نفس الوقت ترك لنفسه فسحة من الوقت يقرر فيها الخطوة التالية ، إذا تأكد بصفة قاطعة من قدرة إله المسيحيين على منحه النصر على أعدائه وخصمه ماكسنتيوس، فقد تعلق قسطنطين برؤيات اقتنع أنه بفضلها سوف ينتصر على خصمه في ظل شعار المسيح، وتحت لوائه[٣].

وكان قسطنطين يؤمن أيضاً بإله الشمس القهار، لهذا حبا المسيحيين بكثير من التسامح في الوقت الذي احتفظ فيه لنفسه بمنصبه الكاهن الأعظم، وهو المنصب الإمبراطوري في الديانة الرومانية الوثنية، كما أن العملة التي سكها حملت على وجه منها على الصليب، وعلى الوجه الأخر شعار عبادة الشمس على أن قسطنطين ما لبث أن أصدر صريحة إلى عماله وكبار رجال دولته بوقف اضطهاد المسيحيين ورفع الغبن عنهم، وأرسل إلى عامله بإفريقيا يأمره بإعادة كل أملاك الكنيسة المسيحية التي جرى مصادرتها من قبل، وإعفاء رجال الدين المسيحي من كافة أعباء السخرة[٤].

يبدو أن هدف قسطنطين بميله نحو المسيحية ظل غير واضح الأسباب إلى نهاية حياته، فلعله كان مسيحيا حقا ولم يعلن عقيدته منذ البداية لظروف بلاده ، وعظم الارستقراطية الوثنية في الإدارة والجيش وقلة المسيحيين الذين لم يتجاوز عددهم حينئذ خمس سكان[٥] الإمبراطورية، ولهذا قدم قسطنطين ما قدمه من أجل المسيحية متظاهراً بأنه رائد التسامح الديني في عصر كان يطفح بالتعصب والاضطهاد والهمجية ، ولعله لم يكن مسيحياً أيضاً نظراً لاحتفاظه بلقب الكاهن الاعظم لإله الشمس وسماحة للوثنية بممارسة شعائرها جنباً إلى جنب مع المسيحية، فضلاً عن أنه أتى في حياته من الافعال ما يتنافى مع كونه مسيحياً ومن ذلك قتله لزوجته وولده ، وعدم تعميده إلا وهو على فراش الموت[٦].

---

[١] العبادي ، مصطفى، الإمبراطورية الرومانية، النظام الإمبراطوري،دار النهضة العربية، بيروت،(١٩٨١)، ص ٢٤٧ ، وسيشار إليه لاحقاً: العبادي، الإمبراطورية الرومانية ،.

[٢] العبادي، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٤٨ .

[٣] حسنين ، دراسات ، ص ١٥ .

[٤] مرجع نفسه ، ص ١٦ .

[٥] البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ، (ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م)،فتوح البلدان ، ط ،بيروت (١٩٥٨)، ص ١٣٦ ، حسنين ، دراسات ، ص ١٧ ، وسيشار إليه لاحقاً: البلاذري، فتوح البلدان .

[٦] حسنين ، دراسات ، ص ١٨ .



خلف قسطنطين في الحكم أبناؤه الثلاثة؛ فتنازعوا فيما بينهم وانتشرت الفتن في البيت الحاكم في الوقت الذي تنامت الأخطار الخارجية وهددت الدولة البيزنطية، وأخذت القبائل الجرمانية تضغط ضغطا شديداً في جبهتي الراين[١] والدانوب وتزايد الخطر الفارسي في القطاع الاسيوي والشرقي وأصبحت الامبراطورية في وضع خطير ، ووسط هذه الفوضى تمكن جوليان وهو في بيت قسطنطين من الوصول إلى العرش، بعد أن نجح في القضاء على غزو جرماني[٢] كان يهدد الدولة فنودي به إمبراطوراً سنة ٣٦١ م، وظل في الحكم قرابة عامين حتى سنة ٣٦٣م.

تولى العرش بعد جوليان الامبراطور جوفيان (٣٦٣ - ٣٦٤) فاضطر الى عقد صلح مهين مع فارس، تنازل بمقتضاه لفارس عن أقاليم عديدة على الضفة الشرقية لنهر دجلة ، كما تنازل أيضاً عن نصيبين[٣] وسنجار ، وتخلى عن مزاعمه في امتلاك ارمينيا ، هذا في الوقت الذي تزايد فيه خطر الجرمان جهة الشمال والغرب؛ فكان على بيزنطة ان تحارب باستمرار[٤] ، منذ ذلك الحين، في جبهتين : في الجبهة الشرقية ضد دولة فارس وفي جبهة الشمال والغرب ضد البرابرة، وظل هذا النضال مستمراً طوال زمن الإمبراطورية البيزنطية[٥].

أسرة ثيودسيوس (٣٧٩ - ٤٥٧ م) :

انتهت بوفاة أسرة قسطنطين، وبدأت أسرة ثيودوسيوس، وكان أول أباطرة الأسرة الجديدة ثيودسيوس الكبير (٣٧٩ - ٣٩٥)، الذي اتبع خطة جديدة بالتعامل مع القوط ، فقد أردك انه من المستحيل هزيمة القوط بقوة السلاح وحده، فعرض على القوط النزول في أراضي الإمبراطورية والاستقرار بها، وعقد معهم اتفاقا اعترف فيه لهم باستقلالهم الذاتي وإعفاءهم من دفع الضرائب، ورتب لهم عطاء مجزيا مقابل تأديتهم الخدمة العسكرية.

نجح ثيودسيوس في عقد معاهدة جديدة مع فارس ضمنت له الأمن والسكينة من هذه الجهة لفترة غير قصيرة، كما اشتد ثيودسيوس في معاملة الهراقطة والوثنيين، وأنزل بهم ضرباته وعقابه، كما حرص على أن يسود الوفاق والسلام في الكنيسة؛ فدعا إلى عقد مجمع ديني في القسطنطينية سنة ٣٨١ م وهو المجمع المسكوني الثاني فاتخذت العقيدة المسيحية زمن هذا الإمبراطور صورتها النهائية ، والتي تتمثل في مذهب نيقية، فأصبحت الديانة الرسمية للدولة، ولم يعد للديانات الأخرى ما نستند إليه في وجودها[٦].

---

[١] و نهر في أوروبا يمر عبر سويسرا، فرنسا، ألمانيا، ليختنشتاين وهولندا. يعتبر الراين أحد أهم وأطول الأنهار في القارة الأوروبية، اسم النهر مشتق من الكلمة السيلتية Renos والتي تعني ،الجاري، الطبراني ، سليمان ، المعجم الكبير ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، مصر ، د.ت.، حرف الباء، ص ٦٩٧

[٢] الشعوب والقبائل التي تتحدث باللغات الجرمانية والتي تنحدر من نفس الأصل العرقي.استوطنوا المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية وكانوا مصدر إزعاج دائم لها ثم لاحقا أصبحوا أحد الأسباب الرئيسية لسقوطها. من أشهر القبائل الجرمانية قبائل القوط ، سعيد عبد الفتاح عاشور. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة ، د.م،(١٩٧٦)م.ص ٣٤، وسيشار إليه لاحقاً: عاشور، تاريخ أوروبا .

[٣] حسنين، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٢٨ .

[٤] حسنين، دراسات ، ص ٢٩ .

[٥] كمال، عمر ، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة، الاسكندرية،(٢٠٠٣) م، ص ٣٨ ، وسيشار إليه لاحقاً: عمر ، تاريخ الدولة البيزنطية .

[٦] حسنين ، دراسات ، ص ٣٠ .



حكم ثيودسيوس[1] الكبير بداية مرحلة جديدة في تاريخ الإمبراطورية ذلك أنه على الرغم من حرص ثيودوسيوس على وحدة الإمبراطورية، إلا انه اضطر في سنة ٣٩٥ م ، وهو على فراش الموت، إلى تقسيم الإمبراطورية إلى قسمين منفصلين؛ فجعل ابنه الأكبر اركاديوس إمبراطوراً في القسم الشرقي، وإدراكاً منه بأهمية الشرق، بينما خص ابنه الآخر هونوريوس بالقسم الغربي، وتعين منذ ذلك الحين الحد الفاصل بين الشرق البيزنطي والغرب الروماني وظلت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت على هذا التقسيم ، وجرت الاحداث في الغرب والشرق في طريقين واتجاهين مختلفين، ولم يكن بين الحكومتين الشرقية والغربية في كثير من الأحيان من عوامل الود ما يجمع بينهما، وظل اركاديوس يحكم في القسطنطينية حتى سنة ٤٠٨ م، ثم تلاه ثيودسيوس الثاني (٤٠٨ - ٤٥٠)[2]، الذي لم يهتم بشؤون الحكم ، وكان ضعيفا سئ الحظ ، وقع تحت تأثير جماعة هيمنوا على مصائر الامبراطورية وتحكموا فيها ، ولم يعد للإمبراطور من الأمر شيء؛ فانصرف إلى حياة العزلة والتقوى والورع وتحصيل العلم وغير ذلك من الامور التي افرغ فيها حماسته وشعوره باليأس ولعل شغفه بالعلم كان له دخل في إنشاء جامعة القسطنطينية أولاً، وفيما صدر من قوانين ثانياً، عرفت بقوانين ثيودسيوس سنة ٤٣٨ م وهي التي عالجت شؤون الحكم وبعض النواحي العامة كالشؤون الحربية والدينية والدواوين وغيرها[3].

وقد شهدت الإمبراطورية اضطرابات قبل عهد قسطنطين الكبير مما أدى إلى ضعف القسم الغربي من الإمبراطورية وبالتالي سقوطها سنة (٤٧٦م)، وبعد أحداث مهمة دامت حوالي عشرين عاماً تمكن قسطنطين من الانفراد بحكم الامبراطورية عام (٣٢٤م) بعد انتصاره على خصمه ليسينيوس[4] وقام بإصلاحات كثيرة لا يسعنا المجال لذكرها، وفي أثناء تجهيزه لحملة حرب عام ٣٣٧م ضد الفرس الساسانيين الذين بدأوا يشنون هجماتهم على أرمينية[5] التي عدها الرومان جزءا من دولتهم وقع قسطنطين صريع المرض وفارق الحياة، وقد خلفه على العرش الامبراطوري ابنائه الثلاثة، وهم: قسطنطين الثاني وقسطنطينيوس و قسطانز، والأخوة الثلاثة ليسوا على وفاق فكانوا على خلاف لكن ذلك الخلاف أنتهى بموت قسطنطينيوس وقسطانز عام ٣٥٠م؛ فأنفرد قسطنطين الثاني بالحكم، بعدما هزم منافسه ماجتيتيوس عام ٣٥١م، واستمر بالحكم حتى وفاته عام ٣٦١م وتولى من بعده سلسلة من الأباطرة حكموا الإمبراطورية فترات متفاوتة حتى عام ٥١٨م وهو العام الذي توفي فيه الإمبراطور اناسطاسيوس واعتلت فيه عرش الإمبراطورية أسرة جستنيان[6]، وتعد مدة حكم الإمبراطور جوليان المأساة على المسيحية بكافة فرقها؛ وذلك لمحاولته إعادة مجد الوثنية ومكافحته للمسيحية[7].

---

[1] ثيودوسيوس الامبراطور ثيوذوسيوس الكبير ثيودوسيوس الأول (٣٤٧ ، ٣٩٥ م)آخر إمبراطور للإمبراطورية الرومانية الموحدة حيث انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى شطرين بعد وفاتة. عاشور. تاريخ أوروبا ، ص ١٣٤.

[2] الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير، (ت ٣١٠هـ/٩٢٢م)،'تاريخ الرسل والملوك ، ج٣، ص٢٩١ ، وسيشار إليه لاحقاً: الطبري، تاريخ الرسل .

[3] حسنين ، دراسات ، ، ص ٣١ .

[4] هسي ، ج ، م . العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق د.رأفت عبد الحميد ، مصر ، (١٩٩٧)، ص ٧٨، وسيشار إليه لاحقاً : هسى، العالم البيزنطي، وعمران ، محمود سعيد، حضارة الإمبراطورية البيزنطية، مصر، (٢٠٠٦)، ص٢٠ ، وسيشار إليه لاحقاً: عمران، حضارة الإمبراطورية البيزنطية .

[5] أرمينية : بلد يقع شرق آسيا الصغرى ،تركيا،استولى عليها الخزر ثم الفرس ثم الروم، انظر الحموي، البلدان، ج١ ، ص ١٦٠ .

[6] الحديثي ، قحطان عبد الستار ، والحيدري ، صلاح عبد الهادي ، دراستان في التاريخ الساسائي والبيزنطي ، منشورات جامعة البصرة ،(١٩٨٦)، ص ٢١٦ ، وسيشار إليه لاحقاً: الحديثي، دراستان .

[7] مرجع نفسه، ص ٢٧٠ .



وتوفي جوليان عام (٣٦٣م) وبعده تربع على العرش جوفيان (٣٦٣-٣٦٤م) وفالنــر (٣٦٤_٣٧٨م) وحاولوا إعادة المسيحية إلى سابق عهدها، وفي القرن الخامس الميلادي ظهرت مذاهب جديدة أدت إلى حدوث انقسامات وصراعات داخل الإمبراطورية منها المذهب النسطوري[١] والمذهب الميتوفيزي وكان لكل مذهب منهما أنصاره من الأباطرة.

وفي عام (٥٢٧م) وعلى أثر وفاة جستن أصبح جستنيان إمبراطوراً على العرش، وكان بسيطاً يتعاون مع الناس ويتودد إليهم؛ لذلك وأطلقوا عليه: (الإمبراطور الساهر) وكانت تعاونه في ذلك الإمبراطورة ثيودوراز.

تولى الحكم في القسطنطينية الإمبراطور جستنيان الأول (٥٢٨ – ٥٦٥) الذي يعتبر أخر الأباطرة العظام في الإمبراطورية الرومانية في عصرها المتأخر ، فقد كان واسع الطموح ، ذا مواهب فذة مكنته من الإصلاح ، وكان في الإصلاح هو إعادة الوحدة للإمبراطورية عن طريق تحقيق الوحدة الدينية ، وإعادة تنظيم الإدارة وتقوية الجيش لتامين الحدود ، ثم العمل على ازدهار الحياة الاقتصادية وتنشيط الصناعة والتجارة من جديد ، وقد تمكن من تحقيق كثير مما سعى إليه من الإصلاح باستثناء الوحدة الدينية ، ومن العسير حقا أن نتوقع له النجاح في تطبيق سياسته الدينية لسببين : الأول يرجع إلى عمق الانقسامات الدينية رغم جهوده الكبيرة في تعميم عقيدة خلقيدون في جميع أنحاء الإمبراطورية ، والثاني هو وجود الانقسام المذهبي داخل أسرة الإمبراطور ذاته ، ذلك أن زوجته الإمبراطورة تيودور ، التي ابتدأت حياتها راقصة ، وأصبحت فيما بعد زوجة جستنيان وإمبراطورة الدولة ومن امهر النساء في التاريخ.

أدخل جوستنيان على الإدارة بعض الإصلاحات الأساسية ومنها أنه أعاد توحيد السلطتين المدنية والعسكرية في شخص الولاية، بينما أبقي على تقسيم بلاد الشام إلى عدة ولايات.

كان جستنيان يتمتع بعلاقات مع العرب في بلاد الشام الذين يرجع (أي العرب) وجودهم في بلاد الشام إلى أوائل الألف الأول قبل الميلاد، وازداد هذا التواجد منذ القرن الثالث الميلادي حتى ظهور الإسلام . فكانت قبيلة غسان في منطقة دمشق وحوران وقبيلة قضاعة[٢] في جهة البلقاء وجنوبي شرق الأردن وقبيلة تنوخ في منطقة قنسرين وحلب[٣] اعتبر الرومان بلاد الشام مقاطعة عربية رومانية بعد أن تم استيلائهم عليها عام(٦٢ق.م)ومنذ ذلك الوقت وحتى القرنين الرابع والخامس الميلاديين أخذت العلاقات بين العرب والرومان تأخذ طابع التعاون وخاصة في المجالات العسكرية، وقد ساهم العرب في حروب الرومان ضد الفرس الفرثيين واليهود ولكن سرعان ما ساءت العلاقة بينهما من خلال قتل رجل الجباية الروماني من غسان ودارت معركة بين الغساسنة وعساكر الروم فــي موضع في (وادي الكسوة)

---

[١] هو المعتقد الديني المسيحي الرافض لمجمع أفسس المعقود سنة (٤٣١)م. يعرف داعمو كيرلس الأول النسطورية بأنها العقيدة القائلة بأن يسوع المسيح مكون من جوهرين يعبر عنهما بالطبيعتين وهما : جوهر إلهي وهو الكلمة، وجوهر إنساني أو بشري وهو يسوع ، فبحسب النسطورية لا يوجد اتحاد بين الطبيعتين البشرية والإلهية في شخص يسوع المسيح، بل هناك مجرد صلة بين إنسان والألوهة، وبالتالي لا يجوز إطلاق اسم والدة الإله على مريم العذراء بحسب النسطورية، لم تلد إلها بل إنساناً فقط حلت عليه كلمة الله أثناء العماد وفارقته عند الصليب، فيكون هذا المذهب بذلك مخالفاً للمسيحية التقليدية القائلة بوجود أقنوم الكلمة المتجسد الواحد ذو الطبيعتين الإلهية والبشرية، The Church of the East: **A Concise History**، Baum ، Wilhelm ، pp. ٣٠،٣١

[٢]قضاعة قبيلة عربية قديمة أختلف النسابة في نسبها فنسبوهم لحمير ومنهم من نسبوهم إلى معد. الزبيري ، مصعب ، نسب قريش – دار العلم للملايين ، بيروت ، (١٩٩٨م) ، الجزء الأول ، ص ٥

[٣] جواد ، علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٣، ط٢، بيروت ، ١٩٧٦، ص ٢٨٢، وسيشار إليه لاحقاً: جواد، المفصل في تاريخ العرب .



وقد عرف الروم قوة بني غسان؛ فصالحوهم وتحقق الانتصار في عهد الأمير الغساني عمر بن جفنة الذي أصبح أول ملك عربي لأول دولة عربية في بلاد الشام معترف بها من قبل الروم[١]، واستمرت العلاقة الوطيدة بينهما و منح الزعامة الحارث بن جبلة على الغساسنة من قبل جستنيان وفي سنة (٥٣١م) شارك الحارث في الحرب ضد الفرس إلى جانب الروم بقيادة القائد البيزنطي المشهور بلزاريوس .[٢] أما علاقة جستنيان مع الفرس فقد توترت بسبب أن الملك الفارسي قباذ (٤٨٨-٥٣١م) أراد أن يضمن العرش لأبنه كسرى انوشروان؛ فلجأ إلى الإمبراطور جستن لكي يتبنى إبنه لكن جستن رفض طلبه واعتبرها الملك الفارسي إهانة له، وبقيت العلاقة متشنجة بينهما فوضع جستنيان قواته تحت قيادة بلزاريوس الذي اتجه الى داراز عام (٥٣٠م) ونجح في وقف تقدم الفرس ثم ما لبث أن توفي قباذ وتولى العرش إبنــــه كسرى انوشروان (٥٣١-٥٧٩م)؛ فعرض كسرى الصلح على الإمبراطور جستنيان وكان الطرفان راغبين بذلك.[٣] وفي عام (٥٢٧م) حاول جستنيان إعادة فرض الهيمنة الإمبراطورية على أجزاء الإمبراطورية لكنه لم ينجح في بعض المناطق ولكنه صادف نجاحا ملحوظاً في البلاد الأخرى.[٤] وبعد هيجان الشعب على جستنيان وقيام ثورة عارمة هــي ثورة نيقا[٥] (Nika) عام (٥٣٢م)، وقد ساعدت زوجته على إخماد هذه الثورة وبعدها قام بعدة إصلاحات، والذي يهمنا من ذلك هي الإصلاحات المالية بمصادرة بعض الممتلكات؛ لعدم ثبوت ملكيتها، وقام بتشجيع التجارة والصناعة وجعل من ميناء القلزم (قرب السويس حاليا) قاعدتين تجاريتين لهذا الغرض وكذلك توسعت صناعة الحلي الذهبية.

ولم تتناسب مشاريع جستنيان الكبيرة مع طاقة الإمبراطورية المالية؛ فعادت الأحزاب والاضطرابات مرة أخرى، وما أن توفي جستنيان عام (٥٦٥م) حتى أنهدم البناء الشامخ الذي أرساه في حكمه وذلك بعد مجيء أربعة من الأباطرة حكموا الإمبراطورية بين سنوات(٥٦٥-٦١٠م) وهم: جستنين الثاني (٥٦٥ -٥٧٨م) طيبريوس (٥٧٨-٥٨٢م) موريس (٥٨٢-٦٠٢م) واخيرا فوقاس (٦٠٢- ٦١٠م). وفي عهد الأباطرة الأربعة أصبحت أمور الإمبراطورية ليست على ما يرام، وأهمها نشوب حرب بين جستنين والفرس وفيها احرز البيزنطيون نصرا مؤقتا على الجيوش الفارسية في مدينة داراز، وبعد تولي كسرى الثاني ابرويز عرش بلاد فارس بادر الامبراطور موريس لإبرام معاهدة مع الإمبراطورية والفرس عام (٥٩١م) وقد تنازلت بلاد فارس بمقتضاها للإمبراطورية البيزنطية عن إقليم أرمينية والجزء الشرقي من اقليم الجزيرة بما في ذلك مدينة داراز[٦].

---

[١] كمال، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٧٠ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ٧٤ .

[٣] ربيع : حسين محمد ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، د ط ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ،(١٩٨٣م). ص ٣٢ ، السعيد ، المصدر السابق ، ص ١٢٢، وسيشار إليه لاحقاً: ربيع، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية .

[٤] السعيد ، تاريخ العرب ، ص ١٢٠ .

[٥] هي ثوره شعبية في المقام الاول حتى أن بعض المؤرخين يذكروا هذه الثورة بالثورة الشعبية بالقسطنطينية سنه ٥٣٢م وكلمه نيقيا هي كلمه يونانيه معناه النصر وقد كان المتظاهرون يهتفون بها أثناء ثورتهم ، عبد الحميد، رأفت، بيزنطة بين الفكر والدين ، مصر ، (٢٠٠٨ م) ، ص ٦٢، وسيشار إليه لاحقاً: عبد الحميد، بيزنطة .

[٦] فتحي، محمد، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (١٩٨٩م)، ص ٣٦ ، وسيشار إليه لاحقاً: فتحي، السياسة الشرقية، والعريني ، المصدر السابق ، ص ١٠٣،١٠٢.



وبعدها تفاقم الوضع في الإمبراطورية؛ فكانت بحاجة إلى شخص قوي ينقذها من هذه الظروف، وقد وجدتها في شخصية (هـرقل)[١]؛ فاتجه بأسطول إلى مضيق الدردنيل بعد القضاء على أسطول فوقاس[٢] وفتحت العاصمة وألقي القبض على فوقاس والقضاء عليه[٣].

يعد هرقل أعظم الأباطرة في التاريخ البيزنطي .[٤] وفي عهد هرقل قام الفرس عام (٦١٣م) بمهاجمة أنطاكية وحمص وقيسارية[٥]، وتقدمت القوات الفارسية نحو دمشق واستولت عليها، وسيطرت على مدينة أنطاكية وطرد القوات البيزنطية من أرمينية، وبعدها زحفوا إلى فلسطين ونجح الفرس في دخول المدينة والاستيلاء على الصليب المقدس، الذي يعد من أهم الآثار الدينية عند المسيحيين ونقلوه إلى عاصمتهم طيســفون (المدائن) .[٦] وبعدها تقدم الزحف الفارسي إلى جهات آسيا الصغرى ثم استولوا على مصر عام (٦١٩م) وفي هذه الإثناء أتخذ هرقل عدة إجراءات لإزالة الخطر الفارسي، منها :جمع الجواهر والحلي الموجودة في كنائس العاصمة والأقاليم وأمر بسكها عمله نقدية واستعد للحرب[٧]؛ فقام بمواجهة الفرس في عقر دارهم؛ إذ تقدم عام ١٦هـ/٦٢٧م وصل أمــام نينوى (قرب الموصل الحالية) وخاض معركة حاسمة هزم فيها الفرس وبعدها قام بالاستيلاء على قصر كسرى في مدينة دسنكرد وتراجع كسرى إلى المدائن وحلت النهاية بكسرى إذ قبض عليه ابنه شيرويه و مات وتم الصلح بين الملك الفارسي الجديد وهرقل وذلك عام (٦٢٨م) واستردت جميع البلاد التي تم إحتلالها من قبل الفرس[٨].

---

[١] ملك احدى وثلثين سنة وخمسة أشهر. وفي أول سنة من ملكه أرسل وفدا الى ملك الفرس ليصالحه. فلم يجبه الى ذلك بل غزا انطاكية وفامية وحمص وقيسارية وافتتحها. وفي هذه السنة عرض بالروم جوع شديد حتى أكل الناس الجيف وجلود البهائم. وقصد نقيطا بن غريغور مدينة الاسكندرية فاستولى عليها. وفي السنة الرابعة لهرقل ملكت العرب وهي سنة تسعمائة وخمس وثلثين للإسكندر ، ابن العبري ، مختصر ، ج٢ ، ص ٩١

[٢] كان إمبراطوراً بيزنطياً حكم منذ(٦٠٢)حتى (٦١٠). كان فوكاس أحد أكثر الأباطرة استنكاراً حيث استولى على العرش في عهد الإمبراطور موريس. ولكنه أسقط بالقوة من قبل هرقل بعد خسارته لحرب أهلية. بتلر، ألفرد، فتح العرب لمصر ، ترجمة: محمد فريد أبو حديد بك، مكتبة مدبولي: القاهرة ، ١٩٩٦م ، ٦٥، وسيشار إليه لاحقاً: بتلر، فتح العرب .

[٣] إسماعيل، ليلى عبدالجواد، الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م ، ص ٤٥، وسيشار إليه لاحقاً: ليلى، الدولة البيزنطية .

[٤] محمد ، البيزنطيون والعرب ، ص ١٧ .

[٥] قيسارية مدينة على ساحل البحر المتوسط تعد من أعمال فلسطين، وتقع بالقرب من طبريا، انظر الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ، (ت ٦٢٣٠هـ) معجم البلدان، بيروت، دار صادر،(١٩٨٦) ، ج٤، ص ٤٢١ ، وسيشار إليه لاحقاً: الحموي، معجم البلدان .

[٦] العريني ، السيد باز، تاريخ الدولة البيزنطية(1081 – 323 هـ) ، دار النهضة، بيروت،(١٩٨٢) ، ص ١١٦، وسيشار إليه لاحقاً: العريني، البيزنطيون .

[٧] هسي ، العالم البيزنطي ، ص ١٠٢ .

[٨] العريني ، البيزنطيون ، ص ١١٨ .



الإمبراطورية البيزنطية أو بيزنطة وكانوا يعتبرون أنفسهم الروم وسمتهم كذلك أيضاً الشعوب المحيطة، كانت الإمبراطورية البيزنطية امتداداً من العصور القديمة المتأخرة وحتى العصور الوسطى وتمركزت في العاصمة القسطنطينية. عرفها سكانها وجيرانها باسم الإمبراطورية الرومانية[1] أو رومانيا وكانت استمراراً مباشراً للدولة الرومانية القديمة وحافظت على تقاليد الدولة الرومانية.[2] يجري التمييز اليوم بين بيزنطة وروما القديمة من حيث توجه الأولى نحو الثقافة اليونانية وتميزها بالمسيحية بدلاً من الوثنية الرومانية وكان سكانها في الغالب يتحدثون اللغة اليونانية بدلاً من اللاتينية[3] .

بما أن التمييز بين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية حديث إلى حد كبير؛ فليس من الممكن تحديد تاريخ الفصل بينهما، ولكن النقطة المهمة كانت نقل الإمبراطور قسطنطين الأول العاصمة في ٣٢٤ من نيقوميديا (في الأناضول) إلى بيزنطة على البوسفور والتي أصبحت القسطنطينية أي "مدينة قسطنطين" (أو "روما الجديدة" أحيانا). قسمت الإمبراطورية الرومانية أخيراً في ٣٩٥ م بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (حكم ٣٧٩-٣٩٥)، وبالتالي هذا التاريخ مهم جداً، حيث يعتبر بداية الإمبراطورية البيزنطية (أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية) وفصلها تماماً عن الغربية. يبدأ الانتقال إلى التاريخ البيزنطي الخاص أخيراً في عهد الإمبراطور هرقل (حكم ٦١٠-٦٤١)، حيث أسس هرقل على نحو فعال دولة جديدة بعد إصلاح الجيش والإدارة من خلال إنشاء الثيمات وبتغيير اللغة الرسمية للإمبراطورية من اللاتينية إلى اليونانية.

عاشت الإمبراطورية البيزنطية لأكثر من ألف سنة، منذ القرن الرابع وحتى ١٤٥٣. خلال الجزء الأكبر من وجودها، كانت واحدة من أقوى القوى الاقتصادية والثقافية والعسكرية في أوروبا على الرغم من النكسات وفقدان الأراضي وخصوصا خلال الحروب الرومانية الفارسية والبيزنطية العربية[4]. تعافت الإمبراطورية تحت حكم السلالة المقدونية وصعدت مرة أخرى لتصبح قوة بارزة في شرق البحر الأبيض المتوسط بحلول أواخر القرن العاشر لتنافس الخلافة الفاطمية.

تسمية الامبراطورية البيزنطية:

تسمية حديثة أطلقها المؤرخون على الرومان الشرقيين بعد أن حول الامبراطور قسطنطين الكبير مركز ثقل الدولة الرومانية القديمة من روما إلى موقع يقع على خليج البسفور يعرف باسم بيزنطة، و يعتبر مصطلح 'البيزنطية' مستمد من بيزنطة، اسم المدينة تأسست القرن الثامن قبل الميلاد التي كانت تحتلها سابقاً الإمبراطورية الرومانية في موقع القسطنطينية في قسطنية، كما أنها امتداداً للإمبراطورية الرومانية في "بيزنطة" حيث أن هياكل الحكومة والإدارة تطورت بسلاسة من تلك الإمبراطورية الرومانية المتأخرة في القرون الأولى، واستخدمت اللاتينية في البداية لغة للإدارة ومع ذلك، كانت لغة ثقافته الأدبية هي اليونانية. وما ميز هذه الإمبراطورية أنها من الروم استمدت القانون ونظام الحكومة ومن اليونانية في اللغة والثقافة الأدبية، والمسيحية دينها[5].

---

(1) هسي ، العالم البيزنطي ، ص ٧٣ .

(2) العريني ، الدولة البيزنطية ٣٢٣، ١٠٨١م ، ص ٣٠

(3) عمران ، حضارة الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١١ ، فرح، نعيم: الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، دمشق: جامعة دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م.ص ٨، وسيشار إليه لاحقاً: فرح، الحضارة الأوروبية .

(4) الدرة ، تاريخ العرب العسكري ، ص ٤٩ .

(5) REBECCA R. DARLEY ، INDO‹BYZANTINE EXCHANGE، ٤ TH TO ٧TH CENTURIES: A GLOBAL HISTORY ، A thesis submitted to the University of Birmingham for the DOCTOR OF PHILOSOPHY degree of ، University of Birmingham، September 2013



كما أطلق المؤرخون تسميات عدة على الإمبراطورية البيزنطية، مستندين في ذلك على آرائهم وأفكارهم التي تأثرت بدرجة ما بعصر النهضة الأوروبية والاهتمام بالتاريخ الروماني واليوناني، ومن التسميات التي أطلقت عليها الدولة الرومانية والدولة الرومانية الشرقية والدولة الإغريقية أو الهلينستية، وما يهمنا هنا تسميتها بالدولة البيزنطية، حيث تعد هذه التسمية حديثة أطلقها عدد كبير من المؤرخين والباحثين مستمدين تلك التسمية من عنصرين أساسيين هما: تحديد كيان الإمبراطورية ولها مساحتها الجغرافية، وأن اقتران الحضارة الهلنستية بالديانة المسيحية في نطاق الإمبراطورية الرومانية أدى إلى قيام ما يسمى بالإمبراطورية البيزنطية[1] .

وأطلق الآثاريون في القسطنطينية[2] على سكان الإمبراطورية اصطلاح البيزنطيين في بعض الأحيان حيث كان اسم الرومان أو أهل القسطنطينية اصطلاحين يفتقدان إلى الدقة ولا يعبران عن الحقيقة، ثم انتقل اصطلاح البيزنطيين إلى الغرب واستعمله المؤرخون المحدثون من باب التسهيل.

وهناك مسميات أخرى مثل الإمبراطورية الرومانية الشرقية أو الإمبراطورية الرومانية المتأخرة[3]، وتعد التطورات على الصعيدي السياسي والحضاري مرحلة انتقال الإمبراطورية الرومانية إلى الإمبراطورية البيزنطية، فإن نقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية والاعتراف بالديانة المسيحية، بعد مرسوم ميلان[4] هذين العاملين المهمين عملهما قسطنطين، والمعروف باسم: قسطنطـين الكبير.

وفيما يتعلق بأصل التسمية ورد ذكر الإمبراطورية البيزنطية في أوروبا الغربية في عام ١٥٥٧ عندما نشر المؤرخ الألماني هيرونيموس فألف كتابه كوربوس هستوريا بيزنتيا وهو مجموعة من المصادر التاريخية. يأتي المصطلح من بيزنتيوم وهو اسم القسطنطينية قبل أن تصبح عاصمة قسطنطين الأول نادراً ما استخدم هذا الاسم من تلك النقطة فصاعداً إلا في السياقات التاريخية أو الشعرية. أشاع نشر بيزنتين دو لوفر (كوربوس سكريبتوروم هستوريا بيزنتيا) عام ١٦٤٨ ونشر شارل دو كانج لكتابه هستوريا بيزنتينا استخدام مفردة بيزنطي بين المؤلفين الفرنسيين مثل مونتسكيو، اختفى المصطلح حتى القرن التاسع عشر عندما استخدم على نطاق واسع في العالم الغربي قبل هذا الوقت، كانت تستخدم تسمية اليونانية للدلالة على الإمبراطورية وأحفادها في إطار الدولة العثمانية.

أما سكان بيزنطة؛ فتعارفوا على تسميتها بالإمبراطورية البيزنطية الإمبراطورية الرومانية أو إمبراطورية الرومان أو رومانياً أو الجمهورية الرومانية باليونانية أو غريكيا وأيضاً رومايس على الرغم من الطابع متعدد الأعراق للإمبراطورية البيزنطية خلال معظم تاريخها؛ فإنها حافظت على التقاليد الرومانية الهلنستية، وعرفها معاصروها الغربيون والشماليون بعنصرها اليوناني السائد استخدم أحياناً لقب إمبراطورية اليونان في الغرب للإشارة إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية وسمي الإمبراطور البيزنطي إمبراطور اليونان وذلك لتمييزها عن هيبة الإمبراطورية الرومانية في الممالك الغربية الجديدة[5].

---

[1] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٦٦ .

[2] القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ، اتخذت اسمها من الامبراطور قسطنطين، وهي حالياً مدينة اسطنبول التركية الواقعة شمال تركيا على مضيق البسفور ، انظر: هسي ، العالم البيزنطي ، ص ٧٣ .

[3] عمران ، محمود سعيد ، حضارة الإمبراطورية البيزنطية ، مصر ، ٢٠٠٦ ، ص ١١ ، هسي، العالم البيزنطي ، ص ٧٤ .

(٤) مرسوم ميلان : المرسوم الذي اصدره الامبراطور الروماني قسطنطين سنة ٣١٣م والذي اعترف بالديانة المسيحية ديانة رسمية في الامبراطورية الرومانية ، ينظر : العريني ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٥١،٤١.

[5] الشيخ، محمد: تاريخ الإمبراطورية، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤م. ص١٩، وسيشار إليه لاحقاً: الشيخ، تاريخ الإمبراطورية .

لم يوجد مثل هذا التمييز في العوالم الإسلامية والفارسية والسلافية، حيث اعتبرت الإمبراطورية استمراراً للإمبراطورية الرومانية. في العالم الإسلامي أطلق عليهم اسم الروم[١] ، في الأعمال التاريخية الحديثة، عادة ما تسمى الإمبراطورية بالإمبراطورية الرومانية الشرقية في سياق الفترة ٣٩٥-٦١٠، أي قبل عهد الإمبراطور هرقل الذي غير اللغة الرسمية من اللاتينية إلى اللغة اليونانية (وهي لغة أغلبية السكان). في السياقات بعد ٦١٠، يستخدم مصطلح الإمبراطورية البيزنطية بصورة أكبر[٢].

الدولة البيزنطية بين عامي ٢٩٣- ٦٣٢م:

شهد عام ٢٩١م توسع الدولة الرومانية على أراضي واسعة ممتدة حتى البحر المتوسط وجزء كبير من أوروبا الغربية، ضمت هذه الأراضي العديد من المجموعات الثقافية المختلفة، متراوحة بين البدائية إلى المتطورة بصفة عامة، كانت مقاطعات شرق البحر الأبيض المتوسط أكثر تحضراً وتطوراً اجتماعياً، حيث سبق لها أن خضعت للإمبراطورية المقدونية وخضعا للثقافة الهلنستية. في المقابل، كانت المناطق الغربية لا تزال في معظمها غير موحدة تحت سلطة واحدة ثقافية أو سياسية، وكانت لا تزال إلى حد كبير ريفية وأقل نموا. استمر هذا التمييز بين الشرق الهلنستي والغرب اللاتيني اليافع وأصبح ذا أهمية متزايدة في القرون اللاحقة[٣].

وبرز تطور سياسي في هذه المرحلة تمثل في انقسام الدولة الرومانية في عهد دقلديانوس، الذي استحدث نظاماً إدارياً جديداً في عام ٢٩٣ عرف باسم الحكم الرباعي، حيث يوجد إلى جانب الإمبراطور مساعد أو أغسطس. كما استعان كل أغسطس بزميل يافع منح لقب قيصر ليشاركه في الحكم ويخلفه في نهاية الأمر. بعد تنازل دقلديانوس وماكسيمليان انهار الحكم الرباعي واستبدله قسطنطين الأول بمبدأ الخلافة الوراثية[٤].

وشهدت الدولة البيزنطية اتساعاً في عهد قسطنطين مقر الإمبراطورية وأدخل تغييرات هامة في دستورها المدني والديني في ٣٣٠، أسس القسطنطينية باعتبارها روما الثانية على موقع بيزنطة والتي كانت في مركز جيد على مفترق طرق التجارة[٥] بين الشرق والغرب[٦]، وبنى قسطنطين على الإصلاحات الإدارية التي أدخلها دقلديانوس استقرت العملة (أصبح الصوليدوس الذهبي الذي قدمه عملة ثمينة جدا ومستقرة) وأجرى تغييرات على بنية الجيش[٧].

---

[١] باقر ، طه ، رشيد ، فوزي ، هاشم ، رضا جواد ، تاريخ ايران القديم ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠ ، ص ٣٥، وسيشار إليه لاحقاً : باقر، تاريخ إيران .

[٢] رمضان، عبد العزيز، معايير اختيار المبعوثين البيزنطيين، مركز البحوث والدراسات، جامعة القاهرة، ص ١٣ ، وسيشار إليه لاحقاً: رمضان، معايير اختيار المبعوثين .

[٣] يحيى،عمر، التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية، د.ط، بيروت، ١٩٨٢، ص١٢، وسيشار إليه لاحقاً: يحيى، التوجهات في العلاقات السياسية .

[٤] صالح ، عبد العزيز حميد ، قسطنطين الأول والعصر المسيحي المبكر ، مجلة بين النهرين ، العدد ١٢٣ ، السنة ٣١، ٢٠٠٣ ،بغداد، ص ٢٢٦، وسيشار إليه لاحقاً : صالح ، قسطنطين الأول .

[٥] انظر ملحق رقم (٢).

[٦] صالح ، قسطنطين الأول ، ص ٢٢٨

[٧] مرجع نفسه ، ص ٢٢٩.



وتعافت الإمبراطورية تحت حكم قسطنطين واستعادت الكثير من قوتها العسكرية وتمتعت بفترة من الاستقرار والازدهار، ذكر يوسابيوس القيصري أن عادة الملوك معتنقي المسيحية حينها كانت أن يؤخروا تعميدهم حتى وقت قصير من وفاتهم[١] .

لم تكن المسيحية الديانة الحصرية للدولة تحت حكم قسطنطين، ولكنها تمتعت بالأفضلية الإمبراطورية، وذلك لأن الإمبراطور دعمها بامتيازات سخية. أسس قسطنطين مبدأ أن الأباطرة لا ينبغي لهم تسوية مسائل العقيدة، ولكن يجب استدعاء مجالس الكنيسة العامة لهذا الغرض[٢]. عقد قسطنطين مجمع آرل المسكوني والمجلس الأول في نيقيا حيث عرض دعواه أن يكون رأس الكنيسة.[٣]

يمكن وصف حالة الإمبراطورية في ٣٩٥م أنها نتيجة أعمال قسطنطين. اعتمد مبدأ التوريث بقوة حتى أنه عند وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول في ذلك العام، انتقلت المملكة إلى أبناءه: أركاديوس في الشرق وهونوريوس في الغرب، كان الإمبراطور ثيودوسيوس آخر من حكم الإمبراطورية غير مقسمة.[٤]

واجهت الإمبراطورية الشرقية إلى حد كبير من الصعوبات التي واجهتها الغربية في القرنين الثالث والرابع، ويرجع ذلك في جزء منه إلى ثقافة حضرية أكثر رسوخا، والمزيد من الموارد المالية التي جذبت الغزاة مع مرتزقتهم. بينما حصن ثيودوسيوس الثاني القسطنطينية بالأسوار المنيعة ضد معظم الهجمات. لم تخرق تلك الجدران حتى ١٢٠٤. دفع ثيودوسيوس لرد الهون جزية (نحو ٣٠٠ كغ من الذهب).[٥]

رفض خليفته مارقيان الاستمرار في دفع هذا المبلغ الباهظ. ولحسن الحظ كان أتيلا قد حول انتباهه بالفعل نحو الإمبراطورية الرومانية الغربية، بعد وفاته في ٤٥٣م انهارت إمبراطورية الهون؛ استأجرت القسطنطينية من تبقى من الهون في كثير من الأحيان كمرتزقة في خدمتها.[٦]

بعد سقوط أتيلا، تمتعت الإمبراطورية الشرقية بفترة من السلام، بينما انهارت الإمبراطورية الرومانية الغربية (التأريخ عادة ٤٧٦ م عندما خلع القائد العسكري الجرماني الروماني أودواكر الإمبراطور الغربي الاسمي رومولوس أوغستولوس)[٧].

تفاوض الإمبراطور زينون مع القوط الشرقيين لاسترداد إيطاليا والذين كانوا قد استقروا في مويسيا. أرسل الإمبراطور الملك القوطي ثيودوريك إلى إيطاليا بصفته ("القائد العام لإيطاليا") لإسقاط أودواكر. من خلال حثه ثيودوريك لغزو إيطاليا، خلص زينون الإمبراطورية الشرقية من خطرهم وحصل على الأقل على سيطرة اسمية على إيطاليا بعد هزيمة أودواكر في ٤٩٣، حكم ثيودوريك إيطاليا بنفسه[٨].

---

[١] محمد ، البيزنطيون والعرب ، ص ١٧.

[٢] ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ترجمة ، الاب اسحق ارملة ، تقديم ، جان موريس فييه ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م، ص ٦٨، وسيشار إليه لاحقاً : ابن العبري ، تاريخ الزمان .

[٣] مرجع نفسه ، ص ٢٤١ ، صالح ، قسطنطين الأول ، ص ٢٣١.

[٤] عاقل، الامبراطورية البيزنطية : دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري ، دمشق، ١٩٧٠، ص ٧٣.

[٥] مرجع نفسه ، ص٧٧ .

[٦] الشاعر، محمد فتحي، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، مصر ، ١٩٨٩، ص ٩٧، وسيشار إليه لاحقاً: الشاعر، السياسة الشرقية .

[٧] إسماعيل ، حلمي محروس ، الشرق العربي القديم وحضارته - بلاد مابين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية، ١٩٩٧م ، وسيشار اليه ، محروس ، الشرق العربي القديم وحضارته ، ص ٤٥ .

[٨] الشاعر ، السياسة الشرقية ، ص ١٠٢



اعتلى أناستاسيوس الأول عرش الإمبراطورية في ٤٩١ م وهو ضابط مدني مسن من أصل روماني، لكنه انتظر حتى عام ٤٩٨ لتنظم قواته مقاومة في إيسوريا تميز أنسطاسيوس بكونه إصلاحياً نشطاً ومديراً قادراً حيث حسن نظام صك العملة الذي أتى به قسطنطين الأول عندما ثبت الوزن النهائي للفوليس النحاسي[١] وهي العملة المستخدمة في معظم المعاملات اليومية، كما أصلح النظام الضريبي حيث احتوت خزينة الدولة عند وفاته ١٤٥,١٥٠ كيلوغراما من الذهب عند وفاته في ٥١٨.[٢]

وبرز تطور عام ٥٢٧م تمثل بقيام جستنيان الأول بإعادة غزو المقاطعات الغربية السابقة، ومارس نوعاً من السلطة خلال عهد عمه جستين الأول (٥١٨-٥٢٧)، في ٥٣٢م، وفي محاولة لتأمين حدوده الشرقية، وقع جستنيان معاهدة سلام مع كسرى الأول الفارسي[٣] ووافق على دفع جزية سنوية كبيرة للساسانيين، في العام نفسه، نجا جستنيان من تمرد في القسطنطينية (ثورة نيكا) والتي انتهت بمقتل ٣٠-٣٥ ألفا من مثيري الشغب بناء على أوامره عزز ذلك النصر من قوة جستنيان أرسل البابا أغابيتس الأول إلى القسطنطينية من قبل ثيوداهاد ملك القوط الشرقيين ولكنه فشل في مهمته توقيع سلام مع جستنيان، مع ذلك، نجح في إزالة البطريرك المونوفيزي أنتيمون الأول من القسطنطينية على الرغم من دعم الإمبراطورة ثيودورا له[٤].

بدأت الفتوحات الغربية في عام ٥٣٣، عندما أرسل جستنيان القائد بيليساريوس لاستعادة إقليم إفريقية السابق من الفاندال الذين كانوا قد سيطروا عليه منذ ٤٢٩ وكانت عاصمته قرطاجة. نجح بيليساريوس في ذلك بسهولة عجيبة، لكنه لم يستطع إخضاع القبائل الكبرى المحلية حتى ٥٤٨. في إيطاليا القوطية الشرقية، أدت وفاة ثيودوريك العظيم وابن أخيه ووريثه أتالاريك وابنته أمالاسونثا إلى وصول قاتلها ثيوداهاد إلى العرش على الرغم من ضعف سلطته. نجحت حملة بيزنطية في ٥٣٥ على صقلية بسهولة في استعادة الجزيرة، ولكن سرعان ما شدد القوط من مقاومتهم ولم يأت النصر حتى ٥٤٠م عندما استولى بيليساريوس على رافينا بعد حصارين ناجحين على نابولي وروما.

اتحد القوط الشرقيون تحت قيادة الملك توتيلا وسيطروا على روما في عام ٥٤٦م، الأمر الذي دفع جستنيان لاستدعاء بيليساريوس إلى القسطنطينية في نهاية المطاف في بدايات ٥٤٩ من رافينا بينما كان وصول الخصي الأرمني نارسيس إلى إيطاليا (أواخر ٥٥١) على رأس جيش قوامه ٣٥,٠٠٠ رجل نقطة تحول أخرى لمملكة القوط، هزم توتيلا في معركة بوستا غالوروم كما هزم خليفته تيا في معركة مونس لاكتاريوس (أكتوبر ٥٥٢) على الرغم من استمرار مقاومة الحاميات القوطية القليلة المتبقية وغزوتين لاحقتين من قبل الفرنجة والألامانيين، إلا أن الحرب في شبه الجزيرة الإيطالية قد وصلت النهايةفي ٥٥١، حاول أثاناغيلد وهو نبيل قوطي غربي من هسبانيا الحصول على مساعدة جستنيان في تمرد ضد الملك، حيث أرسل الإمبراطور قوة بقيادة ليبيريوس القائد العسكري الناجح. احتفظت الإمبراطورية بشريحة صغيرة من ساحل شبه الجزيرة الإيبيرية حتى عهد هرقل.[٥]

---

[١] Grierson ،Philip ١٩٨٢،,Byzantine Coins. London ، United Kingdom: Methuen. ISBN ١٩٧٨،٠،٤١٦،٧١٣٦٠،٢.

[٢] الشاعر ، السياسة الشرقية ، ص ١١٥

[٣] كسرى الأول ،٥٧٩،٥٠١، معروف أيضا باسم أنوشيروان العادل ، الروح الخالدة واسمه كسرى أنو شروان بن قباذ بن يزدجرد بن بهرام جور. حكم الإمبراطورية الساسانية ما بين ٥٣١ و٥٧٩ للميلاد. ابن خلدون ، تاريخه ، ج١ ، ص ٩٦.

[٤] الحيدري ، علي هادي حمزة ، الأحوال الاجتماعية في الدولة الساسانيـــــة ، ٦٥١،٢٢٤م، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بابل كلية التربية ، ٢٠٠٦ ، ص ١٥،١٦، وسيشار إليه لاحقاً: الحيدري، الأحوال الاجتماعية .

[٥] الناصري، تاريخ الإمبراطورية ، ص ٣٩ .



أما في الشرق؛ فاستمرت الحروب الفارسية - الرومانية حتى ٥٦١ عندما وقع مبعوثوه جستنيان وكسرى معاهدة سلام لمدة ٥٠ عاماً. من منتصف عقد ٥٥٠ كان جستنيان قد حقق انتصارات في معظم الحروب مع استثناء ملحوظ في منطقة البلقان، التي خضعت لتوغلات متكررة من السلاف. في ٥٥٩، واجهت الإمبراطورية غزواً كبيراً من الكوتريغوريين والسكلافينيين، استدعى جستنيان بيليساريوس من التقاعد وهزم التهديد الهوني الجديد؛ تسبب تعزيز أسطول الدانوب في تراجع الكوتريغور الهون وموافقتهم على معاهدة وفرت لهم ممرا آمنا ليعودوا إلى وراء الدانوب[١].

وفي عام ٥٢٩م، قامت لجنة من عشرة أشخاص ترأسها تريبونيان بتنقيح الدستور الروماني القديم وقدمت الدستور الجستنياني الجديد وهو نسخة مختصرة من النصوص القانونية السابقة[٢] في ٥٣٤م، تم تحديث الدستور الجستنياني وإعادة تنظيمه في نظام قانوني استخدم في بقية العصر البيزنطي، كانت هذه الإصلاحات القانونية إلى جانب التغييرات القانونية العديدة الأخرى تعرف باسم كوربوس جوريس سيفيليس.[٣]

كانت الثقافة التقليدية اليونانية الرومانية خلال منتصف القرن السادس الميلادي، لا تزال مؤثرة في الإمبراطورية البيزنطية ومن أعلامها البارزين الفيلسوف الطبيعي يوحنا فيلوبونوس. مع ذلك، كانت الفلسفة والثقافة المسيحية سائدة وبدأت تحل محل الثقافة القديمة، علمت التراتيل التي كتبها رومانوس المرنم تطور القداس الديني في حين أن المهندسين المعماريين والبنائين عملوا لاستكمال الكنيسة الجديدة للحكمة المقدسة، آيا صوفيا، التي صممت لتحل محل كنيسة أقدم دمرت خلال ثورة نيكا. يعتبر ذلك الصرح اليوم أحد المعالم الرئيسية في تاريخ الهندسة المعمارية البيزنطية خلال القرنين السادس والسابع، ضربت الإمبراطورية سلسلة من الأوبئة، والتي ذهبت بأرواح الكثيرين، وأدت إلى تراجع اقتصادي كبير وإضعاف الإمبراطورية[٤] .

خلف جستنيان بعد وفاته في عام ٥٦٥ جستن الثاني الذي رفض دفع الجزية الكبيرة للفرس في غضون ذلك، غزا اللومبارد الجرمان إيطاليا وبحلول نهاية القرن السادس الميلادي كان ثلث إيطاليا فقط في أيدي البيزنطيين، خلف جستن تيبريوس الثاني، والذي اختار منح إعانات للآفار وشن حملة عسكرية ضد الفرس على الرغم من أن جنرال تيبريوس موريس قد قاد حملة فعالة على الحدود الشرقية، إلا أن الإعانات فشلت في كبح الآفار، وسقطت قلعة سيرميوم البلقانية بيدهم في ٥٨٢، في حين شق السلاف طريقهم عبر نهر الدانوب.

اعتلى موريس العرش بعد وفاة تيبريوس وتدخل في الحرب الأهلية الفارسية ونصب كسرى الثاني الوريث الشرعي مرة أخرى على العرش وزوجه ابنته. جلبت معاهدة موريس مع صهره الجديد سياسة الوضع الراهن في الشرق، حيث تضخمت الإمبراطورية شرقاً إلى حد لم يتحقق من قبل في تاريخها عبر القرون الستة وكانت حمايتها أقل عبئاً أيضاً وفقا للوضع الراهن، حيث وفرت الإمبراطورية الملايين من الصوليدوس فقط عبر عدم دفع الجزية للفرس. بعد نصره على الحدود الشرقية، ركز موريس على منطقة البلقان، وتمكن في ٦٠٢ بعد سلسلة من الحملات الناجحة من دفع الآفار والسلاف للعودة إلى ما وراء نهر الدانوب[٥] .

---

[١] Simeonova ،L ، Op. Cit. ، p .75.

[٢] يوسف كرم، هلا آمون. تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠١٦.ص ١٥، وسيشار إليه لاحقاً : كرم، تاريخ الفلسفة .

[٣] عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٢٣.

[٤] Huysmans، Joris ،The Floating Press، Against the Grain: A rebours. Karl، ٢٠٠٩، . عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٢٨.

[٥] ربيع ، دراسات ، ص ١٦٥.



كان لازدياد التوتر بين الدولتين (الفارسية والبيزنطية) أن أحدث تأثيراً في مساحة الدولة البيزنطية؛ إذ استغل كسرى مقتل موريس على يد فوكاس لاحتلال مقاطعة ما بين النهرين الرومانية. لم يحظ فوكاس بشعبية ووصف دائما بالطاغية في المصادر البيزنطية وكان هدفا لعدد من المؤامرات في مجلس الشيوخ. أطيح به في نهاية المطاف في عام ٦١٠ من قبل هرقل، الذي أبحر إلى القسطنطينية من قرطاج مع رمز علق على مقدمة سفينته، بعد استلام هرقل، تقدم الساسانيون في عمق آسيا الصغرى، واحتلوا دمشق والقدس ونقلوا الصليب الحقيقي إلى المدائن، اتخذ الهجوم المضاد الذي قام به هرقل طابع الحرب المقدسة، حيث حمل معه صورة للمسيح كراية عسكرية (وبالمثل، عندما نجت القسطنطينية من حصار آفاري عام ٦٢٦، عزي النصر إلى رمز العذراء الذي قاده موكب البطريرك سرجيوس حول أسوار المدينة)[١]، دمرت القوة الساسانية الرئيسية في نينوى في ٦٢٧ واستعاد هرقل في ٦٢٩ الصليب الحقيقي إلى القدس في احتفال مهيب، استنفدت الحرب قوى الإمبراطوريتين البيزنطية والساسانية، وتركتهم عرضة للقوات العربية المسلمة التي ظهرت في السنوات التالية، عانى الرومان من هزيمة ساحقة من قبل العرب في معركة اليرموك عام ٦٣٦ وفيما سقطت المدائن عاصمة الإمبراطورية الساسانية بيد العرب في عام ٦٣٤.

الأسرة المقدونية والصعود:

بلغت الإمبراطورية البيزنطية إحدى مراحل أوجها تحت حكم الأباطرة المقدونيين بين أواخر القرن التاسع إلى أوائل القرن الحادي عشر، عندما سيطرت في البحر الأدرياتيكي وجنوب إيطاليا وجميع أراضي القيصر صموئيل. توسعت مدن الإمبراطورية وانتشر الرخاء في جميع أنحاء المقاطعات بسبب تحسن الوضع الأمني. ارتفع عدد السكان وزاد الإنتاج وحفز الطلب على زيادة التجارة .

كان هناك نمو كبير في الثقافة، وخاصة مجال التعليم والتعلم (عصر النهضة المقدونية) وجرى الحفاظ على النصوص القديمة وإعادة نسخها. كما ازدهر الفن البيزنطي وانتشرت الفسيفساء الرائعة في تزيين العديد من الكنائس الجديدة. كانت الإمبراطورية الجديدة أصغر بكثير مما كانت عليه خلال عهد جستنيان[٢]، إلا أنها كانت أقوى حيث كانت الأراضي الخاضعة لها متقاربة جغرافيا وأكثر اندماجا سياسيا وثقافيا.

العلاقات العربية -البيزنطية ٦٢٢-٨٤٣م:

بدأت العلاقات العربية - البيزنطية قبل الإسلام حين كانت بيزنطة تحكم بلاد الشام، إما مباشرة وإما بوساطة حلفائها من الغساسنة، كما حاولت أن تمد نفوذها إلى قلب شبه الجزيرة العربية، حين حاولت تنصيب عثمان بن الحويرث ملكاً على مكة، ولكنها لم تفلح. وحين صعد محمد بن عبد الله بأمر ربه، وقامت للإسلام دولة، نظرت بيزنطة بعين الريبة إلى هذا الحدث المهم الذي قام في الحجاز وامتد إلى بقية أرجاء شبه الجزيرة العربية، وحاولت أن تتقي الخطر الذي قد يدهمها بعد أن جاءتها أخباره عن طريق حلفائها الأحباش وجواسيسها الذين كانت ترسلهم إلى المدينة بصفة تجار وباعة[٣].

---

[١] الارناؤوط، محمد ، معطيات من دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر ، وقفية سنان باشا ، ط١ ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ١٩٩٣ . ص٥٦، وسيشار إليه لاحقاً: الأرناؤوط، معطيات من دمشق .

[٢] ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ترجمة ، الاب اسحق ارملة ، تقديم ، جان موريس فييه ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م ص٢٤٥ وسيشار اليه لاحقا ، ابن العبري ، تاريخ الزمان ،

[٣] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٥؛ ابن خلدون ، عبد الرحمن ت(٨٠٨هـ\ ١٤٠٥م)، تاريخ ابن خلدون ، العبر و ديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت ، ج٢، ص٢٧، وسيشار إليه لاحقاً: ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون .



كانت الهجرة النبوية الشريفة عام ١هـ/ ٦٢٢م حدثاً تاريخياً مهماً في العالم، فقد أتخذه المسلمون تقويماً خاصاً بهم وبداية لنشر الإسلام في العالم، كله فقد بعث الرسول (صلى الله عليه وسلم) بعض الرسل إلى هرقل وكسرى والمقوقس وغيرهم يدعوهم إلى اعتناق الإسلام وقد صنع لنفسه خاتما فضيا نقشت عليه عبارة :(محمـد رسـول الله) وختم به تلك الرسائل وأرسل الرسول الكريم (صلى الله عليه و سلم) رسالة إلى هرقل فرد على الرسالة رداً حسناً.[١] وقد تحرك المسلمون لنشر الدين الإسلامي وكان أول عمل من الأعمال العسكرية ضد البيزنطيين في بلاد الشام، كما أن محمد صلى الله عليه وسلم، انطلاقاً من فكرة عالمية الدعوة، أحب أن يختبر حال السلطة التي كانت تتولى حكم جزء من بلاد الشام؛ فكانت موقعة مؤتة التي سبقت وفاته، وبعد أن استقر الأمر للدولة العربية الإسلامية الوليدة وبدأ عصر الفتوح، وجهز قوة أراد إرسالها إلى الشام ثم توفي وتحركت الجيوش في عهد أبي بكر الصديق (رض)؛ ففي عام١٣هـ/ ٦٣٤م استعد الخليفة أبو بكر وشكل ثلاثة جيوش كان على رأس هذه الجيوش يزيد بن معاوية وشرحبيل بن حسنه وعمرو بن العاص وآخرون[٢]، وكانت خطتهم إرسال جماعات صغيرة هدفها مهاجمة القوات البيزنطية بسرعة ومن ثم إجبار العدو على الملاحقة وهكذا فقد اصطدمت القوات العربية بقوات بيزنطية في أكثر من معركة والمعركة الكبيرة الفاصلة وقعت في اليرموك .[٣]

وفي منطقة أجنادين[٤] عام ١٣هـ/ ٦٣٤م ألتقت القوات العربية مع القوات البيزنطية بقيادة ثيودور شقيق هرقل، وألحق المسلمين بالبيزنطيين خسارة فادحة وحررت هذه المعركة فلسطين من الحكم البيزنطي، وبعد معركة أجنادين توفي الخليفة أبو بكر(رض) ، وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب(رض)[٥]، حيث قام الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بمتابعة ما بدأه سلفه الخليفة الأول أبو بكر الصديق، وكانت فتوح الشام؛ وبعد السيطرة على دمشق تحرك المسلمون شمالاً لتحرير حماة وحمص وبعلبك وغيرها، وكانت معركة اليرموك المعركة الحاسمة التي حطمت القوات البيزنطية، وبعدها استطاع العرب المسلمون تحرير القدس، ثم سار عمرو بن العاص إلى مصر أواخر عام ١٧هـ/ ٦٣٨م وأستطاع السيطرة على مدينة الفرما والسيطرة على حصـن بابليون[٦] وانسحب البيزنطيون نحو الإسكندرية وبعد موت هرقل دبت الفوضى في العاصمة البيزنطية؛ بسبب الوراثة على العرش لذلك اضطرت الإمبراطورية إلى التفاوض مع العرب وانتهى الأمر بصلح الإسكندرية.[٧] وبعد فتح الإسكندرية تابعت قوات عمرو بن العاص زحفها نحو برقة وطرابلس وواصلوا تقدمهم في شمال افريقيا كما هاجموا آسيا الصغرى، واستولوا على أرمينية وقد استولى العرب على جزيرة قبرص[٨]، كما هجموا على جزيرة رودس وأصبحت القسطنطينية نفسها معرضة للخطر بشكل مباشر[٩] .

---

[١] الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، ج٢، ص ١٨٣ .

[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، بيروت ، ج٧، ص ٤٣ ..

[٣] العريني ، البيزنطيون والعرب ، ص ٤٤ .

[٤] أجنادين بلدة من نواحي فلسطين، قرب مدينة الرملة ، انظر ، الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ،ت ٦٢٣٠هـ، معجم البلدان، بيروت، دار صادر،(١٩٨٦)ج١، ص ١٠٣، وسيار اليه ، الحموي ، معجم البلدان،.

[٥] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج٢ ، ص ٦٤٤،٦٥٠ .

[٦] المصدر السابق ، ج٣، ص ٣٩٤.

[٧] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص ٢٥٥

[٨] قبرص: جزيرة في البحر المتوسط، يصلها المسافر من بلاد الشام مدة ستة عشر يوماً ، انظر : الحموي، البلدان، ج٤، ص ٣٠٥ .

[٩] الدره ، تاريخ العرب العسكري ، ص ٤٩



ولقي العرب المسلمون من أبناء بلاد الشام كل تأييد، فحرر العرب المسلمون مدينة بصري بقيادة «أبي عبيدة بن الجراح» ومساعدة أبنائها الناقمين على الحكم البيزنطي. وفشل البيزنطيون في استرجاعها في معركة «أجنادين» الشهيرة، مما جعل هرقل يشعر باليأس ويهزم أمام الجيوش العربية[١].

أنهت معركة اليرموك التي جرت يوم ٢٠ آب سنة ٦٣٦ الاحتلال البيزنطي لسورية وهزم الجيش البيزنطي، وخرجت سورية نهائياً من السيطرة البيزنطية مع بقاء جيوب للمقاومة. وكانت المقاومة في فلسطين أكثر عنفاً من بقية المقاطعات الشامية، وقاد هذه المقاومة البطريرك صفرونيوس، بطريرك القدس. وبعد حصار غير قصير استسلمت القدس وفتحت أبوابها للخليفة عمر. وفي شهر أكتوبر سنة ٦٤٠م، اتجه العرب نحو مصر لفتحها وتخليصها من الحكم البيزنطي[٢].

واسترجع العرب جميع الأرض المحتلة في مشرق الوطن ومغربه من الاحتلال البيزنطي؛ إذ بعد وفاة عمر بن الخطاب ولي الخلافة عثمان بن عفان كما هو معروف؛ فاستدعى عمرو بن العاص حاكم مصر ليقابله في المدينة، وأراد البيزنطيون أن يستفيدوا من فرصة غياب عمرو عن مصر ليقوموا بهجوم معاكس لاسترداد الإسكندرية، لذلك جهزوا سنة ٦٤٤م أسطولاً قوياً ووجهوه إلى الإسكندرية ليباغت الجيش العربي في غياب قائده[٣]. وعاد عمرو بن العاص على جناح السرعة إلى مصر واشتبك مع القائد البيزنطي نيكيو وانتصر عليه انتصاراً ساحقاً ودخل الإسكندرية من جديد وذلك في صيف ٦٤٦[٤].

وعاد البيزنطيون بأسطولهم وجيشهم إلى القسطنطينية. ومن المهم الإشارة إلى أن سكان الإسكندرية الأقباط برئاسة البطريرك بنيامين ساعدوا العرب في معاركهم ضد بيزنطة وانضموا إلى جانبهم؛ وتحررت مصر من السيادة البيزنطية[٥].

ويعود الفضل إلى معاوية بن أبي سفيان، والي دمشق، بتأليف الأسطول العربي الذي حارب بيزنطة بقيادته في قبرص، واستولى على عاصمتها كونستانتيا[٦]، وتابع معاوية مسيرته البحرية؛ فهاجم سنة ٦٥٤ جزيرة رودس واحتلها، ثم تابع مسيرته واحتل جزيرتي كوس وكريت[٧].

---

[١] خريسات، محمد، دور العرب المتنصرة في الفتوحات ، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام في صدر الإسلام، مج٢، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان، ١٦،٢٢ آذار ١٩٨٥، ١٩٨٧، ص١٤٢ ، وسيشار إليه لاحقاً: خريسات، دور العرب .

[٢] الحديثي ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ٣١٨ .

[٣] زينب عبد المجيد، العلاقات السياسية والدينية بين الدولة البيزنطية وغرب أوروبا في الفترة من ١٠٧١-١١٠١ ميلادية. الزقازيق ، ١٩٨٥، ص ٢٤٤، وسيشار إليه لاحقاً: زينب، العلاقات السياسية .

[٤] خميس، إبراهيم، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة، ١٩٩٧، ص ١٨٦،١٨٧، وسيشار إليه لاحقاً: خميس، دراسات .

[٥] اسمت، غنيم ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، دار المعرفة الجامعية ، مصر ، ١٩٩٠ ، وسيشار إليه لاحقاً غنيم ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ، ص ٦١ ، ٦٢.

[٦] عبد العزيز سالم وأحمد العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ج١ ص٣٨، وسيشار إليه لاحقاً: عبد العزيز وآخرون، تاريخ البحرية .

[٧] جزيرة كريت : جزيرة واقعة في البحر المتوسط ،بحر الروم، جنوب بلاد الإغريق ،اليونان،انظر الحموي، البلدان، ج٤، ص ٤٥٨ .



وبدا واضحا أنه يريد القسطنطينية. وقصة محاولات حصار العرب للقسطنطينية طويلة ومعروفة ولاسيما الصوائف والشواتي التي كانت يوجهها العرب إلى بيزنطة في الثغور والعواصم، ولكن لا بد من التذكير بأنها كانت تقليدا سنويا استمر طوال العصر الأموي وشطرا كبيرا من خلافة بني العباس.

وعقب وفاة هرقل عام ٢١هـ/ ٦٤١م خلف ابنه قسطنطين الثالث على العرش لعدة شهور وبعدها استولى على العرش هرقليون، وبعد عام قرر مجلس الشيوخ عزل هرقليون ونفيه وتنصيب قنسطانز من عام ٢٢هـ/ ٦٤٢م حتى عام ٤٨هـ/ ٦٦٨م وبعد مقتل قنسطاز تولى بعده ابنه قسطنطين الرابع ٦٦٨/٦٨٥م الذي عرف باسم قسطنطين الملتحي وفي عهده حدثت تطورات أهمها: اعتلاء الأمويين السلطة واتخاذ دمشق عاصمة لهم وبهذا أصبحوا على محك مباشر مع البيزنطيين إذ بدأ الخليفة معاوية بن أبي سفيان عملياته العسكرية ضد البيزنطيين عام ٥٥هـ/٦٧٣م لإسقاط القسطنطينية نفسها، وقد نجح الأسطول العربي في الوصول إلى مدينة (قيزيقوس) وجعلها مقراً لعملياته العسكرية وقد حاصرت القوات العربية مدينة القسطنطينية، لكنها لم تنجح في اختراقها توفي قسطنطين الرابع عام ٦٦هـ/٦٨٥م وترك العرش لأبنه جستنيان الملقب بجستنيان الثاني وحكم مرتين الأولى بين أعوام ٦٦-٧٦هـ/٦٨٥-٦٩٥م، والثانية بين أعوام ٨٦-٩٣هـ/٧٠٥-٧١١م،.

ولاشك في أن العرب الذين أقاموا دولة كبيرة وقوية لهم في شبه الجزيرة الإيبرية عرفت باسم الأندلس تذكروا على الدوام حلمهم القديم باحتلال القسطنطينية وإسقاط بيزنطة. وقد تحقق لهم ذلك على يد السلطنة العثمانية التي عدت نفسها وريثة خلافة العرب المسلمين[1].

فيما يلي ثبت بأسماء الأباطرة السوريين الذين توالوا على عرش بيزنطة:

الأسرة السورية أو الإيساورية[2]:

رقم	اسم	الفترة
١	ليون الثالث	(٧١٧-٧٤١)
٢	قسطنطين الخامس	(٧٤١-٧٧٥)
٣	ليون الرابع	(٧٧٥-٧٨٠)
٤	قسطنطين السادس	(٧٨٠-٧٩٧)
٥	إيرين (زوجة ليون الرابع)	(٧٩٧-٨٠٢)

[1] الجنزوري، علية عبد السميع. ، صفحة من تاريخ دولة الروم: العلاقات الإسلامية البيزنطية في فترة حكم النساء و أزواجهن ١٠٢٨،١٠٥٦ م= ٤١٩،٤٤٨ هـ ، بيروت ، ص ٣٤ ، وسيشار إليه لاحقاً: الجنزوري، صفحة من تاريخ دولة الروم .

[2] إيساوريا هو إقليم روماني جبلي في دواخل جنوب الأناضول وسكانهم قديما وصفهم الكتاب القدماء بأنهم قوم محاربون وغير أشداء وهمج ثم احتلهم القائد الروماني بوبليوس سيرفيليوس إيساوريكوس في بداية القرن الأول قبل الميلاد وبلادهم مع عاصمتهم إيساوريا بالايا أصبحت ضمن إقليم غلاطية ثم أصبحت لاحقا مسقط راس الإمبراطور زينون البيزنطية الذي كان عهده يعرف بالعهد الإيساوري، Encyclopedia Britannica، ١٥th Edition، ١٩٧٨.



بعد أن استأثر بيبين الثالث بالحكم في بلاد الفرنجة، منهياً حكم الأسرة الميروفنجية، ومؤسساً الأسرة الكارولنجية الحاكمة فيها، وطد ولده شارلمان - ومعناها شارل الأكبر - دعائم هذه المملكة، ووسع دائرتها بضم العديد من البلاد إليها، وشكل إمبراطورية ضخمة، شملت مساحات شاسعة من غرب أوروبا، ووسطها، وشمالها، لا تقل عن المساحات التي كانت تسيطر عليها الإمبراطورية الرومانية الغربية؛ فصار أقوى ملوك أوروبا النصارى في عصره، وأبرز ملوك أوروبا فيما يسمى بالعصور الوسطى؛ نظراً لما قام به من إصلاحات كثيرة في مجالات شتى، كالقوانين الإدارية، والقضاء، والنظم الكنسية، والتعليم، وغير ذلك[١].

جهوده في نشر النصرانية في أوروبا:

كان لشارلمان دورٌ كبير في نشر النصرانية بين العديد من أمم أوروبا الواقعة تحت سلطانه، كالآفار، والبافار، والفريز، والسكسون، واستخدم في ذلك شتى الوسائل بما فيها الإكراه والقسر، ونكل بالقبائل الوثنية التي أبت اعتناق النصرانية أشد التنكيل، وأجبرهم على التنصر بوحشية فظيعة، تماماً كما فعل جده شارل مارتل، وكان شارلمان يصطحب معه في جيوشه القسس والرهبان دائماً لنشر التنصير بين القبائل الوثنية، وقد كان هذا دأب أبيه بيبين من قبل[٢].

مناصرته للكنيسة الكاثوليكية الرومانية:

ناصر شارلمان الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ضد أعدائها من اللومبارديين، وآزر بابا روما ليون الثالث في صراعه مع نبلاء روما، ذلك الصراع الذي آل به إلى الفرار من مقر البابوية؛ فتوجه شارلمان إلى روما بمجرد سماع الخبر، وبرأ البابا، ونفى أعداءه، وكان شارلمان يحمل ألقابا كثيرة، كرئيس الدولة والكنيسة، ورئيس الأساقفة والكونتيات.

توج شارلمان كإمبراطور روماني مقدس، وبدأ عصر جديد من التحالف الإمبراطوري الكنسي، وقد دفعت جهود شارلمان في نصرة البابوية، ونشر النصرانية، وتوسيع دائرة المملكة الفرنجية بابا روما إلى تتويجه إمبرطورا رومانيا مقدسا على حد وصفهم[٣]، مفتتحا بذلك عصراً جديداً على القارة الأوروبية، تعاضدت فيه سلطتا الكنيسة الكاثوليكية، والإمبراطورية الرومانية المسماة بالمقدسة، وصارت الأولى تضفي على الثانية الهيبة والقداسة، وتستمد منها القوة والسلطان في نفس الوقت، وظلت القارة الأوروبية تعاني من هذا الحلف الكنسي الملكي، حتى مجيء ما يسمى بعصر التنوير.

نجح شارلمان في انتزاع بعض أراضي المسلمين بالأندلس، وواصل سياسة والده وجده في قتال مسلمي الأندلس، وسعى لإخراجهم منها بعد أن نجح جده في إيقاف الزحف الإسلامي المتصاعد في فرنسا، ونجح والده في القضاء على الوجود الإسلامي في جنوب فرنسا، وواصل شارلمان ما بدأ في عصر والده من دعم أمراء شمال الأندلس الثائرين على أمراء الأندلس من بني أمية[٤].

---

[١] كمال، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٩٨.

[٢] عباسة. "الحروب الصليبية و نزعة الحب الكورتوازي عباسة، محمود. الحروب الصليبية و نزعة الحب الكورتوازي، المجلة الجزائرية، م٩ ، ١٩٩٩م ، ص٤٠. وسيشار اليه ، عباسة ، الحروب الصليبية .

[٣] كان هذا الصنيع من بابا روما على غير اتفاق مع شارلمان، وجاء على غير رغبة منه؛ فقد كان لا يريد أن يكون هذا التتويج منحة من البابوية، وكان يرى نفسه أهلًا للحصول عليه بمحض جهوده، ومقدراته، كما كان التتويج بهذه الصورة مستفزًا للإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، والذي يعتبر نفسه الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطورية الرومانية، مما قد يؤذن بشقاق، وشرخ في العلاقات بين الإمبراطوريتين ، and Abu Ann. Hiafa’s Fief and it’s Role in the ،Rahim، Abd Al ،Sa’d Addin .٢٠٠٤AD,Diss. ١١٠٠،١٢٩١،H٩٤٣،٦٩٠،Islamic Franksh Struggle

[٤] عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٧٢.



وقد فشل شارلمان في حملاته الضخمة التي قادها على الأندلس إلى أن استطاع انتهاز فرصة الصراع الدائر على الإمارة في الأندلس عقب وفاة هشام بن عبد الرحمن الداخل، وتمكن من السيطرة على بعض مناطق في الشريط الضيق بشمال الأندلس، مثل إقليم كاتالونيا، وكانت قاعدتها مدينة برشلونة التي استسلمت بعد حصار طويل شاق، وإقليم جاسكونيا الذي كان يشمل أراغون، ونافار، كما حاول شارلمان اقتحام مدينة سرقسطة، ولكنه أقلع عنها بعد حصار طويل[١].

ظلت أغلب المناطق الحدودية ملتهبة، يسودها القلق، والترقب، ولم يحدث حسمٌ عسكري فيها لصالح أي من الفريقين، وتتابعت غزوات المسلمين إلى جنوب فرنسا بعد سقوط قواعدهم فيها فترة من الزمن، حتى أن جيشاً إسلامياً أرسله هشام بن عبد الرحمن الداخل قد عبر جبال البرانس، واجتاح العديد من المدن الجنوبية الفرنسية، وهزم جيوش الفرنجة، وواصل توغله في أراضيهم، حتى بلغ إقليم برطانية [بريتاني] بشمال غرب فرنسا، وعاد مثقلاً بغنائم وفيرة، كما وصلتها فيما بعد غزوات المنصور ابن أبي عامر رحمه الله تعالى في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، بيد أن تلك الغزوات لم ينتج عنها شيءٌ من عودة الجنوب الفرنسي إلى حوزة المسلمين، وإنما كانت للنكاية، وقطع الإمدادات عن نصارى الشمال، وحيازة الغنائم الوفيرة[٢].

كما سعت بعض الجزر النصرانية بالبحر المتوسط مثل كورسيكا، وسردانية، وجزر البليار الواقعة شرق الأندلس إلى الدخول في طاعة الإمبراطور الفرنجي شارلمان؛ لحمايتها من الغزو الإسلامي، ووقعت وقائع بحريةٌ كثيرة بين المسلمين والفرنجة في نطاق تلك الجزر.[٣]

دوره في دعم الكاثوليك في الأراضي المقدسة:

مارس الإمبراطور شارلمان دور الحامي للنصارى الكاثوليك في أراضي بيت المقدس، وكان يرسل الأموال الضخمة للحفاظ على كنائسهم، وأديرتهم، والأماكن التي يقدسونها، وشيد العديد من الأبنية لرعاية الحجاج النصارى القادمين من مملكته إلى تلك الأراضي، وأسس كنيسة قرب مستشفى جريجوري الأول الملقب بالعظيم[٤]، ورد المستشفى إلى الحجاج اللاتين، وعهد لمجموعة من الرهبان بخدمة المستشفى والكنيسة، وتعد تلك الكنيسة في نظر بعض المؤرخين النواة الأولى لهيئة الفرسان الاسبتارية، أقدم الهيئات الصليبية التي جمعت بين الرهبنة، والفروسية[٥].

كان هذا الصنيع من بابا روما على غير اتفاق مع شارلمان، وجاء على غير رغبة منه؛ فقد كان لا يريد أن يكون هذا التتويج منحة من البابوية، وكان يرى نفسه أهلا للحصول عليه بمحض جهوده، ومقدراته، كما كان التتويج بهذه الصورة مستفزا للإمبراطور البيزنطي في القسطنطينية، والذي يعتبر نفسه الوريث الشرعي الوحيد للإمبراطورية الرومانية، مما قد يؤذن بشقاق، وشرخ في العلاقات بين الإمبراطوريتين[٦].

---

[١] هالدون، بيزنطة في حرب، ص ٢٥ .

[٢] كمال، تاريخ الدولة البيزنطية ، ص ١١٢

[٣] عمران، معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، ص ٥٧

[٤] رستم، الروم في سياستهم ، ص ٤٣ .

[٥] الزيدي ، مصعب حمادي نجم. "موقف تنظيمي الإسبتارية والداوية من حروب الناصر صلاح الدين الأيوبي ٥٧٣ - ٥٨٧ هـ،١١٧٧ - ١١٩١ م." مجلة كلية العلوم الاسلامية ٦.٣ ،٢٠٠٩، ص ٨٥،١١٤، وسيشار إليه لاحقاً: الزيدي، موقف تنظيمي الإسبتارية .

[٦] الطحاوى، حاتم عبدالرحمن حاتم. "العلاقات الاقتصادية بين الإمبراطورية البيزنطية والمدن التجارية الإيطالية ،١٩٩٧,١٢٠٤،١٠٨١، ص ١٥٦، وسيشار إليه لاحقاً: الطحاوي، العلاقات الاقتصادية .



العلاقات الساسانية-البيزنطية ٥٢٧-٦٢٨:

كانت آخر سلسلة حروب بين الإمبراطورية البيزنطية والساسانيون بإيران، لكن الحرب الأخيرة كانت الأعنف لأن كلاهما كاد يقضي على الطرف الآخر.

عانت الإمبراطورية البيزنطية الكثير في سبيل نقل الحرير من الصين حيث كان الطريق البري للصين يمر عبر الأراضي الفارسية، كما كان الطريق الجنوبي عبر المحيط الهندي يسيطر عليه كذلك التجار الفرس الذين يبحرون من الخليج العربي الى سيلان حيث تتجمع البضائع الآتية من الصين[١].

وجد جستنيان نفسه في مواجهة جديدة مع الفرس، وهو الذي أجبرته الظروف على الدخول معهم في جولتين من الحروب عرفت بالحرب الفارسية الاولى (٥٢٧-٥٢٣م)، والحرب الفارسية الثانية (٥٤٠-٥٦٢م)، وقد حاول في كل مرة منهما أن ينتهي الأمر بالسلم حتى لو كان ذلك لقاء مبلغ ضخم من المال يدفعه للفرس مقابل السلام حتى يتفرغ لمشاريعه التوسعية في الغرب الأوروبي[٢].

وكان في احتكار تجارة الحرير خطر استطاع جستنيان أن يستغله؛ فالواقع أن هذا الأمر كان بالنسبة للبيزنطيين المضطرين للحصول على هذه المادة عبئا ثقيلا، إذ لم يكن في هذه التجارة وسطاء سوى الفرس، ولم يكن ثمة أمة كالفرس تكثر الحروب بينها وبينهم، ترى ألم يكن يهمهم أن يروا تجارهم يحملون إلى أعدائهم المبالغ الضخمة المخصصة لشراء المنسوجات الحريرية؟ وهل كان عليهم أن يقبلوا بهدوء انقطاع هذه التجارة بسبب حالة الحرب[٣] .

يضاف لذلك أن الحروب المستمرة مع الفرس أدت لارتفاع ثمن الحرير الخام ارتفاعاً كبيراً، جعل الإمبراطور يتدخل ويصدر منشوراً يحظر فيه أن يباع الحرير بسعر يزيد عن خمسة[٤] عشر صولدياً ذهبياً للرطل الواحد، غير أن النتيجة الوحيدة التي ترتبت على هذا المنشور هي أن رفض تجار الفرس بيع بضائعهم رفضاً باتاً، ونتج عن ذلك إفلاس صناع الحرير وتوقفت تجارته تماماً، واضطرت الدولة إزاء هذه الكارثة أن تخضع لمطالب الوسطاء الفرس[٥].

وكانت إدارة الخارجية البيزنطية تعلم يقينا أن جهودها لحرمان الفرس من الحصول على الأرباح الهائلة التي يجنونها بقيامهم بدور الوسطاء في تجارة الحرير عبر الطريق البري لن تحقق النجاح الذي ترتجيه، ولذا كانت تتحين الفرص للبحث عن طريق أخر يصلها مباشرة مع مراكز بيع الحرير، وسرعان ما جاءتها هذه الفرصة على غير توقع، عندما وضع الأحباش إقدامهم في الجنوب الغربي لشبه الجزيرة العربية[٦] .

---

[١] أبو راس ، محمد، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطورية الرومانية ، دار العلم، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ٩، وسيشار إليه لاحقاً : محمد، الأنباط.

[٢] محمد، الأنباط ، ص ٨٨ .

[٣] هايد ، تاريخ التجارة ، ١،١٨ .

[٤] عبد الجابر ، عبد الله وآخرون، الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة، دمشق : دار ومؤسسة رسالة، ٢٠٠٩ ، ص ٣٦٥ ، وسيشار إليه لاحقاً : عبد الجابر، الجزيرة العربية .

[٥] بينز، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥٠م، ص١٧١،١٧٢ ،وسيشار اليه ، بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، فرانك ، ايرين، طريق الحرير ، ترجمة أحمد محمود، المركز القومي، ط٢، ٢٠١١م ، ص ٢٠٨ ، وسيشار إليه لاحقاً: فرانك ، طريق الحرير .

[٦] عبد الحميد ، الصراع الدولي حول شبه الجزيرة العربية ، ١٧٥ .



وبدأ الأمر حينما تهود الملك الحميري ذو نواس ثم شرع في اضطهاد المسيحيين في مملكته وتخييرهم بين الدخول في اليهودية او القتل، فلما تمسكوا بدينهم القاهم في اخاديد عميقة مشتعلة بالنار[1] ، وانتهز النجاشي حاكم مملكة اكسوم الحبشية تلك الفرصة ليغزو اليمن بحجة الانتقام لما حدث للمسيحيين هناك من اضطهاد وقتل .

وكان بعض الناجين من هذا الاضطهاد اتجه لجستنيان يطلب نجدته؛ فأرسل الأخير إلى النجاشي يطلب منه نجدتهم، وأمدهم ببعض السفن والعتاد لإنجاز تلك المهمة، فلم تكن سفن النجاشي تسمح له بنقل أعداد كبيرة من الجنود إلى الساحل العربي، لذلك تكفل بهذه المهمة سفن الأسطول البيزنطي الراسية في موانئ البحر الأحمر[2].

وحاول ذو نواس بعد أن وجد هذا التحالف بين بيزنطة واكسوم، أن يبحث عن حليف قوي يواجههم به، وأظهر توجه نحو الفرس وحلفائهم من عرب مملكة الحيرة مستغلا العداء التقليدي بين هؤلاء، لكن الدبلوماسية البيزنطية نجحت في منع أي عون يقدم له من هذه الناحية، وكان الدافع الديني هو السبب الظاهر، أما الدافع الحقيقي فكان دافعاً اقتصادياً[3] .

يلاحظ أن الجهود الدبلوماسية البيزنطية المكثفة مع مملكة اكسوم وشيوخ القبائل العربية في شبه الجزيرة، لم تكن لتغيب عن أعين الساسانيين في فارس، وهم يقدرون تماما مدى خطورة امتداد النفوذ البيزنطي إلى قرب حدودهم الجنوبية الغربية، وإذا كانوا قد ضمنوا سيطرتهم الاحتكارية على طريق الحرير عبر وسط آسيا[4]، وحققوا نجاحاً كبيراً في استنزاف الخزانة البيزنطية عن طريق المكوس الجمركية على هذه التجارة وغيرها ، والجزية السنوية التي يحصلون عليها، فإنه لا ضير أيضاً أن يمدوا أصابعهم وانفهم إلى هذه المنطقة، حتى تكتمل حلقات الحصار الاقتصادي مستغلين أهم سلعة بالمسبة لبيزنطة في زمانها حول عدوهم التقليدي الإمبراطورية البيزنطية[5].

لذلك سارعت وفودهم لاهثة صوب اليمن لتشارك في مراسم الاحتفال بترميم سد مأرب حوالي عام ٥٤٣/٥٤٢ م وتقدم التهنئة إلى أبرهة، الذي صار الحاكم الفعلي لليمن بعد أن أزاح السميفع من الحكم، ولم يقف جستنيان مكتوف الأيدي إزاء ذلك فحرص أن يكون له مقعد على طاولة الاحتفال، فأرسل وفدا ملكيا يحيط به حلفاؤه من زعماء القبائل العربية كالحارث بن جبلة زعيم الغساسنة وأبي كرب شيخ عرب فلسطين.

برزت متاعب بيزنطة في عام ٥٥٢م تظهر عند في حصولها على الحرير، حين وصل إلى القسطنطينية راهبان نسطوريان يحملان في عكازيهما دودة القز وبيضها، وبدأت تنتشر تربيتها في أنحاء الإمبراطورية، ما أوحى للجميع أن بيزنطة غدت قادرة على تحقيق الاكتفاء الذاتي من الحرير والتخلص من قبضة الفرس لكن المصانع البيزنطية لم تتمكن من إنتاج قدر من الحرير الخام يكفي مطالبها كلها، لذلك ظلت لسنوات بعد ذلك في حاجة لشرائه، ومن ثم الخضوع مجدداً لسطوة الفرس[6].[7]

---

[1] جرومان، أدولف وآخرون ، التاريخ العربي القديم ، فؤاد حسنين ، القاهرة :١٩٥٨م ، ص٣٠٣ ، وسيشار إليه لاحقاً: جرومان، التاريخ العربي .

[2] الجوهري، يسرى، الشمال الإفريقي ، الهيئة المصرية، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ٨٥ ، الجوهري، الشمال الإفريقي .

[3] عبد الله ، بكر، الجزيرة العربية، مطابع البيان، ط٣، الرياض، د.ت، ص ٣٦٧ ، بكر، الجزيرة العربية .

[4] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٦٩ .

[5] عبد الحميد ، الصراع الدولي ، ص ١٧٩ .

[6] هايد، تاريخ التجارة ، ١،٢٥ .

[7] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٧٠ .



من خلال رصد الصراع السابق يمكننا أن نقف على الملاحظات التالية:

كان الصراع بين البيزنطيين والفرس حول طريق الحرير الجنوبي خلال عهد جستنيان جزءاً لا يتجزأ من الصراع بين القوتين عسكرياً واقتصادياً.

يمكن الصراع الذي دار شمالا بين الطرفين واتسم الصدام العسكري الأحيان والتفاهم الدبلوماسي في أحيان أخرى، نجد أن الصراع جنوبا اتخذ الطابع الدبلوماسي بشكل عام.

برغم ان الشواهد تؤكد نجاح الدبلوماسية البيزنطية في حسم السيطرة على جنوب شبه الجزيرة العربية، ومدخل البحر الاحمر، من خلال تحالفها مع مملكة اكسوم الحبشية[١].

إذا كانت بداية هذا الصراع قد شهدت نجاحا دبلوماسيا بيزنطيا تمثل في تحالفها مع القوى السياسية في المنطقة، فان نهايته شهدت نجاحا عسكريا فارسيا تمثل في استيلائهم على اليمن، فعوض الفرس بذلك تأخرهم في مواجهة البيزنطيين في الجنوب بشكل حاسم[٢].

وحصل انقلاب عسكري في عام 622م في مؤسسة الحكم البيزنطية، حيث تمكن هرقل (641-610) حاكم قرطاجة من الاستيلاء على القسطنطينية وأعاد تنظيم الجيش. أبدى هرقل شجاعة ومهارة كبيرة في مواجهة الخطر الفارسي. فبدلا من منازلة جيوش الفرس المتوغلة في أراضي الإمبراطورية، قام بالالتفاف عليهم ومهاجمتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية؛ إذ تحالف مع خزر الترك، وترك العاصمة المحاصرة القسطنطينية وهاجم بلاد فارس من المؤخّرة عن طريق الإبحار من البحر الأسود، فاستولى على أذربيجان ميديا سنة 624، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي انتقاما لتخريب كنيسة القيامة في القدس.[٣]

وفي هذه الأثناء ظَهرَ شكٌّ متبادلَ بين الملك كسرى الثاني وقائد جيشه شهربراز .وقام الوكلاءُ البيزنطيون بتسريب رسائل مزيفة للجنرال شهرباراز تظهر بأنّ الملك كسرى الثاني كَانَ يُخطّطُ لإعدامه؛ فخاف الجنرالَ شهرباراز على حياته وبَقي محايدا أثناء هذه الفترة الحرجة. وخسرت بلاد فارس بذلك خدماتَ إحدى أكبر جيوشها وإحدى أفضل جنرالاتها. إضافة إلى ذلك، توفي بشكل مفاجئ شاهين وسباهبود العظيم قادة الجيش الساساني والذي كان تحت سيطرته بلاد القوقاز وبلاد الأناضول .وهذا ما رَجَّحَ كفّة الميزان لمصلحة البيزنطيين، وأوصل الملك كسرى الثاني إلى حالة الكآبة .[٤]

استغل الإمبراطور البيزنطي هرقل بمساعدة الخزر وقوّات تركية أخرى، غياب قادة الجيش الساساني وربح عدّة انتصارات مُدَمّرة للفرس بعد ١٥ عاما من حربهم للبيزنطيين. حملة الملك هرقل تَتوّجت في معركة نينوى، حيث انتصر الملك هرقل في كانون الأول عام 627(بدون مساعدة الخزر الذي تَركوه) انتصاراً ساحقاً على الجيش الفارسي بقيادة راهزاد .وهذه المعركة الحاسمة قد قررت مصير الصراع بين الطرفين[٥].

---

[١] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٧٥ .

[٢] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٧٦ .

[٣] الحيدري ، علي هادي حمزة ، التنظيمات الإدارية في الدولة الساسانية ، ٦٥١،٢٢٦،٢٢٤م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد كلية التربية ، ٢٠١١ ، ص ٤٠، وسيشار إليه لاحقاً: الحيدري، التنظيمات الإدارية .

[٤] الحيدري، التنظيمات الإدارية، ص ٤٦ .

[٥] الطبري ، تاريخه ، ج٥ ، ص ٢٨٨، اليعقوبي ، ج٢ ، ٢٤٠ص



وفي أوائل القرن السادس الميلادي، تعرّضت سورية لخطر التوسع الفارسي .وحاول أباطرة بيزنطة، الوقوف ضد هذا الخطر في عهد الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٣٢م)، وقد دوّن المؤرخ السوري «بروكوبيوس»[١] من قيسارية معلومات هامة عن تلك الأحداث، التي بلغت ذروة خطرها في عهد كسرى أنوشروان (٥٣١-٥٧٩م)، وفي عهد كسرى الثاني، تجددت سياسة الهجوم الفارسي، عندما اكتسح سورية الشمالية وخرب مدنها عام ٦٠٨م وتابع زحفه؛ فاتجه القائد هرقل إلى القسطنطينية، التي توج فيها في ١٥ تشرين الأول عام ٦١١م في فترة حرجة[٢]، تمكن فيها القائد الساساني «شهر برز» من الاستيلاء على أفاميا وهدمها عام ٦١٣م ومهاجمة أنطاكية والاستيلاء عليها، ثم الاتجاه إلى دمشق وإلى بيت المقدس التي أقام فيها حامية من جنوده. ولكن المواطنين، فتكوا بهذه الحامية، مما أثار غضب «شهر برز» وجعله يعود إليها من جديد، ويفتك بسكانها وينفي بطريرك بيت المقدس

كان كسرى الثاني، قد وجه إلى هرقل رسالة تتصف بالغرور، مما جعل هرقل يقسم أن يسير بنفسه إلى ميدان القتال على رأس قواته؛ فاهتم فعلاً بقتال الفرس الساسانيين منذ عام ٦٢٢م، وقاد ست حملات حربية دامت حتى ٦٢٧م، وانتهت بهزيمة الساسانيين وانسحابهم إلى بلادهم للدفاع عن عاصمتهم، في وقت استطاع فيه هرقل، أن يحرق معابد النار في عاصمة ميديا ومدينة زرادشت.[٣]

ووصل خبر هذه المعركة إلى المسلمين عام ٦٢٨ م/ ٦هـ بعد أن انصرفوا من مكة عاقدين صلح الحديبية، ثم أرسل نبي الإسلام محمد الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى الثاني يدعوه للإسلام. فغضب كسرى غضبا شديدا، فجذب الرسالة من يد كاتبه وجعل يمزقها دون أن يعلم ما فيها وهو يصيح: أيكتب لي بهذا، وهو عبدي؟!! ثم أمر بعبد الله بن حذافة أن يخرج من مجلسه؛ فأخرج، فلما قدم عبد الله على نبي الله أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه الكتاب، فدعا على الفرس أن يمزقوا كل ممزق[٤].

زحف هرقل خلال العراق، حيث وصلته أخبارَ اغتيال الملك كسرى الثاني. ثم تحالف مع الأحباش عام 629م / ٧هـ وانتصر مجددا على الفرس وصار قريبا من المدائن. وعندها رآى شيرويه أن من الأفضل أن يعقد الصلح مع هرقل. وبمقتضاه استردت بيزنطة كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر.

تمكن هرقل من دخول القدس حاملاً ما يسمى بالصليب المقدس عام ٦٣٠/ ٨هـ .. وهذه هي سنة لقاءه مع أبي سفيان لما وصلته رسالة نبي الإسلام محمد .وبعد رجوع هرقل إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال الأبطال، وحمل له الشعب أغصان الزيتون ورتلوا المزامير وهتفوا باسمه.

لم تدم فرحة هرقل طويلاً. إذ لم تمض إلا برهة من الزمن وإذا به يواجه جيوش المسلمين. وبعد معركة اليرموك، حسم مصير بلاد الشام، ثم لم تلبث مصر أن مشت كذلك، ثم شمال أفريقيا.

---

[١] ألما بارزاً من الزمن القديم من فلسطين الأولى وقد أصبح المؤرخ الأول للقرن السادس للميلاد بمرافقته لقائد الجيش الروماني بيليساريوس في حروب الإمبراطور جستنيان، واضعاً كتبه "حروب جستنيان"، و"بنايات جستنيان" و"التاريخ السري" المحتفى به. ويعتبر بشكل شائع آخر المؤرخين الرئيسيين للعالم الغربي القديم.de Camp ، L. Sprague،١٩٤٩،Lest Darkness Fall. Ballantine Books. صفحة ١١١.

[٢] نقولا ، زياده ، التطور الإداري لبلاد الشام بين بيزنطة والعرب ، عن المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، تحرير محمد عدنان البخيت و محمد عصفور ، الجامعة الاردنية ، الاردن ، ١٩٩٢م ، وسيشار اليه ، نقولا ، التطور الإداري لبلاد الشام في الفترة البيزنطية ، ص ٩٨ .

[٣] ابن كثير، البداية و النهاية ، ج٤ ، ص ٢٦١ ، وزياده ، التطور الإداري ، ص١٠١

[٤] منى، محمود، دراسات في العلاقات بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية في العصر العباسي الأول، دار الفكر العربي، ١٩٩٠م ، ص ٢٣، وسيشار إليه لاحقاً: منى، دراسات في العلاقات .



مصادر التاريخ البيزنطي[١] في المصنفات العربية والاسلامية:

الكتاب: مروج الذهب ومعادن الجوهر المؤلف: أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي (المتوفى: ٣٤٦هـ) تحقيق: أسعد داغر عدد الأجزاء: ٤ الناشر: دار الهجرة قم، تاريخ النشر: ١٤٠٩هـ

يبين المسعودي محتوى كتابه حول ما ذكر من اخبار حول الامم السابقة ومنهم البيزنطيين و يقول " قد ذكرنا فيما سلف من هذا الكتاب أنواعاً من الأخبار، وفنوناً من العلم من أخبار الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، والملوك وسيرها، والأمم وأخبارها، وأخبار الأرض والبحار، وما فيها من العجائب والآثار، وما اتصل بذلك، ليستدل به على ما سلف من كتبنا، ومدخلا إلى ما تقدم من تصنيفنا في أنواع العلوم مما قدمنا ذكره، ولم نترك نوعاً من العلوم، ولا فنا من الأخبار، ولا طريفا من الآثار، إلا أوردناه في هذا الكتاب مفصلا، أو ذكرناه مجملا، أو أشرنا إليه بضرب من الإشارات، أو لوحنا إليه بفحوى من العبارات، من أخبار العجم والعرب والكوائن والأحداث في سائر الأمم"[٢].

الكتاب: الكامل في التاريخ المؤلف: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ) تحقيق: عمر عبد السلام تدمري عدد الأجزاء: ١٠، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان الطبعة: الأولى، ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م

يبين ابن الأثير الغاية والمقصد من كتابه وأبرز محتوياته و مصادره التي بدأها بكتاب تاريخ الطبري ثم تابع لبين منهجه في الكتاب و لقد تضمنت أخباره عهد الدولة البيزنطية من غزوات و ملوك و أخبار الروم منذ دخولهم و ما حدث إلى فترة خروجهم و الفتح الإسلامي، حيث يقول في مقدمته " ابتدأت بالتاريخ الكبير الذي صنفه الإمام أبو جعفر الطبري، إذ هو الكتاب المعول عند الكافة عليه والمرجوع عند الاختلاف إليه، فأخذت ما فيه من جميع تراجمه لم أخل بترجمة واحدة منها وقد ذكر هو في أكثر الحوادث روايات ذوات عدد كل رواية منها مثل التي قبلها أو أقل منها وربما زاد الشيء اليسير أو نقصه؛ فقصدت أتم الروايات فنقلتها وأضفت إليها من غيرها ما ليس فيها وأودعت كل شيء مكانه فجاء جميع ما في تلك الحادثة على اختلاف طرقها سياقا واحدا على ما تراه[٣].

ثم فرغت منه وأخذت غيره من التواريخ المشهورة فطالعتها وأضفت منها إلى ما نقلته من تاريخ الطبري ما ليس فيه ووضعت كل شيء منها موضعه إلا ما يتعلق بما جرى بين أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم فإني لم أضف إلى ما نقله أبو جعفر شيئاً إلا ما فيه زيادة بيان أو اسم إنسان أو ما لا يطعن على أحد منهم في نقله، وإنما اعتمدت عليه من بين المؤرخين إذ هو الإمام المتقن حقا الجامع علما وصحة اعتقاد وصدقاً[٤].

---

[١] النصرات، محمد والنعيمات، سلامة، المصادر التاريخية لدراسة تاريخ جنوب الأردن خلال الفترة البيزنطية ،٦٣٦،٣٢٤م،المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد٣، العدد٢، ٢٠٠٩م، ص ١،٣٨، وسيشار إليه لاحقاً، النصرات وآخرون، المصادر التاريخية .

(٢) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ،ت٣٤٦هـ،مروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،ط٥ـ ١٩٧٣ـ دار الفكر ـ بيروت ، ج٢، ص ٢٧٦ ، وسيشار إليه لاحقاً المسعودي، مروج الذهب.

[٣] الطبري، تاريخ الأمم ، ج٣، ص٢٩١ ، الأصفهاني ، حمد بن محمد المرزوقي ت ، كتاب الأزمنة والأمكنة، ج٢ ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩١٢ .ص ٢٣١، وسيشار إليه لاحقاً : الأصفهاني، كتاب الأزمنة والأمكنة ، وابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، ج٢ ، ص ١٨٥.

[٤] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧ ، ص ١٠٦ .



وقال "على أني لم أنقل إلا من التواريخ المذكورة والكتب المشهورة ممن يعلم بصدقهم فيما نقلوه وصحة ما دونوه، ولم أكن كالخابط في ظلماء الليالي ولا كمن يجمع الحصبا واللآلئ.

ورأيتهم أيضا يذكرون الحادثة الواحدة في سنين ويذكرون منها في كل شهر أشياء فتأتي الحادثة مقطعة لا يحصل منها على غرض ولا تفهم إلا بعد إمعان النظر، فجمعت أنا الحادثة في موضع واحد وذكرت كل شيء منها في أي شهر أو سنة كانت فأتت متناسقة متتابعة قد أخذ بعضها برقاب بعض"[١].

وذكر في كل سنة لكل حادثة كبيرة مشهورة ترجمة تخصها ذكرت في آخر كل سنة من توفي فيها من مشهوري العلماء والأعيان والفضلاء وضبطت الأسماء المشتبهة المؤتلفة في الخط المختلفة في اللفظ الواردة فيه بالحروف ضبطا يزيل الإشكال ويغني عن الإنقاط والأشكال، فلما جمعت أكثره أعرضت عنه مدة طويلة لحوادث تجددت وقواطع توالت وتعددت ولأن معرفتي بهذا النوع كملت وتمت[٢].

كتاب تاريخ الطبري : تاريخ الرسل والملوك، وصلة تاريخ الطبري لمؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) (صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، المتوفى: ٣٦٩هـ) عدد الأجزاء: ١١، الناشر: دار التراث - بيروت الطبعة: الثانية - ١٣٨٧ هـ .

نلاحظ تقارب كبير في أخبار الطبري و ابن الأثير؛ لأنه حسب ما ذكر ابن الأثير أنه نقل أخبار الطبري وزاد عليها، ويتبين من خلال كتاب تاريخ الطبري أن المؤلف اهتم بالتأريخ للمعارك والفتوحات الإسلامية بجنوب بلاد الشام و ما حدث فترة البيزنطينين من تطورت و تغيرات تمس المجتمع و المنطقة بشكل عام حيث يبن الطبري من خلال مقدمته " أنا ذاكر في كتابي هذا من ملوك كل زمان، من لدن ابتدأ ربنا جل جلاله خلق خلقه إلى حال فنائهم، من انتهى إلينا خبره ممن ابتدأه الله تعالى بآلائه ونعمه فشكر نعمه، من رسول له مرسل، أو ملك مسلط، أو خليفة مستخلف، فزاده إلى ما ابتدأه به من نعمه في العاجل نعما، وإلى ما تفضل به عليه فضلاً، ومن أخر ذلك له منهم، وجعله له عنده ذخرا ومن كفر منهم نعمه فسلبه ما ابتدأه به من نعمه، وعجل له نقمه ومن كفر منهم نعمه فمتعه بما أنعم به عليه إلى حين وفاته وهلاكه، مقرونا ذكر كل من أنا ذاكره منهم في كتابي هذا بذكر زمانه، وجمل ما كان من حوادث الأمور في عصره وأيامه، إذ كان الاستقصاء في ذلك يقصر عنه العمر، وتطول به الكتب، مع ذكري مع ذلك مبلغ مدة أكله، وحين أجله "[٣].

كتاب فتوح البلدان، المؤلف: أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري (المتوفى: ٢٧٩هـ)، الناشر: دار ومكتبة الهلال- بيروت، عام النشر: ١٩٨٨ م عدد الأجزاء ١.

يبين البلاذري في كتابه أبرز الاخبار التي تناولت موضوع هجرة النبي والغزوات والفتوح التي حدثت بين المسلمين والبيزنطيين وما نتج عنها وما تبعها من احداث ويبن البلاذري ان كتابه يحوي عدة جوانب أبرزها في مقدمته حيث يقول " ويتحدث هذا الكتاب عن أخبار الفتوح الإسلامية بلداً بلداً من أيام النبي صلى الله عليه وسلم. كما يضم فضلا عن الفتوح أبحاثا عمرانية وسياسية لم يتطرق إليها أي من كتب التاريخ: كأحكام الخراج، والعطاء، وأمر الخاتم، والنقود، وغيرها[٤] .

ويعتبر هذا الكتاب من أجمع كتب الفتوح وأصحها، وقد طبع عدة طبعات منها: طبعة ليدن عام ١٨٧٠ م بعناية المستشرق «دي غويه».

---

[١] المصدر نفسه، ج ٧ ، ص ١٠٧ ، ١٠٩ .
[٢] ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٧ ، ص ١١١، ١١٢ .
[٣] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٥٩٥ .
[٤] البلاذري ، فتوح البلدان، ص ٥٩٥ ، ٥٩٦ .



مؤرخو عصر هرقل:

لم يزخر عهد الإمبراطور هرقل (٦١٠ – ٦٤١م) بكثير من المؤرخين، إذ يعتبر ثيوفلاكت من المؤرخين القلائل في تلك الفترة، أطلق عليه لقب سيموكاتا والذي يعني " القط ذو الأنف الأفطس " وذلك تعبيراً عن شكله وسمته، وكان من أصل مصري، وربما كان تاريخ مولده عام ٥٨٠ م، تلقى تعليمه الأولي من الدراسات الأدبية والفلسفة في مدينة الاسكندرية، ثم درس القانون، بعدها أبحر إلى القسطنطينية لمواصلة دراساته القانونية، وهناك التحق بخدمة سرجيوس بطريرك العاصمة، كما تم تعيين ثيوفلاكت سكرتيرا للإمبراطور هرقل[١].

ألف سيموكاتا ثلاث مؤلفات صغيرة الى جانب كتابه التاريخي وهي : " في مشاكل التاريخ الطبيعي "، و " الرسائل الاخلاقية " وكتاب " عن شروط الحياة المقدرة " ، اما كتابه التاريخ فقد أكمل تاريخ ميناندر الحارس؛ إذ كتب تاريخا مكونا من ثمانية كتب يستعرض فيها تاريخ موريس (٥٨٢-٦٠٢م)[٢] ، وكان تاريخ سيموكاتا يدور حول نقطتين رئيستين : الحرب البيزنطية في البلقان ضد السلاف والآفار، والحرب البيزنطية في الشرق ضد الفرس ، اذ امتاز بأسلوبه الادبي البليغ ، فاقتبس الكثير من الشعراء القدامى ،لكنه افرط في استعمال التعابير الرمزية والافكار المجازية[٣].

كتاب الحوليات:

شهدت الإمبراطورية البيزنطية حركة ادبية كبيرة خاصة في مجال التدوين التاريخي، اختلفت قوتها خلال الفترة الممتدة ما بين (٢٨٤ – ١٤٥٣ م)؛ فتارة تكون قوية بالعديد من الكتابات، وتارة أخرى تكون ضعيفة لا ترقى إلى مستوى الكتابات التاريخية الكلاسيكية في العصر الروماني، ولكن في كل الأحوال لم يخل عصر أسرة من الأسر البيزنطية من كتاب الحوليات في عصرها الاوسط.

كانت أولى المحاولات البيزنطية لكتابة نوعاً من التاريخ الحولي قد بدأ مع أوائل القرن السادس الميلادي في عصر الامبراطور جستنيان (٥٢٧-٥٦٥ م) وهو النوع الذي اعتمد على تدوين الاحداث بناء على النظام الحولي بالسنوات، الذي غالبا ما يبدأ بخلق أدم أبي البشر عليه السلام ويستمر حتى زمن الكاتب، وهو يجعل خلق الله لأدم عليه السلام يبدأ بعام ٥٤٩٢ قبل ميلاد المسيح عليه السلام، وظل هذا الأمر حتى القرن العاشر الميلادي، عندما قام قس يدعى جورج بتغيير هذا التاريخ ليجعل بداية خلق العالم عام ٥٥٠٨ قبل ميلاد المسيح.

وكانت كلمة حولية قد تم استنباطها خلال العصر البيزنطي من الكلمات اليونانية التي جميعها التاريخ الحولي، والتي انقسمت بدورها إلى عدة أقسام : الأعمال التاريخية التي تصف تاريخ العالم من بداية الخلق ويمثلها حولية يوحنا مالالاس وجورج السينكيللوس ، وجورج هامرتولوس، وجليكاس أو جزء كبير من التاريخ امثال ثيوفانيس المعترف ، وهذا النوع يعتمد على معاينة الكاتب الشخصية للأحداث، أما النوع الثاني وهو الحوليات القصيرة التي تصف الاحداث بشكل حولي ولفترة زمنية محدودة، وظهرت تلك الحوليات في شكل الحوليات البيزنطية القصيرة التي تصف الهجمات التركية على الاراضي البيزنطية[٤].

---

(١) إسماعيل، ليلى، القسطنطينية في كتابات الجغرافيين، مجلة المؤرخ المصري، ع٤، ص ١٥٢، وسيشار إليه لاحقاً : ليلى، القسطنطينية

(٢) طارق، منصور محمد ، قطوف الفكر البيزنطي ، مصر العربية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢م، ج١ ، دار مصر العربية للنشر ، القاهرة ،٢٠٠١م ، ص١٤،١٥، وسيشار إليه لاحقاً : طارق، القطوف .

(٣) زايد ، محمد، مصادر تاريخ العصور الوسطى : التاريخ البيزنطي جامعة الفيوم ، ٢٠٠٢، ص ٤٢، وسيشار إليه لاحقاً : زايد، مصادر تاريخ العصور الوسطى .

(٤) زايد ، مصادر تاريخ العصور الوسطى ، ص ٧٩ .



تعتبر حولية يوحنا مالالاس (٤٩٠ – ٥٧٠ م) أولى الحوليات البيزنطية التي جمعت بين التاريخ العلماني والتوراتي في وقت واحد ، واعتبر علمه من اهم الاعمال التاريخية في عصره على الرغم من افتقاره للمعايير الكلاسيكية لغة وأسلوباً، إذ كتبت الحولية بلغة يونانية أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى ، وبذلك اختلف مالالاس[١] عن أقرانه من الكتاب في العصر نفسه أمثال بروكوبيوس واجاثياس، وربما لأنه كان يخاطب العامة اكثر من الارستقراطيين في تاريخه ، ولكنه ذكر المصطلحات الإدارية لألقاب الموظفين والوظائف في الادارة الحكومية آنذاك بكلمات لاتينية بأحرف يونانية.

أما عن تاريخ كتابة الحولية؛ فيمكن القول أنه بدأ الكتابة في مدينة انطاكية عام ٥٣٠ م، ثم اعاد تنقيحها في مدينة القسطنطينية بعد موت جستنيان عام ٥٦٥ م، تتكون حولية مالالاس من ثمانية عشر كتاباً، تبدأ بخلق ادم عليه السلام، وتستمر أحداثها حتى عصر جستنيان، تتناول الكتب من الاول وحتى التاسع تاريخ العالم قبل ظهور المسيحية، وتشتمل على تفاصيل خلق أدم ونوح والطوفان، بالإضافة إلى تاريخ الفراعنة المصريين، والتاريخ الباكر لبلاد اليونان، وتاريخ بني إسرائيل بعد إبراهيم عليه السلام، وحرب طروادة، والأسر البابلي، وتاريخ الفرس والتاريخ الروماني، وتأسيس مدينة روما وتاريخ الاسكندر والممالك الهلنستية، وتاريخ الجمهورية الرومانية.

وفي النصف الأول من القرن السابع الميلادي ظهرت حولية تاريخية جديدة سميت بالحولية الفصحية او حولية عيد الفصح ، وهو العنوان الذي حملته إحدى الحوليات البيزنطية التي كتبت ربما عام ٦٣٠ م[٢] ، وسميت بهذا الاسم لأنها حددت موعد عيد الفصح في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية، واشتملت على التاريخ العالمي من أدم إلى عام ٦٢٨ م، وقام بتدوينها احد الكتاب المجهولين، وكان منهجه في كتابة حوليته انه سار على طريقة التاريخ بالفترات الضريبية أو الاولمبيات، وفي بعض الأحيان اتخذ حكم الاباطرة أو القناصلة منهجا له، كما سار في تاريخه على منهج الحوليات الذي يبدا بقصه خلق العالم ، او تاريخ ميلاد المسيح عليه السلام ، أو صعوده، وفي أحيان أخرى ارخ بالشهور اليونانية ، ومرة أخرى بالشهور المصرية، كما أرخ بالتاريخ الروماني ، أو بتأسيس مدينة روما.

وترجع أهمية الحولية الفصحية إلى ما ذكرته من معلومات مهمة عن الحياة الحضارية في الدولة البيزنطية.

عاصر يوحنا الفتح الإسلامي لمصر، وكان شاهد عيان عليه، وأول من أرخ له، فضلا عن اهتمامه بتفاصيل الكثير من الاحداث التي لم ترد عند غيره من المؤرخين، وترجع اهمية حوليته في ذكر أسماء الكثير من البلدان في العصر القبطي، والصراع بين فوقاس وهرقل على عرش بيزنطة ٦٠٩ – ٦١٠ م، ويبدو أن يوحنا تأثر بالتيارات الجارية في عصره من حيث تأثير الفكر المسيحي وتقاليد الكتابة التاريخية في كتابة حوليته؛ فالتاريخ لديه ملحمة سماوية من الرب بين الخير والشر يمتد من بداية الخليقة حتى قيام الساعة ، والتاريخ أيضاً هو الشكل المكتوب للصراع الكوني بين قوات الخير المتمثلة في جماعة المؤمنين ، وقوات الشر المتمثلة في الوثنين، ويرى يوحنا[٣] أن المسيحية ليست بداية التاريخ، بل هي إحدى فصوله التي تبدأ في العهد القديم بقصة الخلق[٤] .

---

[١] The name Malalas probably derived from the Aramaic word malolo for "rhetor"، "orator"; it is applied to him by John of Damascus. The alternative form Malelas is later، first appearing in Constantine VII. Thurn، Ioannis Malalae Chronographia ، p. 1.

[٢] منصور ، قطوف الفكر ، ص٢١.

[٣] زايد ، مصادر تاريخ ، : التاريخ البيزنطي ، ص ٨٥ .

[٤] النقبوسي ، تاريخ مصر ، ص ٢٩ .



مصادر تاريخ الكنيسة والأديرة :

أ- تاريخ الكنيسة:

شهدت الفترة الباكرة من تاريخ الدولة البيزنطية (٢٨٤ – ٥٢٧) اهتماماً كبيراً بتدوين التاريخ الكنسي الذي بدأ على يد يوسابيوس القيساوي (٢٦٠ – ٣٣٩ م) ، الذي ولد في مدينة قيسارية بفلسطين عام ٢٦٠ م ، واتخذ لقبه البامفيلي نسبة لصديقه بامفيلوس[١]، وترقى يوسابيوس في السلك الكهنوتي حتى أصبح أسقفاً لقيسارية فلسطين عام ٣١٥ م، ويعتبر يوسابيوس من أقدم المؤرخين الكنسيين في تاريخ المسيحية، بل واسقيهم على الاطلاق ، فكان مرجعا لمن جاء بعده من المؤرخين، يقوم عنه جيروم أنه كان مجتهداً في دراسة الكتب المقدسة "؛ فقام بتأليف العديد من الكتب الدينية والتاريخية ، منها " شروحات الأناجيل "، تاريخ الكنيسة "، حولية للتاريخ العالمي "، و"خلاصة لتلك الحولية "، والتناقضات بين الأناجيل "، ومقالة عن اشعياء "، وكتاب " اعتذار لاوريجن " ، وكتاب اخر عن " حياة بامفيلوس " ، وعددا من الاعمال القصيرة عن " الشهداء "، وتعليقات على ١٥٠ مزمور ، إلى جانب كتاب عن " حياة الإمبراطور قسطنطين "، و خطبة تابين " ، للإمبراطور نفسه ، بالإضافة إلى " قاموس طبوغرافي توراتي " لأهم المدن الموجودة في منطقة مصر وفلسطين وسورية[٢].

نشرت مؤلفات يوسابيوس في الكثير من المجموعات المصدرية واحتوت تلك المجموعة على:

الجزء الاول: حياة الامبراطور قسطنطين والذي احتوى على اربعة كتب، وخطبة تأبين للامبراطور قسطنطين[٣].

الجزء الثاني: احتوى على " التاريخ الكنسي "، الذي احتوى على عشرة كتب، بالإضافة إلى مقالة عن " شهداء فلسطين "

ظهر عدد من الكتابات الكنيسة المعاصرة له، وكان على رأسها التاريخ الكنسي لسقراط المدرسي (٣٨٠ – ٤٤٠ م)، الذي ولد في مدينة القسطنطينية عام ٣٨٠ م، ثم درس فقه اللغة اليونانية في العاصمة تحت إشراف هيلاديوس وامونيوس عالمي النحو المصريين بعد طردهما من الإسكندرية ومجيئهما إلى القسطنطينية عام ٣٩٠ م، درس بعد ذلك فن البلاغة على يد ترويلوس استاذ الفلسفة والبلاغة في القسطنطينية[٤].

كتب سقراط تاريخاً مكونا من سبعة كتب، يشمل الأحداث من عصر قسطنطين الأول عام ٣٠٥ حتى عام ٤٣٩ م ، وهو يعتبره تكملة للتاريخ الكنسي ليوسابيوس القيساري، من المؤكد ان سقراط قام بنشر كتابه قبل عام ٤٤٠ م ، حيث اعتمد عليه المؤرخ سوزومين الذي الف تاريخه قبل عام ٤٤٦ م ، ويمكن تقسيم تاريخ سقراط كالآتي : الكتاب الأول وشمل الاحداث خلال حكم قسطنطين الاول (٣٠٦ – ٣٣٧ م) والكتاب الثاني آرخ لفترة خلفاء قسطنطين حتى وفاة إبنه قسطنطيوس الثاني (٣٣٧-٣٦١م)، والكتاب الثالث آرخ لحكمي جوليان وجوفيان (٣٦١-٣٦٤م) واشتمل الكتاب الخامس على عصر الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (٣٧٨-٣٩٥م) أما الكتاب السادس فضم بين جنباته تاريخ اركاديوس (٣٩٥-٤٠٨م) والكتاب السابع أرخ لعصر ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٣٩م)[٥].

---

[١] يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ٤٣ ، وسيشار إليه، القيصري، تاريخ الكنيسة .

[٢] يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني. دار الشروق، ٢٠١٤.ص ٢٦، وسيشار إليه لاحقاً : زيدان، اللاهوت العربي .

[٣] زايد ، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ١٠٩ .

[٤] القيصري. تاريخ الكنيسة ، ص ٦٧

[٥] زايد ، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ١١٤ .



ب- وثائق البطاركة البيزنطيين:

بلغ تاريخ الإمبراطورية البيزنطية أكثر من ألف ومائة عام، تركت بطريركية القسطنطينية العديد من الوثائق المهمة، التي كان لها دور كبير في تدوين تاريخ الأسقفية وعلاقتها بالكراسي الأسقفية الأخرى في الشرق والغرب، كذلك علاقتها بالكنائس المحلية في الامبراطورية، وقد قام جرومل بجمع تلك الوثائق والاعمال الخاصة بالنظام الاسقفي في كنيسة القسطنطينية وقام بدراسة تحليلية في عدة أجزاء حتى عام ١٨٣٠ م، والتي منها:

الجزء الاول ويشمل وثائق الاسقفية خلال الفترة (٣١٨ – ٧١٥ م).

الجزء الثاني ويشمل وثائق الاسقفية خلال الفترة (٧١٥ – ١٠٤٣ م).

الجزء الثالث ويشمل وثائق الاسقفية خلال الفترة (١٠٤٣ – ١٢٠٦ م).

الجزء الرابع ويشمل وثائق الاسقفية خلال الفترة (١٢٠٧ – ١٣٣٤ م).

الكتابات اللاهوتية:

تعتبر الكتابات اللاهوتية من المصادر المهمة في دراسة التاريخ البيزنطي، وتأتي كتابات أباء الكنيسة الأوائل أمثال كلمنت واوريجن واجناتيوس وبوليكارب وبرنابا في المرتبة الأولى: فقد تولت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية مسؤولية الدفاع عن العقيدة المسيحية، خاصة بعد ظهور الجدل حول لاهوت المسيح وناسوته، وقد كان بانطاينوس أول استاذ لتلك المدرسة في شكلها الباكر[1]، والتي عرفت باسم " مدرسة المدافعين "

وفي القرن الرابع الميلادي يأتي اللاهوتي الكبير البطريرك السكندري اثناسيوس الذي لم يكن رجلاً لاهوتياً فحسب ، بل كان فيلسوفاً، ووصل إلى درجة القداسة في الكنيسة المصرية ، إذ تم انتخابه رئيساً لأساقفة الإسكندرية في يونيو ٣٢٨ م ، خلفا للإسكندر، وكان اثناسيوس قبل ذلك التاريخ قد عمل سكرتيرا للبطريرك اسكندر، ورافقه إلى مجمع نيقية عام ٣٢٥ م ، وكان صراعه مع الاريوسية هو السبب في خلعه من منصبه ونفيه خمس مرات (٣٣٥ ، ٣٣٩ ، ٣٥٦ ، ٣٦٢ ، ٣٦٥ م)، وتأليفه لأربعة كتب تنفيذا لآراء الاريوسيين ، كما قام بكتابة " حياة القديس انطونيوس " باعتباره مصدرا ثمينا عن بداية الرهبنة المصرية.

وفي منتصف القرن الرابع الميلادي ظهرت كتابات جريجوري النازيانزي ، الذي ارتقى إلى منزلة القديسين في الكنيسة البيزنطية ، ولد جريجوري عام ٣٢٩/٣٣٠ م في اريانزوس بالقرب من تازيانزوس، ومات في مسقط راسه عام ٣٩٠ ، يعتبر جريجوري واحداً من الآباء القبادوقيين، إذ كان صديقاً مقرباً من باسيل القيصري، واللذان رافقا بعضهما البعض في دراستهما في قيصرية ثم أثينا، ثم دخل جريجوري الدير بعد استكمال تعليمه؛ فتم ترسيمه قسا عام ٣٦٢ م، وفي عام ٣٧٩ م تم تعيينه أسقفاً في القسطنطينية (٣٨٠ -٣٨١ م)، فكان من أشرس المدافعين عن قرارات مجمع نيقية فاصطدم بيوتوميوس الاريوسي في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١ م ، وفي العام تنازل عن منصبه، وعاد إلى مسقط رأسه، ولكنه عين أسقفاً لنازيانزوس (٣٨٢-٣٨٤م) ، ثم قضى ما تبقى له من سنوات في الكتابة والتأمل[2].

---

[1] رأفت، عبد الحميد، الفكر المصري في العصر المسيحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ١٢٧، ١٣١،١٣٢ ، رأفت عبد الحميد وطارق منصور ، مصر في العصر البيزنطي ، ٢٨٤،٦٤١ ، دار مصر العربية للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠١ م ، ص ٥٤ ، ٥٨ ــ ٥٩، وسيشار إليه لاحقاً : رأفت، الفكر المصري .

[2] المرجع نفسه ، ص ١٢٩ .



وثائق الأديرة:

تعتبر المصادر الديرانية أو التي كتبت عن تاريخ الرهبنة والاديرة خلال العصر البيزنطي من أهم المصادر التي يمكن للباحث ان يستقي منها الكثير من المعلومات سواء معلومات عن الرهبان أو عن النظام الرهباني، أو عن المجتمع المحيط بالأديرة، ولما كانت مصر مهد الرهبنة، ومركزاً لانتشارها في العالم المسيحي، فان الكتابات الرهبانية قد ظهرت في بدايتها في الأراضي المصرية، ثم انتقلت الرهبنة بدورها الى فلسطين وسورية خلال القرن الرابع الميلادي على يد الراهب الغزاوي هيلاريون[1].

ألف باسيل القيصري كتابه " الزاهد " والذي قسمه إلى ثلاث أطروحات عن الحياة الرهبانية، أولها مقدمة عن حياة الزاهدين الذين وصفوا بانهم جيش المسيح الذي يحارب بهم الظالمين مضطهدي المسيحية والمسيحيين، وثانيها حديث عن الزاهد وتنازله عن متاع الدنيا والبحث عن الكمال الروحي من خلال الانقطاع في الأديرة بعيداً عن دنيا الناس، أما الجزء الثالث والأخير فهو حديث عن انضباط الزاهد والواجبات التي يجب على الراهب الألتزام بها ، كما يشمل هذا القسم الأعمال اليدوية التي يقوم بها الراهب داخل الدير لتوفير مأكله ومشربه

وشهد القرن الخامس الميلادي ثورة في الكتابة عن الحياة الرهبانية التي اتخذت طريقها الجماعي المتمثل في النظام الديري الذي وصفه القديس باخوميس المصري؛ فنقل هؤلاء تلك النظم إلى آسيا الصغرى، ويعد بالاديوس أسقف هلينوبوليس (في بيثينيا باسيا الصغرى) المولود في غلاطية عام ٣٦٤ م، اشهر من قام بذلك الدور[2] ، اذ سلك حياة الزهد والرهبنة عندما بلغ من العمر عشرين عاماً، فتوجه إلى جبل الزيتون بفلسطين ليعيش هناك مترهبا ثلاث سنوات (٣٨٤-٣٨٧ م)، وفي عام ٣٨٧ م زار مدينة الإسكندرية للمرة الأولى، ثم زار الرهبان في وادي النطرون، وربما مكث بينهم حتى عام ٣٩٥ م، توجه بعدها نحو الجنوب، ومكث في مدينة انطينوى لمدة اربع سنوات ، بعدها عاد إلى الإسكندرية على أثر الأمراض التي هاجمته، ثم توجه إلى بيت لحم ثم إلى القدس، وعاد إلى مسقط رأسه في بيثينيا عام ٣٩٩ م.

الكتابات الأدبية وملامح الحياة الثقافية:

تعتبر بعض الكتابات الأدبية من المصادر المهمة التي يعتمد عليها المؤرخ في الحصول على بعض المعلومات، وهي سجل مهم لبعض الأحداث التاريخية، والاجتماعية، والدينية إلى جانب أنها تشكل جانبا مهما للغاية عن الفكر السائد آنذاك داخل المجتمع، وقد تنوعت الكتابات الادبية البيزنطية ما بين شعر وقصص وأدب ديني ورسائل شخصية.

الشعر:

كان الشعر من أهم الانماط الادبية في تاريخ الدولة البيزنطية، وعلى الرغم من قلة انتاجه، الا انه كان مهما للغاية لمعرفة ما يدور داخل المجتمع البيزنطي، وكان من أقدم الاشعار البيزنطية ما كتبه تيموثي الغزاوي، عن الحيوانات[3].

[1] المرجع نفسه ، ص ١٤٠ .

[2] عبد الحميد ، الفكر المصري في العصر المسيحي ، ص ٢٦٥،٢٦٤ ، رأفت ، مصر في العصر البيزنطي ، ص ١٩١ ، رأفت، عبد الحميد ، " الرهبانية المصرية والسلطة البيزنطية " ، ندوة الدور الوطني للكنيسة المصرية عبر العصور ، اعداد وتقديم ، عبد العظيم رمضان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م ، ص ٧١ ، وسيشار إليه لاحقاً : رأفت الرهبانية المصرية.

[3] باقر ، أشعار الرومان و البيزنطينيين، ص ٥٤



كان جريجوري النازيانزي من أوائل الشعراء في العصر البيزنطي، حيث قام بكتابة عدد من القصائد الشعرية كان اهمها تلك التي كتبها " عن سيرته الذاتية وحياته " ، والتي يبدأها بقوله " أن الغرض من هذا العمل أن يتم الكشف عن سوء حظي ، أو كما تحب أن تقول نجاحاتي "[١]، ويستعرض جريجوري تاريخ وسيرة عائلته؛ فأبوه كان من الناس الميسورة، أمن بالمسيحية، بالإضافة إلى أمه التي كانت من عائلة مسيحية هي الاخرى، ثم ينتقل بالحديث إلى رحلته العلمية إلى أثينا، ثم عودته إلى مسقط رأسه في آسيا الصغرى، ودخوله الدير بعد استكمال تعليمه، ثم ترسيمه قسا عام ٣٦٢ م ، وتعيينه اسقفا في القسطنطينية[٢] .

وفي الربع الأخير من القرن الرابع الميلادي ظهر الشاعر المصري كلاوديوس كلاوديانوس هو من أوائل الشعراء البيزنطيين، ولد في الاسكندرية عام ٣٧٠ م، ومات عام ٤٠٤ م، ألف العديد من القصائد الشعرية، خاصة شعر المدح التقليدي، وبعض الحكم والأمثال، وقد سافر إلى إيطاليا عام ٣٩٥ م، حيث كتب مدحاً باللغة اللاتينية وجهه الى القنصل بروبوس واوليبريوس، مفتتحا القصيدة بقوله: أيهما سوف أتحدث عنه أولاً؟ من لم يسمع عن أعمال بروبوس ذي النسب العريق، من لا يعرف المدح اللانهائي لاوليبريوس؟ [٣].

كما كتب كلاوديانوس قصيدة في مدينة ميلان الايطالية عام ٣٩٦ م، بمناسبة القنصلية الثالثة للامبراطور هونوريوس، والتي اختتمها بقوله[٤] " سيعطي لك البحر الاحمر الصدفات الثمينة، والهند عاجها، وبنجايا عطورها، والصين حريرها "[٥].

ويأتي الشاعر المصري الأصل نونوس الاخميمي في النصف الأول من القرن الخامس الميلادي ليكون من اشهر الشعراء في العصر الروماني المتأخر، ولا يعرف عن نونوس الكثير سوى عمله الشعري المعروف بديونيسياكا وهو عبارة عن ٤٨ فصل شعري ذات التفعيلات السداسية التي تحكي مآثر ديونيسوس في بلاد الهند ، ويركز بشكل اساسي على تأسيس[٦] بيزاس لمدينة بيزنطة، ويتحدث عن الأسطورة المتعلقة بإنشاء كلية القانون في بيروت، كما يظهر وبجلاء اعتقاده في الدور الحضاري لمدينة روما، فضلاً عن ذكره لعدد من الموضوعات، مثل التنجيم والنبوءات[٧].

ظهر الشاعر ورجل الدين سليل النبلاء بولس الخادم في بلاط الإمبراطور جستنيان خلال القرن السادس الميلادي، الذي كتب قصيدة في مطلع شهر يناير عام ٥٦٣ م، واصفا كنيسة الحكمة المقدسة في شعر سداسي التفعيلة بمناسبة اعادة بنائها مرة اخرى بعد زلزال عام ٥٥٨ م، حيث اعتمد بشكل كبير على بعض الاقتباسات من الكتاب المقدس ، وربط بين إعادة بناء جستنيان للكنيسة وبين بناء المعبد اليهودي على يد نبي الله سليمان عليه السلام، كما وصف المواد المستخدمة في البناء، ونظام الإضاءة الذي ابتكره المهندس ايزيدور الصغير عند إعادة بناء قبة الكنيسة[٨]

---

[١] Aziz، Ramdan ، Op. Cit ، p ، 43.

[٢] زايد ، مصادر تاريخ ، ص ١٥١ .

[٣] Aziz، Ramdan Op. Cit ، p ، 43.

[٤] زايد ، مصادر تاريخ ، ص ١٥٢. .

[٥] هالدون، بيزنطة في حرب، ص ٥٢، ٦١.

[٦] زايد، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ١٥٣ .

[٧] باقر، أشعار الرومان ، ص ٣٧.

[٨] زايد، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ١٥٤ .



الروايات والمراثي والحوارات:

مثلت القصة نوعاً مهماً من الأدب البيزنطي، كما كانت الخطبة نوعاً من الأدب يمتاز بلونه البلاغي لجذب القارئ والمستمع، وكان عالم القرن الحادي عشر الميلادي عالماً استثنائياً في الإنتاج الأدبي خاصة على يد ميخائيل بسللوس أشهر الأدباء والفلاسفة والمؤرخين في التاريخ البيزنطي على الاطلاق؛ فإلى جانب كتاباته التاريخية سالفة الذكر، كتب بسللوس خطبة رثاء وثناء لامه ثيودونا " هبه الله ، والتي يعتبرها الباحثون في المجال البيزنطي من أهم وأشهر أربع خطب في التاريخ البيزنطي.

يستعرض بسللوس مقتطفات من حياته وتعليمه في البلاط البيزنطي، ودخوله الدير عام ١٠٥٤م، ولكنه دائما ما يؤكد على ولائه للتعليم والحياة المدنية العلمانية ، والخطبة اداة بسللوس للتأكيد والاعتراف بولائه لأمه، ويرجع أهمية خطابه ليس بكونه قطعة ادبية منمقة بأسلوب بلاغي رائع ، بل لأنه يزودنا ببعض الملامح عن الحياة العائلية البيزنطية ، ويعطينا صورة واضحة للأم البيزنطية الذكية والطموحة من داخل الطبقة الارستقراطية التي لم يسمح لها بالذهاب إلى المدرسة ، ولكنها علمت نفسها بنفسها ، خاصة بعد موت ابنتها الكبرى ، وكانت أم بسللوس هي ما جعلت ابنها يؤمن بمبدأ المساواة بين الرجل والمرأة في التعليم والثقافة.

الأدب الديني:

تعددت الأشكال الأدبية الدينية ما بين سير القديسين والقديسات ، وأدب الرؤى الاخروية ، أو ما يعرف بالنبوءات، وقد اشتق مصطلح هاجيوجرافي من الكلمة اليونانية بمعنى " مقدس " أو " قديس "، وبذلك يعني مصطلح هاجيوجرافي ذلك العدد الكبير من السير الذاتية للذين اعتبرتهم الكنيسة البيزنطية من الشهداء المسيحيين والقديسين والقديسات ، والتي تشتمل على وصف حياتهم وأقوالهم وأفعالهم واحتوت سير القديسين على تفاصيل مهمة حول الحياة الاجتماعية، خاصة في المناطق الريفية البعيدة عن العاصمة الإمبراطورية، حيث أن العاصمة عادة ما تحظى بنصيب الأسد في المصادر التاريخية، في حين أن المصادر الهاجيوجرافية تعتمد بشكل رئيسي على الأحداث الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية مع بعض التفصيلات عن الحياة السياسية.

وتعرض بعض السير تفاصيل دقيقة عن الحياة الاجتماعية في الدول البيزنطية ، مثل وجود العبيد في القصور الإمبراطورية ومنازل النبلاء، ومصادر الحصول على هؤلاء العبيد، وكيفية استعباد القبائل السلافية على الحدود البيزنطية ، كما تذكر السير فئات أخرى مثل فئة الخصيان، خاصة من الأسرى العرب، كذلك فئة المتسولين ، ويمكن أن تمدنا السير بمعلومات وفيرة وقيمة عن السجون التي كان المسلمون يودعون بها في العاصمة البيزنطية، كما كشفت السير عن معلومات جيدة عن راي الدين المسيحي في الزواج والطلاق، فضلاً عن معلومات قيمة عن الزواج المبكر للإناث، وما ترتب عليه من مشكلات، ومراسيم الأباطرة البيزنطيين أمثال ثيوفيل بخصوص زواج النساء الأرامل من الأجانب، كما تطرقت السير لاحتفالات الزواج، العقم، والتبني، وتربية الأطفال، ورسمت صورة حية عن الحياة المنزلية من خلال وصف مصابيح الإنارة وأنواعها، والأغطية التي تقي السكان من برد الشتاء، وملابسهم وطعامهم وشرابهم، وصهاريج المياه، والحمامات العامة، وذهاب النساء إلى تلك الحمامات، كما وصفت السير مشاهد سباق العربات، ورصدت بعض الأمراض الاجتماعية التي انتشرت في المجتمع البيزنطي مثل: البغاء والتسول والسرقة ، بالإضافة إلى أنها أشارت إلى بعض الكوارث التي تعرض لها المجتمع البيزنطي، ودور المؤسسات الخيرية في اعانة الفقراء على مواجهة تلك الكوارث.

وكان لسير القديسين والقديسات فائدة كبيرة من خلال تضمنها معلومات دقيقة عن الحياة الاقتصادية في الريف البيزنطي ، فتناولت بالذكر زراعة الغلال، واستخدام الفلاح للأسمدة في تسميد أرضه، وأنواع الماشية التي رباها ، فضلاً عن معلومات خاصة بأماكن الرعي والرعاة، واستخدام الرعاة لكلاب الحراسة لمنع هجوم[1] الحيوانات الضارية على قطعانهم، أما في المجال الحرفي والصناعي فقد اشارت الى النساء اللائي عملن في حرفة الغزل ، كما أشارت إلى حرفة البناء ، والأدوات والمواد المستخدمة فيها، أما في المجال التجاري فتعرضت لقضية منع الرهبان من التجارة والسفر، كما تعرضت لوصف الاسواق والسلع التي كانت تباع فيها، واستخدام النقد في البيع والشراء، أما في مجال الصيد فوصفته بنوعية البري والبحري ، وأوقاته، واستخدام الصيادين لأدوات الصيد مثل السنارة والشباك[2] ، وأخيراً تعرضت لقيام جباة الضرائب باعتقال الفلاحين الذين لم يؤدوا الضرائب المقررة عليهم وأمدتنا السير بمعلومات عن نظام التعليم في الأراضي البيزنطية، فأشارت إلى عدم وجود مدارس في الأقاليم البيزنطية، وجهل الكثير من العامة في الريف.

الرسائل الشخصية:

تمثل الرسائل الشخصية مادة مهمة وغزيرة بالمعلومات التاريخية والدينية خلال العصر البيزنطي، وكانت أولى الخطابات الشخصية تلك التي ارسلها البطريرك اثناسيوس الأول[3] وبلغ عددها تسعة عشر خطابا الى الكنائس والاصدقاء من رجال الدين والرهبان، أو حتى إلى الأباطرة أمثال الإمبراطور جوفيان ، ومن تلك الخطابات ما أرسله اثناسيوس إلى كنائس الإسكندرية ومريوط بخصوص مجمع سارديكا عام ٣٤٣ – ٣٤٤ م ، وخطابيه الى الراهب ارسيمسيوس بمناسبة تعيينه مقدما لدير طابنا في صعيد مصر خلفا لبترونيوس عام ٣٤٧ م ، وخطابه الى امون الراهب في وادي النطرون عام ٣٥٤ م ، والى الرهبان بصفة عامة ليعضد ويشد من ازرهم ، ويحاول اثناسيوس شرح العقيدة المسيحية الصحيحة للامبراطور جوفيان ردا على الخطابالذي ارسله الامبراطور نفسه الى اثناسيوس للسماح له بالعودة الى مصر بعد نفيه من قبل جوليان.

ظهرت خلال القرن الرابع خطابات باسيل القيصري، والتي بلغ عددها ٣٦٦ خطاباً، والتي يمكن تقسيمها الى ثلاث فترات زمنية : الخطابات (١-٤٦) تشتمل على ما كتبه باسيل قبل تقلده منصب أسقفية قيصرية قبادوقية، والخطابات (٤٧ – ٢٩١) عبارة عن رسائل أسقفية، والخطابات (٢٩٢ – ٣٦٦) وهي غير محددة بوقت وزمن معين، كما يمكن تقسيمها حسب نوعية الخطابات ، فهناك خطابات تاريخية، وثانية مذهبية لاهوتية يدافع فيها عن علم اللاهوت النيقي، وثالثة خاصة بالرهبنة والزهد، ونمو نظام الأديرة في آسيا الصغرى، وخطابات رابعة تأديبية خاصة بامفيلوخيوس، والتي يستعرض فيها باسيل مراحل تطور القانون الاكليروسي، وخطابات خامسة عن الرثاء والتعزية، وأخرى للمدح والثناء على أحد رجال الدين أو الرهبان لتبيان سيرته وإيمانه، كنوع من التربية المسيحية القويمة للقراء[4].

---

[1] زايد ، مصادرالتاريخ البيزنطي ، ص ١٦٧ .

[2] الباشا، عبد الرحمن رأفت ، الصيد عند العرب ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، دار النفائس ، بيروت ،لبنان ،١٩٨٣ ، ص ٣٩، وسيشار إليه لاحقاً : الباشا، الصيد عند العرب .

[3] لبابا أثناسيوس الأول الإسكندري ، أثناسيوس المعترف ،أثناسيوس الرسولي ، ولد في ٢٩٣، توفي في ٢ مايو ٣٧٣، كان بطريرك الإسكندرية في القرن الرابع. تم الاعتراف به كقديس من الكنيسة الكاثوليكية مؤخرا بعد الكنائس الأرثوذكسية الشرقية وخاصة الكنيسة القبطية الأرثوذكسية، كما يعتبر عالم عظيم من قبل البروتستانت. أعلنته الكنيسة الكاثوليكية في روما أحد علماء الكنيسة الـ ٣٣، ويعتبر أحد الآباء الأربعة الأعظم لدى الكنائس الشرقية ،هو أب الكنيسة القبطية الأرثوذكسية ومعلمها الإيماني الأول. قاموس آباء الكنيسة و قديسيها اثناسيوس الرسولي البابا العشرون ، نسخة محفوظة ٠٧ مارس ٢٠١٦ على موقع واي باك مشين.

[4] زايد، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ١٧٥ .



دأب العرب على أن يطلقوا على الآخر صفة المشرك أو العلج، أو صفة الحربي نسبة إلى دار الحرب؛ فأنهم استعملوا تسمية الروم للتعبير عن البيزنطيين، ووردت هذه التسمية في شعر ما قبل الإسلام، هذه التسمية في بداية الاسلام تبدو عادية، فإنها أخذت شكلاً ايديولوجياً منذ منتصف القرن الثامن الميلادي؛ إذ برز الغرب المسيحي في ظل الدولة الكارولنجية قوة سياسية وعسكرية تسعى لتجديد البيزنطيين من هذا اللقب ونعتهم بالإغريق، ولا يحق لهم استعمال هذه التسمية؛ لأنها تعود وجوباً إلى من يتحكم في مدينة روما[١].

كما اهتم العرب من خلال الكتابة، بجوانب أخرى من الحياة البيزنطية؛ فذكروا المؤسسات البيزنطية من دون تحريف كبير لها، ومع دقة وضبط في بعض الاحيان اخلت به بعض الكتابات البيزنطية [٢].

إذا تصفحنا تاريخ الإمبراطورية البيزنطية؛ فسنجد أن هذه التسميات يونانية، مثل عبارة باسيلي التي هي في الواقع عبارة بازيلوس، وأن عبارة لغثيط هي العبارة اليونانية نفسها، وكلتا الوظائف السامية في الإمبراطورية والمتصلة مباشرة بالعالم الإسلامي [٣] .

اعتنى العرب إلى جانب المؤسسات السياسية بالمؤسسة العسكرية؛ لأسباب لا تخفى في عصر متميز بالصراع وتتالي الحروب، وتعتبر المعرفة العسكرية عنصراً من العناصر الضامنة الانتصار، أو المساعدة على ضمانه، لذلك نجد وصفا دقيقا للجند البيزنطي وتنظيمه وتوزعه في فضاء الإمبراطورية، ومن ذلك الرتب العسكرية باللغة اليونانية بصورة متسلسلة كلما كان هناك مجال للحديث عن ذلك، وفي بعض الأحيان ورد ذكر موظفين في الجند البيزنطي، كان بمناسبة الحروب أم عند إطلاق سراح الأسرى.

ويمكن الرتب العسكرية، رتبة الدمستق، أي صاحب المسالح على حد تعبير قدامة بن جعفر، وان خلطت النصوص العربية في بعض الأحيان بين الدمستق والإمبراطور في الفترة المتأخرة من العصر الوسيط، اي بعد منتصف القرن الثاني عشر، ويرجع ذلك الى استحداث وظيفة جديدة في الدولة البيزنطية هي وظيفة دمستق الشرق والغرب، كقيادة عامة للجيش

كان الاهتمام بالجوانب العسكرية وتراكم المعرفة التقنية في هذا المجال بالنسبة إلى العرب راجعاً إلى العداء بين الدولتين، وناتجاً من تواصل الاحتكاك الحربي بين الطرفين ومن تعدد الأسرى البيزنطيين الذين مثلوا مصدراً مهما من مصادر الأخبار، ونظراً إلى ما كان الجيش البيزنطي يمثله من رمزية عسكرية وسياسية استوجبت الاهتمام المتواصل ، فان النصوص العربية احتفظت بجملة من اسماء الاعلام ، هذه الاسماء التي ذكرها العرب هي أسماء للنخبة البيزنطية، من أباطرة وقواد وسفراء ، مع تركيز على سكان المناطق المقابلة للثغور الإسلامية، ويرد في بعض الأحيان ذكر الذين انتقلوا بصورة نهائية إلى العالم الإسلامي واندمجوا في صلب المجتمع الإسلامي، من نساء ورجال عربت أسماؤهم في كثير من الأحيان، ويمكن أن نورد بعض الأسماء ، مثل : جرجير، وجرجي والياتسو بلانتس وبرداس سقلاروس، بوتزاس والملاين ومنسترياتس ، وهي أسماء موظفين سامين في البلاط البيزنطي[٤] .

---

[١] أبو دية، سعد، معان، دراسة في الموقع، استعراض تاريخ المدينة السياسي وأثر الموقع فيه منذ عهود معين وسبأ وحتى اليوم، ط١، د.ن، ١٩٨٤م، ص٢٩ ، وسيشار إليه لاحقاً : ابو دية ، معان . المنصوري، محمد، صورة البيزنطيين في الحضارة العربية ، مجلة أسطور، ع٦ ، المركز العربي للدراسات، ص ٧٤٣ ، وسيشار إليه لاحقاً : المنصوري،صورة البيزنطيين .

[٢] المنصوري، صورة البيزنطيين، ص ٧٤٤ .

[٣] المرجع نفسه ، ص ٧٤٥ .

[٤] Simeonova، Op. Cit. ، p 76 ، 78 .



إحياء الفلسفة اليونانية القديمة تم في بيزنطة بعد انفجار الصراع الديني البيزنطي – البيزنطي، بين محبي الصور ومحطميها فيما بين عامي ٧٢٥ و٨٤٣، فاستعمل المعارضون لعبادة الصور المنطق والعقل لإقناع خصومهم، وما سمح للعرب بهضم هذا التراث واستعماله لمقارعة الروم بحجة المنطق[1] .

مصطلحات تتعلق بجوانب دينية وسياسية واقتصادية:

المصطلحات الدينية: مثل (الدبتخة / السنهودس[2] / الجائليق).[3]

المصطلحات المالية: مثل (القيراط / المد / البقط)

أما فيما يتعلق بالنقود، فقد استعمل العرب العملة البيزنطية، شكلاً وتسمية منذ ما قبل الإسلام، ولعل أكثر المصطلحات المالية استعمالا هو الدينار، وهو لا يزال إلى يوم الناس هذا، واستعمل للدلالة على معان مختلفة، كالقيمة الرفيعة، والجمال واللون الأصفر؛ لأن الدينار البيزنطي هو وحدة نقدية ذهبية منقوشة، وجمعت هذه المعاني في بيت من شعر العرب قاله النابغة الذبياني واصفاً رفقة له قتلوا في إحدى المعارك:

كهول وفتيان كأن وجوههم دنانير .... مما شيخ في أرض قيصر

المصادر القانونية:

تمثل المصادر القانونية أهمية كبرى لكتابة التاريخ البيزنطي بصفة عامة، والتاريخ البيزنطي بصفة خاصة، فمن خلالها يمكن الاطلاع على التطور التاريخي لبعض القوانين المنظمة لأنشطة الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية، كذلك العقوبات التي فرضت على الخارجين على القانون.

القوانين المدنية :

قوانين ثيودوسيوس الثاني: هو كتاب قانوني صدر عام ٤٣٩ م باللغة اللاتينية، ونسب إلى الإمبراطورتين ثيودوسيوس الثاني (٤٠٨-٤٥٠م) امبراطور الشرق البيزنطي والامبراطور فالينتنيان الثاني امبراطور الغرب اللاتيني.

قوانين جستنيان: كانت سياسة جستنيان الحربية من أهم الأسباب التي دعته إلى إصدار مجموعة من القوانين المتنوعة، وذلك محاولة منه توفير القدر الكافي من التمويل اللازم لحروبه الخارجية.

قوانين الأسرة الايسورية: كانت الأسرة الايسورية خاصة عهد الامبراطورين ليو الثالث وابنه قسطنطين الخامس من أهم الفترات التاريخية التي تم الاهتمام فيها بتدوين وتنقيح القوانين الرومانية.

قوانين الأسرة المقدونية: شهد عصر الأسرة المقدونية ثورة كبيرة في التشريع الروماني، خاصة على أيدي الإمبراطور باسيل الأول وابنه ليو السادس الملقب بالحكيم، وكانت أبرز اهتماماته التشريعية مجموعة البازيليكا، والتي تعني القوانين الامبراطورية[4] .

---

[1] المنصوري، صورة البيزنطيين في الحضارة العربية، ص ٧٤٩ .

[2] الاجتماع بمدينة نيقية من بلاد الروم فيه ألفان وثمانية وأربعون أسقفاً فاختار منهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً متّفقين غير مختلفين، ابن الاثير، الكامل في التاريخ ، م١ ، ص١٢١

[3] المنصوري، صورة البيزنطيين في الحضارة العربية، ص ٧٥٠ .

[4] المرجع نفسه ، ص ١٩٢ .



قوانين الملكية الزراعية:

شكلت الطبقة الارستقراطية قمة الهرم الاجتماعي في الإمبراطورية البيزنطية، إذ حازت المال والجاه والسلطان، وتمكن أفرادها من تكوين ثروات ضخمة والعيش في رغد ويسر، وكانت تلك الطبقة قد تكونت إما بالمولد أو بالانخراط في الجيش البيزنطي، وضمت الارستقراطية العسكرية العائلات من كبار ملاك الأراضي الزراعية، والتي قادت الجيوش في الولايات الإمبراطورية، وقد امتلك هؤلاء مساحات كبيرة من الأراضي الخصبة والمراعي الواسعة والكثير من العبيد الذين قاموا بشرائهم لزراعة أراضيهم ورعي ماشيتهم، وكان الكثير من كبار الملاك يحتلون الوظائف العليا في العاصمة، ولذلك قاموا في كثير من الأحيان بتأجير أراضيهم لصغار المزارعين من الفلاحين الفقراء، وفي المقابل عادت عليهم الوظائف بالكثير من الرواتب والهبات، مما أدى إلى تكدس ثرواتهم ، فأنشأت طبقة جديدة من الارستقراطيين الذين وجدوا لهم منفذاً حقيقياً في الاستثمار الزراعي[١].

الكتابات السياسية والإدارية والعسكرية:

الكتابات السياسية والإدارية:

تمثل الكتابات السياسية أهمية كبيرة لكتابة التاريخ البيزنطي بصفة خاصة، فمن خلالها يمكن الاطلاع على التطور التاريخي والاداري للوظائف البيزنطية، سواء المدنية منها أو العسكرية، أو حتى الدينية، كما يمكننا الاطلاع على مراسم البلاط البيزنطي، والدبلوماسية البيزنطية خلال العصر الوسيط[٢].

يعتبر سجل التكريمات من أولى الكتابات السياسية والإدارية في الدولة البيزنطية، فقد تم كتابته بعد عام ٤٠٨ م، حيث كان ثيودوسيوس الثاني بحكم الجانب الشرقي البيزنطي، بينما كان هونوريوس بحكم الجانب الغربي الروماني، وهي عبارة عن قائمة رسمية لكل الوظائف المدنية والعسكرية لكل الولايات والمسؤولين في عصرها المتأخر، وكان الغرض من تلك القائمة ترتيب الألقاب الفخرية التي كانت موجودة آنذاك، كما أنها ذكرت بعض المناصب الوظيفية على أنها مناصب جديدة، لكنها كانت قديمة مثل وظيفة كاتب العدل[٣].

تم تقسيم سجل التكريمات إلى عدة أقسام كان اهمها: سجل التكريمات في الجانب الشرقي، ومثيله في الجانب الغربي، وقسم ثالث عن القسطنطينية، وقسم رابع عن الولايات الامبراطورية.

الكتابات العسكرية:

شهد تاريخ الإمبراطورية البيزنطية الكثير من الحروب التي لا حصر لها على كافة الجبهات، وتوالت عليها الكثير من الأمم والقبائل المجاورة التي استمرت لما يقرب من أحد عشر قرنا من الزمان، بداية بالفرس والآفار والجرمان، ونهاية بالبنادقة والعثمانيين، وتعتبر الأطروحة العسكرية مجهولة المؤلف التي يرجع تاريخ كتابتها الى القرن الرابع الميلادي من أولى الكتابات العسكرية في ذلك الشأن، وهي أطروحة في علوم وفنون حرب المناوشات، والاستراتيجيات والتكتيكات العسكرية، ومن سياق الأطروحة، فان كاتبها لديه دراية كافية بالحروب، وقد يكون أحد القادة العسكريين[٤] الذين شاركوا الاحتكاكات العسكرية البيزنطية مع أعدائها

---

[١] زايد ، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ١٩٦ .
[٢] عازر، المسكوكات المحلية لمدن شرقي نهر الأردن، ص ٥٦، ٦١ .
[٣] النعيمات ، سلامة ، "تجارة اللبان والبخور عبر موانئ شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام"، المنارة، المجلد ٥،العدد ١، ٢٠٠٠م، ص٣٠٦، وسيشار إليه لاحقاً : النعيمات، تجارة اللبان .
[٤] زايد ، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ٢٢٠ .



وتنقسم الأطروحة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول مقدمة تحتوي على تعريف لأصول الحكم وأقسامه، وأسباب وجود الطبقات المختلفة داخل الدولة، ثم ينتقل الى الموظفين، بعدها يعرف الاستراتيجية.

القسم الثاني يتحدث عن استراتيجية الدفاع، والمؤهلات المطلوبة في الحراس الموكلين بالدفاع عن الحدود، والوسائل الدفاعية مثل نظام الإنذار المبكر بواسطة إشعال النيران، وإدارة تلك المنظومة، ثم يتناول التحصينات وبناء المدن الحدودية.

القسم الثالث يتحدث عن استراتيجية الهجوم، وتشمل التكتيكات التي تتكون من أربعة أشياء: تنظيم الجنود، وتوزيع الاسلحة عليهم، وتحرك الجيش، وإدارة المعركة، بعدها تنتقل الأطروحة إلى تعريف الكتيبة وأقسامها.

القسم الرابع ويشتمل على كيفية حماية القوات ما بعد المعركة، وتجنبها التعرض للأسر، والمعارك الليلية، والكمائن، والهاربون، والجواسيس والمبعوثون، والرماية، والتدريب على قذف النار بشكل دقيق وسريع.

الكتابات العلمية:

أ- الهندسة والعمارة:

كان المعماريون في العصر البيزنطي عادة من أشهر رجال الدولة، ويتمتعون بالمكانة الاجتماعية والتعليمية، وكان لديهم معرفة بعلوم الرياضيات والهندسة والفلك والفيزياء، وعرف المعماري حتى القرن السادس باسم " السيد المشيد " بعدها عرف باسم " الباني أو المشيد " أو " مقدم السادة "، وكان امونيوس السكندري من أوائل علماء الهندسة في العصر البيزنطي الباكر، ولد في الإسكندرية في أواخر القرن الخامس الميلادي ، وتوفي عام ٥١٧ م ، تعلم الفلسفة في أثينا، وعلى الرغم من عمله أستاذاً للفلسفة ، إلا أنه كان لديه دراية وباعا كبيرا في علم الهندسة .وكان المعماري والمهندس انثيميوس الترالي من أشهر المعماريين في العصر البيزنطي ، اذ ارتبط أسمه بإعادة تشييده لكنيسة الحكمة المقدسة بالقسطنطينية في ديسمبر عام ٥٣٧ م، بعد احتراقها جراء ثورة النصر عام ٥٣٢ م، وقد ولد انثيميوس في تراليس بمنطقة ليديا باسيا الصغرى ، وتوفي بالقسطنطينية قبل عام ٥٥٨ م.

الهندسة والفلك:

الصنائع البيزنطية ظلت الإمبراطورية البيزنطية خلال القرون الوسطى بأسرها تنشئ كنائس وقصوراً وتزينها فكان المتفننون بالصناعات كثيراً عددهم ولاسيما في بلاط بيزنطة وفي الأديار بين الكهنة والقسيسين.

وأعظم الصناعات البيزنطية الهندسة وأهم مصانعها كنيسة آيا صوفيا في القسطنطينية أنشئت على عهد يوستينيانوس وحافظ عليها العثمانيون فحولوها جامعا وتتألف الكنيسة البيزنطية من قبة كبيرة وسطى فيها قباب صغرى يدخل منها النور ويحيط بالقبة الكبرى عدة قباب أو نصف أقباب صغيرة وجميع هذه القباب مذهبة من الخارج تتألق أنوارها إلى بعيد وفي الداخل ترى السواري من الرخام الثمين كاليصب والسماقي وكلها ذات خطوط حمر وخضر وأرضها مبلطة بالفسيفساء المتألقة والحوائط مزدانة بصور مرصعة من ذهب، يريدون من هذا التفنن إظهار الغنى. وغدت هذه الكنائس ذات القباب المستديرة والمذهبة أنموذجا للمهندسين منذ القرن السادس إلى القرن الحادي عشر لا في الإمبراطورية البيزنطية، بل عند جميع البرابرة المسيحيين في الشرق. وبقيت هذه البيع في الشرق مثال الهندسة النصرانية وجماع الكنائس الروسية كنائس بيزنطة.



وما النقش والتصوير على ما كان قديما في مصر وآشور سوى صناعات ثانوية من شأنها تزيين أعمال الهندسة وتمثل صور الجدران صفوفا طويلة من القديسين أو احتفالات كهنوتية والأشخاص منفصلة عن التهذيب فيها جفاء وهي على نسق واحد وعيونها واسعة الأحداق وأجسامها مقرنة لا معنى لها ولا حياة فيها وكذلك تماثيل القديسين ينتقد عليها ما ينتقد على صور الأشخاص وقد انقطع أرباب الصنائع عن صنع النقوش والتصوير والطبيعة واكتفوا بنقل نموذجات مقررة مبتعدين عن الحقيقة كلما أكثر النقل والاحتذاء. حفظت في المملكة البيزنطية أيضاً جميع أعمال الزينة كالنقش على الخشب أو العاج وصناعة الحلي والزمرد وتذهيب المخطوطات. ودام أرباب الصناعة من البيزنطيين مدة خمسة قرون من القرن السادس إلى القرن الحادي عشر مستأثرين بصنع ما يحتاجه الملوك[١].

كان الأسقف والطبيب والمعلم جريجوري خيونياديس من أشهر الفلكيين في التاريخ البيزنطي، ولد في القسطنطينية (١٢٤٠ – ١٢٥٠ م) ، وانتقل إلى طرابيزون، وفي عام ١٢٩٠م سافر إلى بلاط ايلخانات المغول في تبريز ببلاد فارس ، وهناكك بدا في دراسة علم الفلك على يد شمس البخاري، ولم يعد خيونياديس الى طرابيزون الا عام ١٣٠١ م ، ولكنه عاد مرة أخرى إلى تبريز ليتم تعيينه خيونياديس إلى طرابيزون إلا عام ١٣٠١ م، ولكنه عاد مرة أخرى إلى تبريز ليتم تعيينه اسقفا للمدينة عام ١٣٠٥ م، وظل هناك خمس سنوات، حيث عاد إلى طرابيزون مرة أخرى؛ فدخل الدير حتى وفاته عام ١٣٢٠ م[٢].

قام جريجوري بترجمة الكثير مما تعلمه عن علم الفلك[٣]. من اللغة الفارسية الى اليونانية، وضمن كل تلك الترجمات في كتابه عن " الفلك " الذي قسمه الى اثنا عشر قسما[٤].

---

(١) سلام، أدور اللوس. خصائص الاشكال الفنية في الرسوم الايقونية البيزنطية. مجلة الاكاديمي ٨١ ،٢٠١٦، ج ٥٢٠، وسيشار إليه لاحقاً: سلام، خصائص الأشكال .

(٢) Simeonova، Op. Cit.، p 76 ، 78 .

(٣) زايد، مصادر التاريخ البيزنطي ، ص ٢٤١ .

(٤) المرجع نفسه ، ص ٢٤٢ .



الفصل الثاني : بلاد الشام في العهد البيزنطي منذ القرن الرابع إلى منتصف القرن السابع الميلادي

الأهمية الإستراتيجية لبلاد الشام [١] في العصر البيزنطي:

أ- التسمية:

الشام: اسم بلاد تذكر وتؤنث [٢]، مهموز الألف ولا يهمز، وقيل سميت الشام بسام بن نوح ذلك أنه أول من سكنها؛ فجعلت السين شيناً لتغير اللفظ الاعجمي، وكانت العرب تقول: من خرج من الشام نقص عمره وقتله نعيم الشام.

يقول ابن شداد (ت ٦٨٤ هـ) فيما يرويه عن أبي الحسن احمد بن فارس صاحب كتاب الاشتقاق حول تسمية " الشام " ما الشام فهو فعل من اليد الشومى وهي اليسرى، يقال: اخذ شامة اي على يساره، وشامت القوم ذهبت على شمالهم "[٣].

الشأن والشام: هو الاسم الذي أطلقه الجغرافيون العرب والمسلمون على المنطقة التي يحدها بحر الروم من الغرب، والبادية الممتدة من آيلة (العقبة) في الجنوب الى الفرات في [٤] الشرق، ثم من الفرات الى حد الروم وشماليها بلاد الروم وجنوبيها حد مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر رفح ومما يلي الروم الثغور[٥].

أن أغلب المؤرخين والجغرافيين وعلماء اللغة الذين تناولوا سبب تسمية الشام بهذا الاسم هو: لوقوعها الى جهة الشمال من الكعبة المشرفة، وهذا هو الراي الراجح في سبب التسمية[٦].

---

(١) تسمية بلاد الشام التي أطلقت على القسم الأكبر من شمالي شبه الجزيرة العربية، إنما كانت تعني الشمال في لفظ العرب، وكانت لفظة اليمن تعني الجنوب، ويطلق اسم الشامة في الوقت الحاضر على الحدود الشمالية للسعودية المحاذية للأردن، ومما تقدم يبدو أن لفظة الشام واليمن كذلك لم تكن قبل الإسلام دلالة على تسمية لرقعة جغرافية محددة، إنما كانت تمتد لتشتمل على مساحات غير محددة تقع على شمال أو يمين الكعبة أو الحجاز عموما، وهذا ما تشير إليه تسمية القسم الشمالي من الدار في بعض مناطق الجزيرة بـ،شام الدار، انظر : العمروي، عمر غرامة، بلاد رجال الحجر، الرياض،١٣٩٨هـ،ص١٥٨، وسيشار إليه لاحقاً: العمروي، بلاد رجال الحجر .

[٢]المقدسي ، شهاب الدين أبو محمود ابن تميم(ت٧٦٥هـ،١٣٦٣م)، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، تحقيق أحمد الخطيمي ، ط١ ، دار الجيل بيروت ، لبنان ، ص ٨٢ ، وسيشار إليه لاحقاً ، ابن تميم ، مثير الغرام ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، ١٨ ج ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، ج١ ، ص،٦٤٨،٦٤٧، وسيشار له فيما بعد هكذا ، ابن منظور ، لسان العرب .

[٣] ابن شداد " عز الدين أبو عبد الله بن علي بن إبراهيم الحلبي(ت ٦٨٤ هـ) " ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق د . سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٢ م، ص ٩٩ – ١٠٠ ، وسيشار إليه لاحقاً: ابن شداد، الأعلاق الخطيرة .

[٤] عطا، زبيدة، الحياة الاقتصادية في بلاد الشام في العصر البيزنطي القرن السادس الميلادي ، دار أمين، القاهرة، ط(٤) ١٩٩٤م، ص ٤ ، وسيشار إليه لاحقاً: زبيدة، الحياة الاقتصادية .

[٥]البحيري ، صلاح الدين ، الاردن ، دراسة جغرافية ، ط٢ ، لجنة تاريخ الاردن ، عمان ، ١٩٩٤ . ص ٢٥، وسيشار إليه لاحقاً: البحير، دراسة جغرافية .

[٦]زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٥ .



ب- الموقع:

تمثل بلاد الشام أهم اجزاء القسم الغربي من قارة أسيا، وهي تؤلف ثلثي مساحة منطقة الهلال الخصيب - الجزئيين الاوسط والغربي التي تتكون من كل من (الاردن، لبنان، سوريا، فلسطين) الذي تحيط ذراعاه بمنطقة صحراوية شاسعة في الجنوب والجنوب الشرقي من بلاد الشام - وهي ما يسمى الان بادية بلاد الشام - ويستند ظهره الى سلاسل جبلية مرتفعة في الشمال (جبال طوروس)[١].

بلاد الشام هي: رقعة الارض الممتدة من جبال طوروس على حدود آسيا الصغرى شمالاً إلى صحراء سيناء ومشارف الشراة جنوبا، ومن البحر المتوسط غربا الى بادية الشام شرقا، وهذه الرقعة تتباين سطحا، وتختلف مناخا، وتتنوع حياتها[٢].

وبلاد الشام هي المنطقة الواقعة على الحدود الشمالية لشبه جزيرة العرب حسبما يراه (ابن الفقيه الهمذاني)[٣] وتمتد من مجرى نهر الفرات الأسفل في الشمال الشرقي إلى شواطئ فلسطين على ساحل البحر المتوسط في الشمال الغربي، في حين أن (الهمداني)[٤] يرى أن الحدود الشمالية لجزيرة العرب تشتمل على شبه جزيرة سيناء وفلسطين والجزء الأكبر من سورية وبادية العراق، ويؤكد المستشرق الروسي (بليابيف)[٥] في أن بادية الشام كانت جزءا من شبه الجزيرة العربية، وأن الحدود السياسية بين الإمبراطوريتين الساسانية والبيزنطية[٦]، في القرنين الخامس والسادس الميلاديين، كانت مرسومة على نحو يبقي بادية الشام في حوزة سكانها الأصليين، وهذا ما تؤيده التسمية التي أطلقها العرب على بلادهم (جزيرة العرب)؛ لأن الماء محيط بها من جميع الجهات، وهي بذلك ضمت معظم بلاد الشام كما ضمت جزء من أراضي العراق مما يقع غرب نهر الفرات[٧].

تعد بلاد الشام نقطة وصل بين شبه الجزيرة العربية في الجنوب، وبلاد الأناضول في الشمال، وبين العراق وبلاد فارس في الشرق ، والسواحل الشرقية للبحر المتوسط في الغرب، كما يعد الجزء الجنوبي الغربي منها معبرا برياً وحيداً إلى مصر وشمال افريقيا عبر شبه جزيرة سيناء للقادم من منطقة غرب آسيا ، وكذلك الأمر للقادم من مصر وشمال افريقيا ، فهي تقع بين قارات العالم القديم الثلاث (آسيا وافريقيا وأوروبا) وحلقة الوصل بينها، كما كانت محل أطماع الممالك القوية التي قامت في المناطق المجاورة لبلاد الشام والتي كانت تسعى لبسط نفوذها عليها، في محاولة منها لاستغلال ثرواتها الطبيعية من معادن وأخشاب ومحاصيل زراعية، وماشية وغيرها[٨] .

---

[١] البحير ، الأردن ، دراسة جغرافية ، ص ٢٨ .

[٢] ابن الفقيه ، أبو بكر محمد بن إبراهيم،(ت٢٩٠هـ)،مختصر كتاب البلدان، تحقيق: دي غويه، مطبعة بريل، ليدن،١٨٨٥م،ص ص٣٨،٣٦، وسيشار إليه لاحقاً: ابن الفقيه، أبو بكر، المختصر.

[٣] ابن الفقيه، مختصر كتاب البلدان، ص ٥٥ .

[٤] الحسن بن أحمد بن إبراهيم،(ت٣٦٠،٣٥٠هـ)،صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،١٩٨٩م، ص٨٥،٨٤، وسيشار إليه لاحقاً: الحسن، صفة جزيرة العرب.

[٥] فريحة ، أنيس ، العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، بيروت ،١٩٧٣م،ص٧٢، وسيشار إليه لاحقاً: فريحة، العرب والإسلام .

[٦] نظر ملحق رقم (١)

[٧] ابن تميم : شهاب الدين أبو محمود ،(ت ٧٦٥ هـ ، ١٣٦٣ م)، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، تحقيق أحمد الخطيمي ، ط١ ، دار الجيل بيروت ، لبنان . ، ص ٨، وسيشار إليه لاحقاً: ابن تميم، مثير الغرام.

[٨] حلمي : الشرق العربي ، ص ١٣٣ ، فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ج ١ ، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، د.ت. وسيشار اليه عثمان ، الحدود الاسلامية ، ص ٤٣ .



وتبلغ المساحة الإجمالية لبلاد الشام حوالي (٣٠٧١٣٤ كم)، وقد اختلف المؤرخون والجغرافيون في تحديد أبعادها، ووحدة المسافة التي استخدموها في قياساتهم؛ فمنهم من جعل وحدة المسافة اليوم أو المرحلة أو الفرسخ، وقد قدرت أبعاد بلاد الشام انطلاقاً من مدين شعيب إلى الثغور الشمالية بمسيرة (٣٩) يوماً أما ابن حوقل فقد قدر طولها من حد ملطية إلى رفح ب(٢٥) مرحلة، أما عرضها فهو من جسر منبج الى طرطوس (١٠) مراحل، ومن بالس إلى أنطاكية ثم إلى الاسكندرونة ثم طرطوس (١٠) مراحل أيضاً ، وفي الجزء الجنوبي منها يقل العرض الى (٦) مراحل للمنطقة من يافا الى معان.

وفيما يخص حدود بلاد الشام كما وردت في الدراسات البيزنطية الحديثة، فقد أدت الصراعات التي كانت تنشب من حين لأخر بين الدول المسيطرة على أجزاء من بلاد الشام بعضها مع بعض، أو بين القبائل العربية في بلاد الشام إلى صعوبة بيان حدودها الجغرافية بشكل دقيق ، ومرد ذلك إلى الحروب التي كانت شبه مستمرة بين اكبر قوتين في المنطقة في ذلك الوقت (البيزنطيين في الغرب والفرس في الشرق)[١]، وكانت بلاد الشام في أغلب الأوقات ساحة للصراع بين القوتين، وكل من نتائج الحروب أن تخضع بلاد الشام لإحدى الدولتين، إلا أنها في الغالب كانت تخضع للدولة البيزنطية مما يؤثر على المساحة والحدود ضيقاً أو اتساعاً[٢].

وبالرغم من التشابه لبلاد الشام بين المؤرخين والجغرافيين العرب والبيزنطيين فقد كان هناك اختلاف في التسميات بين الطرفين، فقد أطلق البعض عليها اسم سوريا وهو اسم يوناني الاصل، والبعض اسماها العربية أو الشام أو الشمال، أو المقاطعة الرومانية.

وحدد البعض الآخر بلاد الشام من خلال حديثه عن اهمية موقعها من الناحية الإستراتيجية "؛ فهي تقع بين قارتين هما آسيا وافريقيا وبين منطقتين من مناطق الاستيطان البشري الأول، هما (وادي الفرات في الشرق ووادي النيل في الغرب)، وتعتبر أيضاً بمثابة جسر يربط بين آسيا وافريقيا، أحد طرفيه في الصحراء والطرف الآخر على البحر، كما تعد ملجأ للموجات البشرية المهاجرة من شبه الجزيرة العربية، ومعبرا للتواصل بين الحضارات المحيطة بها، وساحة للمعارك بين الدول الطامعة بها.

أوضاع بلاد الشام خلال العهد البيزنطي الدلالات الجغرافية والتاريخية:

أحكم العرب سيطرتهم على سوريا وبلاد الشام، وأرسلوا غزوات متواصلة في عمق الأناضول، وفرضوا الحصار على القسطنطينية نفسها بين(٦٧٤-٦٧٨م) صد البيزنطيون أخيراً الأسطول العربي باستخدام النار اليونانية، ووقعت هدنة لثلاثين عاماً بين الإمبراطورية والخلافة الأموية. استمرت الغارات في الأناضول بلا هوادة مما أدى إلى تراجع الثقافة الحضرية الكلاسيكية حيث انسحب سكان العديد من المدن إلى أماكن أصغر محصنة ضمن أسوار المدينة القديمة أو انتقلوا(إلى الحصون المجاورة، كما تراجعت القسطنطينية بشكل كبير من نحو نصف مليون ساكن إلى ٤٠,٠٠٠-٧٠,٠٠٠) فقط، كما فقدت المدينة شحنات الحبوب المجانية في(٦١٨م) بعد أن فقدت مصر لصالح الإمبراطورية الساسانية (واستعادتها عام ٦٢٩، لكنها خسرتها لصالح العرب في ٦٤٢) شغل الفراغ الذي تركه اختفاء المؤسسات المدنية شبه ذاتية الحكم نظام الثيمات والذي انطوى على تقسيم الأناضول إلى "مقاطعات" تحتلها جيوش معينة تتولى السلطة المدنية وتتبع مباشرة للإدارة الإمبراطورية. قد يكون لهذا النظام جذوره في بعض التدابير التي اتخذها هرقل، ولكن على مدار القرن السابع تطور إلى نظام جديد تماماً من الحكم الإمبراطوري[٣] .

---

[١] محروس، إسماعيل حلمي، الشرق العربي القديم وحضارته ، د ط ، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية ، مصر ، ١٩٩٧ . ص ٦٢، وسيشار اليه لاحقا ، محروس، الشرق العربي .

[٢] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٩ .

[٣] زياده ، التطور الإداري ، ص.٩٥.



التقسيمات الإدارية لبلاد الشام في العهد البيزنطي:

جرى تحول كبير من الغرب إلى الشرق، وتزايدت أهمية القسم الشرقي من الإمبراطورية من الناحية البشرية والاقتصادية والثقافية، حين غدت سورية تابعة لهذه الإمبراطورية البيزنطة وقد قسمت إدارياً إلى ثلاث مقاطعات هي: سورية وفينيقية وفلسطين. وقسمت مقاطعة سورية بدورها إلى: سورية الأولى وعاصمتها أنطاكية وأشهر مدنها، سلوقية واللاذقية وجبلة وحلب [١].وكانت عاصمة سورية الثانية أفاميا وأشهر مدنها إبيفانيا/حماة[٢] وأرتيوسة/الرستن[٣] ولاريسا/شيزر[٤].

كما قسمت مقاطعة فينيقية إلى جزئين: فينيقية الأولى وعاصمتها صور وأشهر مدنها عكا وصيدا وبيروت وجبيل، أما فينيقية الثانية (فينيقية المجاورة للبنان)؛ فكانت عاصمتها حمص وأشهر مدنها دمشق وبعلبك وتدمر.[٥]

وقسمت مقاطعة فلسطين إلى ثلاثة أقسام: الأولى وهي الوسطى الساحلية وعصمتها قيسارية وأشهر مدنها: بيت المقدس ونابلس ويافا وغزة[٦] وعسقلان، والثانية وهي الشمالية الساحلية ومركزها سكيتوبوليس/بيسان، وأشهر مدنها: طبرية وجدارة/أم قيس، والثالثة وهي الجنوبية الشرقية وعاصمتها البتراء. وضمت هذه كل مواقع الولاية العربية التي تأسست بقضاء الرومان على مملكة الأنباط وجعلت بصري عاصمتها.[٧]

تابعت سورية دورها الصناعي والتجاري الرائد. واستطاعت بنشاطات أبنائها أن تنشر مؤثراتها الحضارية في أنحاء الإمبراطورية. وحافظت أنطاكية على مستواها الفكري، المتميز وأنجبت واحتوت عدداً من المفكرين الوثنيين والمسحيين، وازدهرت في فلسطين كل من قيسارية وغزة. ونافست بيروت العاصمة في المجال الفكري

وكان لانتشار المسيحية في سورية وبلاد شرق البحر المتوسط، أثر كبير في تطور العالم المسيحي في اتجاهين: إغريقي في المدن الساحلية، وسرياني في الداخل. وفي القرنين الثاني والثالث الميلاديين، بدأ تحول جديد إلى الآرامية الأصلية، التي تعتبر الكتابة السريانية فرعاً رئيساً منها. وقد عبر هذا التحول عن يقظة جديدة ووعي قومي بين السوريين .[٨]

---

[١] ابن الشحنة : أبو الفضل محمد ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، د ط ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، سورية ، ١٩٨٤ .ص ٢٥، وسيشار إليه لاحقاً: ابن الشحنة، الدر المنتخب .

[٢] حماة : مدينة في بلاد الشام قرب نهر العاصي قرب مدينة الرستن وحمص ، انظر الحموي ، البلدان، ج٢، ص ٦٤ .

[٣] الرستن : بلدة تقع بين حماة وحمص فيها آثار قديمة، تطل على نهر العاصي، الحموي، البلدان، ج٣ ، ص ٤٣.

[٤] زياده، التطور الإداري لبلاد الشام ، ص ٨٧

[٥] زبيدة ، الحياة الاقتصادية ، ص ٣٢ .

[٦] غزة مدينة تقع في نواحي فلسطين من ناحية مصر، وعلى مقربة منها عسقلان من الشمال وبينهما فرسخان، الحموي، البلدان، ج٤، ص ٢٠٢ .

[٧] زياده، التطور الإداري لبلاد الشام، ص ٩٢

[٨] رمضان، عبد العزيز، المجتمع البيزنطي، ص ٣٤، ٣٧ .



وتأثرت الإدارة البيزنطية بحراك القبائل العربية المتنازعة فيما بينها(١)، التي ستوحدها دعوة النبي محمد (ص) في فترة بلغ فيها استياء الجميع درجة، جعلت المواطنين يعتبرون أعمال الساسانيين والبيزنطيين بمثابة أعمال قطاع طرق. فوجد السوريون في قوة أبناء عروبتهم في شبه الجزيرة العربية خلاصاً لهم .(٢)

فتح انسحاب أعداد كبيرة من الجنود من البلقان لقتال الفرس ومن ثم العرب في الشرق الباب أمام توسع الشعوب السلافية جنوباً في شبه الجزيرة، وكما هو الحال في الأناضول، انكمشت العديد من المدن إلى مستوطنات محصنة صغيرة في عقد ٦٧٠، تقدم البلغار إلى الجنوب من نهر الدانوب مع وصول أفواج الخزر، وأرسلت القوات البيزنطية عام ٦٨٠ لتفريق هذه المستوطنات الجديدة لكنها هزمت في العام التالي، وقع قسطنطين الرابع على معاهدة مع أسباروخ الخان البلغاري وضمت الدولة البلغارية الجديدة السيادة على عدد من القبائل السلافية التي كانت في السابق على الأقل اسمياً تعترف بالحكم البيزنطي في ٦٨٧-٦٨٨م، قاد الإمبراطور جستنيان الثاني رحلة استكشافية ضد السلاف والبلغار وحقق مكاسب كبيرة على الرغم من أن اضطراره للقتال وشق طريقه في تراقيا ومقدونيا يدل على مدى تراجع القوة البيزنطية في شمال البلقان.(٣)

التفت جستنيان الثاني آخر الأباطرة الهرقليين إلى ضرورة كسر قوة الطبقة الأرستقراطية في المناطق الحضرية من خلال فرض الضرائب الشديدة وتعيين "الغرباء" في وظائف إدارية. خلع من السلطة في عام ٦٩٥، واحتمى بداية لدى الخزر ومن ثم لدى البلغار. في ٧٠٥، عاد إلى القسطنطينية بجيوش الخان البلغاري ترفل حيث استعاد العرش، وفرض حقبة من الإرهاب ضد أعدائه. مع الإطاحة النهائية به في ٧١١، بدعم من الطبقة الأرستقراطية انتهت السلالة الهرقلية(٤).

ونذكر من الوحدات الإدارية التي جرى تقسيمها في الدولة البيزنطية، حيث تم تقسيم بلاد الشام إلى أربع ولايات هي:

أنطاكية: وكانت تمتد من ساحل البحر المتوسط غربا إلى مشارف نهر الفرات شرقا، وكانت كل من (بيوريه / حلب) و (خلقيس / قنسرين) تابعة لها.

افامية: وكانت تشمل الرقعة الواقعة إلى الجنوب من ولاية أنطاكية والتي كانت تمتد جنوبا إلى مشارف البقاع، أما شرقا فلم يكن لها حد معين، وكانت المدن أو المعسكرات التابعة لها هي (قلعة شيزر أو زنجار، كاسينا، مغارة المعرة، (ابولينا / الرستن الحالية).

ولاية كوستيا.

ولاية خلديسية في أقصى شمال بلاد الشام.

---

(١) دسوقي : محمد عزت ، القبائل العربية في بلاد الشام ، د ط ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨ .ص ٣٨، دسوقي، القبائل العربية .

(٢) Simeonova، Op. Cit. ، p 51 ، 69.

(٣) الإدريسي : محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مجلد ٢، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د ط ، د ت ، ص ١٤٥، وسيشار إليه لاحقاً: الإدريسي، نزهة المشتاق، و الشاعر ، السياسة الشرقية للإمبراطورية ، ص ٤٣

(٤) العريني، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ٧٢ .



أما الأجزاء الجنوبية من بلاد الشام فكانت:

أ – فينيقيا (اسم أطلق على الشريط الساحلي الضيق على طول الساحل السوري الذي يمتد من مدينة (أرواد) في الشمال [١].

ب – سورية المجوفة الى الشرق من سورية الأولى.

ج – أدوم (وهي المنطقة الجنوبية من الأردن حاليا).

د – فلسطين[٢]

العلاقات البيزنطية مع الممالك العربية:

أ- الأنباط :

تتسم البتراء بالحصانة ومناعة وكونها المدينة الوحيدة الواقعة بين الأردن والحجاز التي كان يوجد بها مياه غزيرة ونقية، كانت تحتل موقعاً مهماً على الخط التجاري الذي يصل بين جنوب شبه الجزيرة العربية والموانئ السورية[٣] .

استمر الصراع بين العرب اللحيائيين والبطالمة على هذا المنوال إلى أن تمكن حلفاؤهم السلوقين (١٩٧ ق. م) من استرداد سورية المجوفة من البطالمة، وهو الحدث الذي سمح لهم بمعاودة نشاطهم التجاري مع المراكز التجارية السورية، التي كان البطالمة يقفون حائلاً دون وصول قوافلهم اليها، وليس ذلك وحسب بل أدرك الانباط ان استعادتهم المكانة التجارية التي كانت لهم قبل نشوب الصراع بينهم والبطالمة يتطلب بسط نفوذهم السياسي على هذه الطرق والمراكز التجارية[٤].

لم تتعرض موازين القوى في سورية للاضطراب الا في عام ٧٠ ق. م وهو العام الذي شهد اضطرار الانباط الى الانسحاب من مدينة دمشق تحت ضغط قوات تغرانس ملك ارمينية، الذي كان قد أصبح على قدر كبير من القوة، بعد نجاحه في الاستيلاء على أعالي وادي الرافدين، وكافة بلاد ما بين النهرين من الفرثيين، وضم أنطاكية وسورية الشمالية وكليكيه الى املاكه، وقد بادرت الكساندرا إلى إرسال الهدايا إليه بصحبة سفراء يتوسلون اليه الا يعامل ولايتها بقسوة، فتقبل تغرانس ما اهدي اليه ووعد ان يكون بالمنكة والشعب رفيقا

لم يدم بقاء ملك أرمينية في دمشق طويلاً، فما أن علم أن القائد الروماني لوكولوس بدأ بالزحف نحو أرمينية (عام ٦٩ ق. م) حتى سارع إلى الانسحاب من سورية باتجاه الشمال، ويبدو أن الأنباط لم[٥] يقوموا بأية محاولة لاستعادة دمشق، فقد وقعت المدينة نهبا في يد اليطوريين بقيادة اميرهم بطليموس بن معن، ولم تتمكن الحملة التي ارسلتها الكساندرا لحماية دمشق ومعاونة اهاليها على الصمود في وجه البطوريين من تحقيق أهدافها.

---

[١] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ١٦ .
[٢] مرجع نفسه ، ص ١٧ .
[٣] حتى ، تاريخ سورية ، ج١ ، ص ٤١٨ .
[٤] الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٣١، محمد، الأنباط ، ص ٩ .
[٥] محمد، الأنباط ، ص ٢٩ .



تعددت الآراء حول الأنباط في تفسير الظروف التي مكنتهم من استعادة مدينة دمشق مرة أخرى، وهي الحادثة التي اكدتها مقولة بولس في رسالته الى اهل كورنتس بان " الحاكم الذي اقامه الملك حارثة على ولاية دمشق ، شدد الحراسة على مدينة دمشق رغبة في القبض علي، ولكني تدليت[1] ، في سلة من نافذة في السور ، فنجوت من يده[2]،ونظرا لان حكم حارثة الرابع امتد الى سنة ٤٠ ميلادية ، لا يوجد اختلاف يذكر بين المؤرخين على انه المقصود بالإشارة في هذه الرواية، التي لم يكن من مهامها تحديد الظروف التي ساعدت الانباط في استعادة المدينة نفسها[3] .

في حين يرى البعض أن دخول دمشق تحت السلطة النبطية كان بموافقة الرومان، وأن الإمبراطور جايوس هو من قام بإرجاعها إليهم، وإلا لما توقفت مدينة دمشق عن إصدار النقد الإمبراطوري مع بداية عهده[4].

كان عام ٣٤ م بداية لتوقف مدينة دمشق عن إصدار النقود الرومانية الامبراطورية، وذلك يناقض قولهم ان استيلاء الانباط على المدينة كان في حوالي ٣٧ ميلادية[5] ، وأن قول بولس في النسخة البروتستانتية أن الملك حارثة أقام هذا الحاكم على ولاية دمشق[6]، يؤكد قطعياً أن السلطات الإدارية والسياسية كانت بيد الأنباط، ولا سيما أن بولس نفسه كان ينتمي في الأصل إلى مدينة طرسوس كيليكة[7].

ويرد في كتاب دليل البحر الارتيري ما نصه " وإذا ما أبحر المرء انطلاقا من شمال برينكي، وسافر يومين او ثلاثة ايام من ميوس خورمس باتجاه الشرق عبر الخليج الممتد فسيجد موضعاً أخراً للرسو يسمى لوكي كومي، تتجه[8] منه طريق (برية) الى البتراء، الى مالك ملك الانباط.

شهد عصر الإمبراطور كلاوديوس (٤١ – ٥٤ م) حركة استكشاف لنهر الأردن، وحدود فلسطين وسورية، وشمال شبه الجزيرة، والطرق التي كانت تمر عبرها الى بلاد ما بين النهرين، وأن الهدف من ذلك كان تمهيدا لضم بلاد الانباط الذين يقفون حجرة عثرة امام طموح الرومان في إكمال السيطرة المباشرة على البحر الاحمر.

يعد الإمبراطور تراجان (٩٨ – ١١٧ م)، بأنه كان لتحقيق من أكثر الأباطرة اهتماماً بالتجارة مع الشرق، لم يتردد في استخدام القوة لتحقيق هذا الغاية، فقد اتجه تفكيره الى غزو الدولة الفرثية ووضع يده على طيسفون[9] حاضرة ملوكها[10].

---

(1) محمد ، الانباط وعلاقتهم بالامبراطورية الرومانية ، ص ٨٧ .

(2) الكتاب المقدس ، رسالة القديس بولس الثانية الى اهل كورنتس ، ط.ب، ،د.م، ١٩٩٥ ، ف١١،الاية ٣٢،٣٣ .

(3) محمد، الأنباط ، ص ٣٠ .

(4) احسان عباس ، تاريخ الأنباط ، ص ٦٦ .

(5) جواد علي ، المفصل ، ج٣ ، ص ٤٤ – ٤٥ .

(6) الشيبة ، دراسات ، ص ٢٢٠ .

(7) الكتاب المقدس ، رسالة بولس الثانية الى اهل كورنتي ، ط.ب، ف ١١،اية ٣٢ ، اعمال الرسل ، ف ٢١، اية ٢٩ .

(8) محمد، الأنباط ، ص ٨٩ .

9 مدينة عراقية كانت عاصمة الساسانيين والفرثيين بنيت المدينة على الضفة الشرقية لنهر دجلة قرب بلدة المدائن/سلمان باك الحالية ما يقارب ال٣٥ كم جنوب شرق بغداد. موقع قطيسفون قرب موقع مدينة سلوقية الأثرية التي بناها السلوقيون، باقر، طه ، مقدمة في تأريخ الحضارات القديمة، جـ٢، الطبعة الرابعة، بغداد ١٩٨٦، ص ٣٢.

(10) الناصري ، الرومان والبحر الاحمر ، ص ٦٢ .



ونظراً لأن الأنباط لم يبدُ أية مقاومة عندما تعرضت سورية الرومانية للغزو الفرثي على عهد الملك مالك الاول، فان جولة الصراع الأخيرة التي أخذ تراجان في الإعداد لها، استلزمت عدم التغاضي عن وجود دولة مستقلة يشك في[1] ولائها، فكان القرار بإنهاء استقلال الدولة النبطية قبل التحرك من سورية لمهاجنة الفرثيين.

ومن ناحية أخرى فإن تراجان كان يعرف الشرق الروماني معرفة جيدة، ولا سيما سورية التي كان والده قد تولى حكمها بتفويض من الامبراطور قيسبنسيان، ولا بد أن تراجان قد أدرك بوضوح أن المملكة النبطية كانت تمثل القطعة النهائية، في تأمين السيطرة التامة على سواحل البحر المتوسط والبحر الأحمر ومما شجعه على ذلك ان المملكة النبطية كانت متحضرة، ومسالمة، وغالبية أهلها مترفون وعلى رأسها ملك ضعيف[2].

ب- الحيرة[3] :

يمكن تتبع خطوط العلاقة البيزنطية مع مملكة الحيرة من خلال الاستشهاد بسفارة عمرو بن هند (ملك الحيرة) الى بلاط الامبراطور جستين الثاني حسب رواية المؤرخ البيزنطي منندار الذي يعد من مؤرخي القرن السادس الميلادي، تناول تاريخه الفترة الممتدة من تولي الامبراطور جستنيان وحتى عهد الامبراطور موريس، الذي شجعه على كتابة التاريخ كما ذكر هو نفسه ذلك، و منندار من اهالي القسطنطينية، فيها عاش ودرس القانون، مع العلم انه لم يمارسه مهنة لكنه وحسب ما ذكر عمل محاميا، اهتم بكتابة التاريخ، ويعد المؤرخ الرئيس المكمل لتاريخ اجاثايس، ولقي تشجيعا من الامبراطور موريس، ساعده على ذلك تمكنه واستفادته من الارشيف الامبراطوري، واطلاعه على وثائق الفترة المعاصرة لتاريخه ، حيث ان جميع معلوماته عن المفاوضات ، جاءت من الارشيفات والمراسلات ، ومحاضر الدعاوي ، ومن اتصاله بالمفاوضين والمندوبين الذين شاركوا فيها ، بقي من كتابه حوالي ١٠٠ صفحة تمثل ١٠% من كتابه الاصلي ، وقد غطى في[4] كتابه الفترة الممتدة من ٥٥٨-٥٨١ م ، وهي فترة امتازت بنشاط الدبلوماسية البيزنطية وتطورها مع جيرانها .

وتفرد منندار باهتمامه بالأقوام الذين تعامل معهم البيزنطيون ، إذ يمثل كتابه عرضا للدبلوماسية ، لذا يستحق التقدير، لما أورده من معلومات دبلوماسية ، فضل بها غيره من الكتاب الكلاسيكيين وساعدته في ذلك خبراته الادارية السابقة ، نظرا لأنه عمل حاميا مع العلم ان هناك من يرى ان لقبه هذا شرفي مكافاة له على تدوينه للتاريخ ، وتمكنه من الاطلاع على الوثائق الرسمية، وكان لديه المقدرة على التحليل والنقد لتلك الوثائق ، وتفهم لروح الدبلوماسية البيزنطية المتأخرة، كما امتاز أيضاً بإبداء رأيه في بعض المواقف كان يؤيد راي المفاوض البيزنطي ، أو ينتقده أحيانا أخرى، مثل ما حدث عندما ادان مندوب جستين الثاني الامبراطور جستنيان في تكرمه على عرب الفرس ، كما كان ينتقد سياسة جستين الثاني وتصرفاته واستفزازه للفرس، كما كان مؤيداً لحالة السلام بين الفرس وبيزنطة؛ لأنه يعتقد أن من الأفضل توجيه الامبراطورية الحربية لمواجهة أعدائهم الأفارق[5] .

---

[1] محمد، الأنباط ، ص ١١١.

[2] محمد، الأنباط ، ص ١١٢ .

[3] الحيرة : مدينة جنوب العراق قرب البصرة والكوفة اتخذها المناذرة عاصمة لهم، ، الحموي، البلدان، ج٢، ص ١٧٢ .

[4] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٧٨ .

[5] ابن رسته، الأعلاق النفيسة ، ليدن، ١٩٦٧م، ص ١٢٠. Simeonova ، Op. Cit. ، p 76 ، 78. ،

أما علاقة ملك الحيرة المنذر الثالث بالإمبراطورية البيزنطية والخلفية التاريخية للإعانات المالية له؛ فتعود العلاقات بين المنذر الثالث ملك الحيرة وبيزنطة إلى عهد جستين الأول، حيث تمكن المنذر في الفترة من (٥٠٦ - ٥٥٤ م) من شن هجوم على الأراضي البيزنطية، وكان يقتل ويأسر أعدادا كبيرة منهم ، وتضطر الإمبراطورية البيزنطية إلى دفع أموال مقابل اطلاق سراح الاسرى[١] وقد وصفه بروكوبيوس بانه ملك على العرب ولم يتمكن احد من صد هجماته، وفي إحدى غارته أسر اثنين من القادة البيزنطيين هما ثيموسترانوس، ويوحنا؛ فأرسل الإمبراطور جستين الأول مفاوضه ابراهام نونوس ومعه وفد كبير للتفاوض مع المنذر في أمر إطلاق سراح الأسيرين، ولعقد معاهدة سلام بينهما وكانت هذه المرحلة الأولى التي بدأت فيها المفاوضات المباشرة بين بيزنطة والحيرة دون تدخل الفرس الساسانيين فيها ، وقد كان اللقاء بين المندوب البيزنطي والمنذر في منطقة الرملة، حيث كان المنذر الثالث مقيما فيها، وقد وصفت تلك المفاوضات بانها كانت تحمل طابعا ودياً، وتم عقد اتفاق بينهما ، وما يدل على حدوث تقارب بين الطرفين ما ذكره مننذار بان المنذر أصبح يتسلم من الامبراطورية البيزنطية مساعدات وذلك عندما لا ينحاز الى جانب الفرس ، وكان متفقاً مع الرومان على أن لا يهاجم الأراضي البيزنطية، ولعل هذا التقارب هو الذي أدى إلى سوء العلاقة بين المنذر والملك الساساني قباذ، ما جعل قباذ يطرد المنذر من الحيرة ، ويولي الحارث الكندي ، الحقيقة ان قباذ في هذه الفترة لم يكن في مركز قوة يسمح له بالاعتراض على سياسة المنذر[٢].

ولابد لنا من التساؤل، هل هذا التقارب بين الحيرة وبيزنطة هو البداية للإعانات المالية؟ وهل استمرت تلك الاعانات حتى عهد الإمبراطور جستنيان؟ خاصة أن رواية مننذار تشير الى الاعانات المالية التي كان يدفعها الإمبراطور جستنيان[٣]، أم هي هدايا وعطايا متبادلة في حينها؟ لكن مهما تكن طبيعة[٤] تلك الأموال؛ فمن المؤكد أنها لم تستمر طيلة عهد جستين الأول أو جستنيان، لأن المنذر وأن كف فترات قصيرة عن مهاجمة بيزنطة إلا أنه عاود هذا الهجوم ، حيث وصفه برودكوبيوس أنه أخطر أعداء الرومان، بسبب سيطرته على كل العرب التابعين للفرس فزادت قوته، ولا أدل على قوة هذا الملك العربي من أن جميع القوى المحيطة، تقربت إليه حيث وصلته وفود من بيزنطة وحمير واثيوبيا وفارس تطلب وده اثناء اقامته في الرملة عام ٥٢٤ م وأثناء مفاوضات الصلح الدائرة بين بيزنطة والدولة الساسانية، وعلى افتراض أن جستنيان دفع للمنذر إعانات مالية، أو أعاد دفع ما كان يأخذه من جستين الأول بعد توقفها مدة من الزمن؛ بسبب تعدي المنذر على الدولة البيزنطية ، وعدم التزامه بالاتفاق القائم بينهما ، متى إذا بدأ جستنيان بذلك ؟ هل بعد توليه عرش الإمبراطورية في عام ٥٢٧ م اي بعد صلح الرملة، ام في أواخر عهد جستين الأول، حيث كان جستنيان هو الحاكم الفعلي في تلك الفترة[٥].

---

[١] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٧٩ .

[٢] المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١،ص٣٢٣ ؛ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ،ت٨٢١هـ،١٤١٨م،صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ج، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٧م، ج١، ص١١٦، وسيشار إليه لاحقاً: القلقشندي، صبح الأعشى .

[٣] الامبراطور جستينيان الأول ،فلافبوس بتروس ساباتيوس يوستيانوس، ٤٨٢، ٤٨٣ - ١٤ نوفمبر ٥٦٥، كان إمبراطوراً رومانياً شرقياً ،بيزنطياً، حكم منذ أغسطس عام ٥٢٧ حتى وفاته في نوفمبر ٥٦٥. يشتهر بإصلاحه الرمز القانوني المسمى قانون جستينيان خلال لجنة تريبونيان، والتوسع العسكري للأرض الإمبراطورية أثناء عهده، يعرف أيضاً باسم "الإمبراطور الروماني الأخير". حسن كاظم دخيل. ، الصراع السياسي وأثره في الإصلاح القانوني في عصر الإمبراطور الروماني جستنيان ،٥٢٧-٥٦٥م). مجلة الآداب ١١٩ ،ص :٢٤٥-٢٦٠،. وسيشار إليه لاحقاً : دخيل، الصراع السياسي .

[٤] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٨٠ .

[٥] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٨١ .



أن الإعانات المالية التي دفعت للمنذر لم تكن مستمرة طوال حكم كل من المنذر الثالث والإمبراطور، بل دفعت في فترات مختلفة، وحسب الظروف ولعل من أهم أسباب دفعها:

ازدياد قوة المنذر الثالث التي برزت بصفة خاصة في فترة ضعف الدولة الساسانية اثناء حكم قباذ الاول.

زيادة هجماته الضارية على الاراضي البيزنطية وما أحدثه من خراب وسلب ونهب.

انشغال الامبراطور جستنيان في مشروعاته الحربية في الغرب وشمال افريقيا، والتي كان يهدف منها إعادة إحياء الإمبراطورية الرومانية بإعادة ضم الولايات الغربية[١].

إن الالتزامات المالية التي دفعت للمنذر من قبل جستنيان قبل عقد الصلح عام ٥٦١ م، حينما كان جستنيان على قيد الحياة، وبعد وفاة المنذر في ٥٤٤ م واي قبل عقد الصلح وقبل اثارة هذه القضية[٢]، ولذا يمكن ان يكون سبب قطعها هو:

عدم التزام المنذر قبل وفاته بما اتفق عليه من عدم المشاركة في الحرب ضد بيزنطة مع العلم انه لم يكن له دور واضح في المعارك التي دارت بين الفرس والبيزنطيين عام ٥٤١م وعام ٥٤٢ م، لكنه دخل في قتال متصل مع الغساسنة اتباع بيزنطة، الذين كانوا في حالة تقارب مع الدولة البيزنطية حتى أن الحارث بن جبلة الغساني شارك في حرب بيزنطة ضد الفرس عام ٥٤١ – ٥٤٢ م.

تبدل السلطة في الحيرة بعد مقتل المنذر الثالث عام ٥٥٤ م وتولى ابنه عمرو بن هند السلطة خلفا له؛ لأن الاتفاق، لو كان بالفعل اتفاق، كان مع والده المنذر لذا انتهى بموته التزام بيزنطة نحوه.

إتمام عقد الصلح عام ٥٦١ م بين الفرس وبيزنطة الذي بموجبه التزام العرب التابعون للطرفين بعدم مهاجمة الطرف الاخر، وبهذا لم يعد هناك حاجة للاتفاق مع عرب الحيرة على حدة[٣] .

بلغت الحيرة على عهد ملكها المنذر الثالث اقصى ازدهارها وقوتها العسكرية، وتمتعت بنفوذ واسع وسط القبائل العربية، ومع الفرس والروم، أصبحت الحيرة في القرن السادس الميلادي خطراً على الولايات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، ما جعل الامبراطور البيزنطي جستنيان في أكثر من مرة يتقرب من المنذر الثالث، محاولاً شراء ولائه ليصرفه عن ولاء الفرس، أو شراء هدوئه وكف يده عن الغارات التي دمرت الاراضي البيزنطية في المنطقة الممتدة من مصر وحتى الجزيرة الفراتية[٤].

تمثل هذه المرحلة حقبة جديدة في تاريخ الامبراطورية البيزنطية تختلف عما سبق خاصة في مجال علاقتها بالعرب[٥].

---

[١] المرجع نفسه ، ص ٣٨٣ .

[٢] البشدري، حسين محمد إبراهيم ، حق اللجوء في الشريعة الإسلامية من بلاد الإسلام إلى بلاد غير المسلمين. دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ص ٤٣، وسيشار إليه لاحقاً: البشدري، حق اللجوء .

[٣] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٨٥ .

[٤] هاني ، قيس حاتم. "الصلات التجارية بين شمال شبه جزيرة العرب والهند من القرن الأول وحتى القرن السادس الميلادي." مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ٧ ،٢٠١٢، ص١٠٣-١١٤.

[٥] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٩٣ .



الفتوحات العربية وموقف الدولة البيزنطية منها :

نظر البيزنطيون والأرمن إلى الفتوحات الإسلامية في إطار نظرة تطورية غير ثابتة الاحتكاك بين الطرفين ومرتبطة بتقدم معرفة الاخر، وفي هذا الإطار مرت الفتوحات الاسلامية في عيون البيزنطيين والارمن من صورة العقاب الالهي إلى المؤامرة اليهودية إلى الاعتراف بالإسلام دينا وبمحمد عليه السلام نبيا وهو ما سهل عملية الفتح[١] .

وقد تمت هذه العملية بعد المصادمات الأولى بشكل يغلب عليه الطابع السلمي في إطار تفاوضي، وقد دارت أغلب هذه المفاوضات بين قواد الحملات الإسلامية ورؤساء الكنائس، ودون الرجوع إلى السلطة المركزية البيزنطية، وقد نتج عن ذلك دمج بلاد الشام في بوتقة العالم الإسلامي وهو ما سيكون له أثره على توسع العرب في الفتوح، وعلى نشوء مجتمع مختلط فيه المسلمون والمسيحيون الشيء الذي سيسهم في تطور العلاقات بين المسلمين والبيزنطيين.

فعلى الرغم من حالة الصراع الدائمة على الحدود بين عاملين مختلفين، نشأت علاقات ودية على المستوى الرسمي، ممثلة في تبادل السفارات والهدايا وفي تحسن لغة الخطاب بين الطرفين، كما عرفت المناطق الحدودية تمازجا بين السكان بفعل التزاوج المختلط والذي حفظت لنا منه الآداب البيزنطية كما الآداب العربية بعض الخطوط العريضة لهذا التعايش، الذي يمكن أن نسميه تعايش الثغور

ونتيجة لهذا التطور في العلاقات تطورت النظرة المتبادلة بين الطرفين، وانتقل الفكر في كلا المجالين من مرحلة الاستعلاء الثقافي الى مرحلة الاعتراف بالأخر المختلف.

عبر الكتاب البيزنطيون أمثال أجدادهم المثقفين من اليونان في كثير من الأحيان عن إعجابهم بالبضاعة الفاخرة سواء المواد الأولية منها مثل الحرير والعاج والأحجار الكريمة أو البضائع الثمينة مثل العطور والتوابل أو الحيوانات الغريبة، وأن التعطش لاستيراد البضائع الفاخرة روي من خلال التجارة مع الشرق، ويبدو أن التعاملات التجارية مع الشرق استمرت، كما قام طبقة عليه القوم في الامبراطورية البيزنطية طيلة فترة وجودها بشراء الكميات الضخمة من تلك السلع، وقامت كل من الدبلوماسية الامبراطورية والسياسات المالية بتنظيم وادارة كمية ونوعية تلك السلع المستوردة بهدف المحافظة على ايرادات تلك السلع وتعزيزها وزيادة تدفقها للمناطق التابعة لها، وصفت التدابير ذات العلاقة بالتجارة الشرقية في النصوص القانونية البيزنطيين المختلفة، بينما تدل القرارات الصادرة من أجل الإشراف على النقابات في القسطنطينية على أن المواد الأولية والتي منشؤها الشرق تمد سوق العاصمة البيزنطية .

أخذت عمليات الثناء على البضاعة الغريبة الدخيلة في النصوص القديمة الطابع الكلاسيكي واتبعت اسلوب التقليد والمحاكاة الأدبية ضمن الإطار الأدبي، تضم المعلومات الأثرية بالتوازي مع الأعمال التاريخية وبخاصة السجلات المدرجة في الروايات التحليلية المروية في موسوعاتهم حول اماكن وبلدان الشرق معلومات بيئية حقيقية أو وهمية في بعض الاحيان بما في ذلك بيانات عن النباتات والحيوانات، قدمت بعض الروايات التي اتبعت روح التقاليد البابوية بعضاً من هذه الأماكن وملحقات من المناظر الطبيعية السماوية على الأرض، كما قدم المؤرخون الدينيون معلومات عن النباتات والحيوانات في الأراضي الشرقية والجنوبية، وقد علمت الإشارة إلى النباتات والحيوانات في النصوص البيزنطية على استمرار الصورة المثالية لوفرة المصادر الحيوانية والنباتية في أراضي اليمن السعيد[٢].

---

[١] جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص١٥٤؛ للمزيد خريسات، دور العرب المتنصرة ، ص١٤٠

[٢] عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٤٢٣ .



النقد البيزنطي في بلاد الشام وأثره في حركة التعريب :

تداول العرب النقود الذهبية البيزنطية (السوليدوس)، والتي عبر عنها المؤرخون العرب بالدنانير الرومية، أو الهرقلية، نسبة إلى الإمبراطور هرقل، والذي تولى الحكم في الخامس من أكتوبر سنة ٦١٠ م، حتى وفاته في الحادي عشر من فبراير سنة ٦٤١ م (٢٠ هـ)، وفي حقيقة الأمر أن الدينار البيزنطي كان متداولاً في شبه الجزيرة العربية قبل عصر الإمبراطور هرقل، ولكن شهرة الدينار الهرقلي والرواج التجاري الواسع له كان سببا لنسبة الدنانير البيزنطية إليه، وارتبط اسم الدينار البيزنطي باسم الامبراطور هرقل ، والذي كان معاصراً لظهور الإسلام وحتى سنة ٢٠ هـ ، وهو ما عبر عنه العرب بالدنانير الرومية، أو الهرقلية[١]، وقال فيه الشاعر كثير عزة[٢] :

يروق العيون الناضرات كأنه هرقلي وزن احمر التبر راجح:

وكان التداول النقدي للدينار البيزنطي قد انحسر قليلا في عهد الامبراطور فوكاس (٦٠٢-٦١٠م) ولكنه أخذ اتجاهاً جديداً وشهرة واسعة في عهد الإمبراطور هرقل، والذي ضرب بعض الطراز المختلفة من هذه الدنانير، ولاقت رواجاً كبيراً في التجارة في ذلك الوقت، ومن أشهرها الطراز الاول الذي ضرب بعدد توليه الحكم مباشرة في سنة ٦١٠ م، والذي حمل بالوجه صورة نصفية للامبراطور هرقل، وعلى الظهر صورة إله النصر[٣].

بدأ الطراز الثاني سكه بين عامي ٦١٠ و٦١٣ م، ويحمل بالوجه صورة نصفية للإمبراطور هرقل، وعلى الظهر الصليب القائم على ثلاث درجات.

أما الطراز الثالث بدأ سكه في عام ٦١٣ م حيث ظهر بالوجه صورة نصفية لكل من هرقل (يسار)، وابنه هرقل قسطنطين (الى اليمين)، وكان هرقل قسطنطين قد ولد في ٣ مايو سنة ٦١٢ م، وعين ولياً للعهد في ٢٢ يناير سنة ٦١٣ م، وكانت وفاته في ٤٢ مايو سنة ٦٤١ م، وعلى الظهر الصليب القائم على ثلاث درجات[٤].

والطراز الأخير الذي نعرض له وهو أكثر شهرة ورواجاً في التداول والذي سكه في سنة ٦٣٨ م تقريباً، ويحمل بالوجه صورة هرقل وولديه هرقل قسطنطين وهرقليوناس، وكان الأخير قد ولد في سنة ٦١٥ م وعين ولياً للعهد في ٤ يوليو سنة ٦٣٨ م، حيث نجد بالوجه نقشا يمثل صورة الإمبراطور هرقل (في الوسط) وولديه هرقل قسطنطين (إلى اليمين) وهرقليوناس (إلى اليسار) بيد كل منهم صليب، وعلى رأس كل منهم صليب، أما الظهر فنجد صليباً مرفوعاً على أربع درجات تحتها نقش اختصار دار سك (القسطنطينية) وعلى يمين الصليب الحرف (ا)، ومن اليسار الرمز (h)، بينما يحيط بالظهر كتابة هامشية بالحروف اللاتينية[٥].

---

[١] البلاذري ،فتوح البلدان ، باب أمر النقود ، ص ٤٤٧ ، الخطابي ، أبو سليمان احمد بن محمد ، (ت ٣٨٨ هـ، معالم السنن، طبعه وصححه : محمد راغب الطباخ ، حلب ، المطبعة العلمية ، ١٣٥٢ هـ،١٩٣٣م، ٣،٦٢،٦٣ ، وسيشار إليه لاحقاً: الخطابي، معالم السنن .

[٢] الخطابي ، معالم السنن ، ص ٦٣ .

[٣] عزار، نانسي، المسكوكات المحلية لمدن شرقي نهر الأردن و فلسطين ، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية ٢٠٠١م ، ص ٣١، وسيشار إليه لاحقاً: عزاز، المسكوكات .

[٤] ليلى، القسطنطينية ، ص ١٨٦، ١٨٩ .

[٥] اليحيى، رائد فيصل ، دراسة تحليلية للمسكوكات البرونزية البيزنطية في الفترة الواقعة بين ٤٩١-٦٤٣ م ، رسالة دكتوراة ، العراق ، ص ٨٩ ، عبد الحكيم غنتاب الكعبي. "نشأة فكرة النقود وتطورها من القرن السابع ق. م حتى القرن السابع الميلادي." مجلة دراسات تاريخية ١٥ كانون الاول ،٢٠١٣)ص ٥٥-٧٤. عبد الله ، الجزيرة العربية، ص ٣٩٩، وسيشار إليه لاحقاً: الكعبي، نشأة فكرة النقود .



السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية:

كانت الإمبراطورية البيزنطية بمثابة خط الدفاع الأمامي المنيع لأوروبا في الشرق ضد الهجمات التي تعرض لها الأوربيون من جانب العناصر الشرقية الآسيوية، فقد لعب الإمبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ - ٦٤١) دوراً هاماً في إيقاف تقدم الفرس وسحق قوتهم العسكرية في نهاية الأمر.

نظام الحكم البيزنطي لبلاد الشام وتحولاته:

إن مشكلات دراسة التاريخ البيزنطي متعددة ويمكن إجمالها في الآتي:

الامتداد الزمني للتاريخ البيزنطي: إذ عمرت الإمبراطورية البيزنطية على المرحلة الواقعة من القرن الرابع الى القرن الخامس عشر (تحديداً من ٣٣٠ إلى ١٤٣٥- ١١٢٣ عاماً) وهي بالتالي تعد اطول كيان سياسي " معمر " على مدى العصور الوسطى[١].

النطاق الجغرافي للإمبراطورية البيزنطية وانعكاساته: فيلاحظ أن تلك الإمبراطورية شملت مناطق واسعة وامتدت في مرحلة من مراحل تاريخها مثلما حدث خلال مرحلة من القرن السادس الميلادي من نهر الفرات شرقاً إلى المحيط الأطلنطي غرباً، والأمر المؤكد أن ذلك الوضع ألقى على حكام القسطنطينية تبعات في إدارة ذلك الامتداد المتسع بما احتواه عن شعوب، وأمم، وأقوام متباينة ذات إبعاد انفصالية عن المركز[٢].

الطابع الرسمي للمصادر التاريخية: من المفارقات الحادة في التاريخ البيزنطي، ان المصادر التاريخية لتلك الامبراطورية مصادر ذات طابع رسمي واضح المعالم في جانب كبير منها، فلدينا تاريخ الأباطرة، وليس لدينا تاريخ الشعوب التي صنعت تاريخها، ويتأكد للباحث أن الإشارات التي تتناول عامة الناس تعد ثانوية ومحدودة مقارنة بالحوليات الكاملة التي تناولت امبراطوراً ما، أو عدة أباطرة.

استئثار العاصمة القسطنطينية بحجم التأليف التاريخي: أن تلك العاصمة استأثرت باهتمام الأباطرة البيزنطيين، وكذلك المؤرخين المعاصرين أنفسهم، ولم يكن ذلك يتناسب مع المناطق الاخرى من تلك الامبراطورية، ولذلك يمكن القول - دون اعتساف في الإحكام، أن تاريخ بيزنطة ما هو إلا تاريخ القلب البيزنطي في الاساس، اي القسطنطينية بصورة طاغية لافتكاك منها[٣].

المركزية الاوربية ، وتأثيراتها على معالجة تاريخ بيزنطة : أن دراسة التاريخ البيزنطي بدأت من خلال المدارس التاريخية الفرنسية والروسية والانجليزية، والألمانية ، فان الزيادة في الكتابة التاريخية الحديثة كانت للباحثين الغربيين دون نزاع في صورة نشر النصوص المصدرية أو المؤلفات الحديثة، ولا نغفل زاوية أساسية وهي : أن فتح القسطنطينية على أيدي المسلمين بقيادة محمد الفاتح العثماني عام ١٤٥٣ م ، جعل المؤرخين الأوروبيين يحرصون على الكتابة التاريخية عنها حفظا لها من الضياع ، وتذكرة للعقل الجمعي الأوروبي بمراحل الصدام بين عالمي المسيحية ، والاسلام خلال العصر الوسيط ، وتجنبا لتكرار التجربة مرة اخرى في غير صالح الأوروبيين[٤]

---

[١] عوض ، مؤنس ، الامبراطورية البيزنطية،دراسة في تاريخ الاسر الحاكمة، بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧ ، ص ١٠٣، وسيشار إليه لاحقاً: عوض، الإمبراطورية البيزنطية .

[٢] عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٤٠ .

[٣] المرجع نفسه ، ص ١٠٦ .

[٤] المرجع نفسه ، ص ١٠٨ .



مؤسسو الاسرات البيزنطية الحاكمة ودورهم الريادي: يعد مؤسسوا الأسر البيزنطية الحاكمة بمثابة القوة الفعلية، والمحركة للتاريخ البيزنطي مع عدم إغفال أوجه الاختلاف بينهم من حيث الدور التاريخي ذاته، والظروف الداخلية والدولية المصاحبة لحكمهم وكذلك الحصاد الختامي لكل منهم[١].

مشكلة الطابع الذكوري للتاريخ البيزنطي وتغييب دور المرأة خاصة البعيدة عن السلطة: ان المجتمع البيزنطي كان مجتمعاً يسيطر عليه الرجل ولم يكن للمرأة الدور البارز فيه إذا ما قورنت بالرجل، وهكذا، كان المؤرخون من الرجال، ويكتبون تاريخ الإمبراطورية وتجاهلوا المرأة، ووجدت كتابات منحازة بحكم التكوين الديني الكنسي لأغلب أولئك المؤرخين، وكان الرجل هو الخصم والحكم في أن واحد مما انعكس بدوره على نصوص المصادر ذاتها[٢].

الطابع الديني لمصادر تاريخ الإمبراطورية البيزنطية : أن تاريخ تلك الإمبراطورية تم تغليفه بالدين في العديد من احداثه في عصور عرفت بعصور الايمان من خلال تعاظم الظاهرة الدينية خلالها، ونجد أن المصادر التاريخية التي ألفها مؤرخون تلقوا تعليماً كنسياً في المقام الأول، تفيض كتاباتهم بالطابع[٣] الديني ، وهو امر يجعل المؤرخ الذي يريد تفسير الأحداث تفسيراً عقلياً من خلال البحث عن الدوافع الحقيقية المحركة للحدث التاريخي، وكذلك النتائج الناتجة عنه تجعله يواجه مشكلة حقيقية هي هل يأخذ دائما بالتفسير الديني للأحداث ؟ أم أن هناك الجوانب الأخرى التي حرص قطاع من المؤرخين المعاصرين على اخفائها، دعماً للتفسير المذكور؟ ولا نغفل أن الجانب الإمبراطور البيزنطي نفسه: نظر اليه المعاصرون على أنه نائب السيد المسيح ولذلك تم ترك الجانب الايسر من العرش شاغرا، على نحو لم يخل من الدلالة الدينية[٤].

الطبيعة الجدلية للتاريخ البيزنطي ووجود أكثر من رؤية تقويمية له: يملك ذلك التاريخ طبيعة خاصة في صورة الجدل بشأن أباطرته، ودوافع سياساتهم، ونتائجها، ولذلك اختلف مؤرخو الدراسات البيزنطية في العديد من وقائع ذلك التاريخ منذ بدايته حتى نهايته، ولا نغفل، أن الشعب البيزنطي نفسه اتسمت حياته بالجدل حول طبيعة السيد المسيح عليه السلام، وصار " الجدل البيزنطي "[٥] مضرب الامثال[٦].

مشكلة تأثير القيادات الكارزمية احتوى التاريخ البيزنطي على عدد من القيادات السياسية والحربية التي تركت تأثيراً كبيراً على المؤرخين المعاصرين، وكذلك المحدثين، وكانت شخصياتهم أثرت بحيث صعب التخلص من تأثيرها؛ فعندما تناولهم المؤرخون المعاصرون، وجدنا قطاعاً منهم انبهر بهم، وكتب تاريخهم من خلال ذلك الطابع، وبالتالي لم يلتزم بروح الموضوعية العلمية الواجبة، وينطبق ذلك على عدد من الشخصيات مثل قسطنطين (٣٢٤-٣٣٧) وباسل الثاني (٩٧٦ - ١٠٣٥ م)[٧] .

---

[١]عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١١ .

[٢] هسى ، العالم البيزنطي، ص ٧١ ، وعوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٣ .

[٣] عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٤ .

[٤] المرجع نفسه ، ص ١١٥ .

[٥] سلامة، موسى. حرية الفكر وأبطالها في التاريخ، دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية ومؤسسة المعارف ببيروت ، ١٩٣٥ ، ص ٦٧، وسيشار إليه لاحقاً: سلامة، حرية الفكر .

[٦] عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١١٧ .

[٧]عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٠ .



واقع الكتابة التاريخية العربية المدنية عن التاريخ البيزنطي (المشكلة الاقليمية): تعاني الدراسات التاريخية البيزنطية في العالم العربي من عدم توافر بحثية متخصصة على شاكلة المعروف على المستوى العالمي وكذلك المجلات العلمية المتخصصة، ومن امثلة تلك المراكز:

-مركز الدراسات البيزنطية واليونانية الحديثة والعثمانية في برمنجهام بإنجلترا.

-مركز الدراسات البيزنطية في سالونيك باليونان.

-مركز دامبرتون اوكس بواشنطن بالولايات المتحدة الامريكية.

-مركز الدراسات البيزنطية التابع للأكاديمية الصربية للعلوم في بلجراد.

-معهد دراسات العصور الوسطى والدراسات البيزنطية بجامعة نوتردام[١].

تاريخ الأسر البيزنطية الحاكمة ٣٣٠ – ١٤٥٣ م :

افتتحت بيزنطة تاريخها بالجدل بين الباحثين بشأن عام الميلاد[٢] ، وفيما يلي اهم الآراء التي قيلت في هذا الشأن:

أولاً: هناك من تصور أن عام ٢٨٤ م يصلح لميلاد تاريخ الإمبراطورية البيزنطية على اعتبار أنه يمثل حدا فاصلا في تاريخ الدولة الرومانية[٣] .

ثانيا: رأى البعض ان عام ٣٢٣ م هو عام تولية الامبراطور قسطنطين عرش الامبراطورية، هو الاجدر بذلك نظرا للتغيرات الفعالة التي حدثت في عهده.

ثالثاً: وجد اتجاه أخر يقرر أن عام ٣٣٠م، الأجدر بأن يكون تاريخ ميلاد الإمبراطورية البيزنطية نظراً لافتتاح القسطنطينية في ١١ مايو منه، والتي عدت عاصمة تلك الامبراطورية.

رابعاً: فضل البعض عام ٣٩٥م على اعتبار أنه العام الذي قام فيه الامبراطور ثيودوسيوس الأول بتقسيم الإمبراطورية إلى قسمين شرقي حكمه ابنه اركاديوس، وغربي حكمه ابنه هونوريوس.

خامساً: اتخذ فريق أخر من المؤرخين عام ٤٧٦ م، بداية ذلك التاريخ على اعتبار اسقاط روما فيه على ايدي الجرمان بقيادة ادواكر وانتهاء حكم الامبراطور رومولوس اوجستيلوس اخر امبراطور روماني.

سادساً: هناك من قرر انه حتى عهد الامبراطور جستنيان الذي امتد عهده بين عامي ٥٢٧ الى ٥٦٥ م، لم يكن هناك دولة بيزنطية بالمعنى الشائع لتلك العبارة، اذ حاول استعادة القسم الغربي من الامبراطورية من ايدي الجرمان، ولذلك اعتبره ذلك الفريق اخر امبراطور روماني[٤] .

سابعاً: أن بداية ذلك التاريخ عام ٥٦٥م، وهو عام وفاة الامبراطور السالف الذكر، حيث فشلت جهوده في استعادة القسم المفقود من الامبراطورية.

---

[١]المرجع نفسه ، ص ١٢١ .

[٢]جوزيف، نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ٢٨، ١٤٥٣ ، ط١ .الاسكندرية ، ١٩٨٤ م ، س ١٥،٢٣،وسيشار اليه لاحقا، جوزيف، تاريخ الدولة البيزنطية .

[٣]عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٥ .

[٤] المرجع نفسه ، ص ١٢٦ .



ثامنا: وهو اتجاه بقول بعام ٧١٧م، وهو عام تولية الامبراطور الثالث الايسوري الحكم في القسطنطينية وتصديه لحصار المسلمين لها.

تاسعاً: هناك قطاع من المؤرخين قرر أن عام ٨٠٠ م، هو العام الذي يبدأ به التاريخ البيزنطي

على أية حال، فان ذلك الجدل حول الميلاد البيزنطي غير خبر تعبير عن الطبعة الجدلية العامة لذلك التاريخ منذ خطواته الأولى[١].

أما نهاية الحكم البيزنطي فقد اتفق عليه غالبية المؤرخين بأنه ٢٩ مايو ١٤٥٣م عندما فتحت على أيدي الأتراك العثمانيين بقيادة محمد الفاتح[٢] وكان حاكمها حينذاك قسطنطين الحادي عشر آخر الأباطرة البيزنطية، على مدى تاريخ تلك الامبراطورية كان شبح الموت يتهددها، وفي مرات متعددة كانت على وشك السقوط إلا أنها قاومت ذلك بكل ما أوتيت من عزيمة وقوة وقدرة على البقاء وقد أفادت من امكاناتها المتوافرة، الجغرافية والعسكرية والاقتصادية[٣] .

الأسرة الهرقلية (٦١٠ – ٧١٧ م):

الأسرة الهرقلية التي حكمت الامبراطورية البيزنطية خلال المرحلة من ٦١٠ إلى ٧١٧م، أي ما زاد على قرن من الزمان.

تمتاز الأسرة الهرقلية بكثرة عدد اباطرتها الذين تولوا الحكم فيها على نحو فاق الاسرات السابقة عليها في صورة أسر قسطنطين، وثيوديوس، واسرة جستنيان واباطرة الاسرة الهرقلية هم: هرقل (٦١٠ – ٦٤١ م)، قسطنطين الثالث (٦٤١ – ٦٤٢ م) وقنسطائز الثاني (٦٤٢ – ٦٦٨ م)، وقسطنطين الرابع (٦٦٨ – ٦٨٥ م)، وجستنيان الثاني (٦٨٥ – ٦٩٥م)، وليونتيوس (٦٩٥ – ٦٩٨م)،وتيبيريوس الثاني (٦٩٨-٧٠٥م)، وجستنيان الثاني(٧٠٥-٧١١م)، وفيلينكوس(٧١١-٧١٣م) اناسناس الثاني (٧١٣-٧١٥م)، وثيودوسيوس الثالث (٧١٥-٧١٧ م).

إن أهم إمبراطور خلال حكم تلك الأسرة هو الإمبراطور هرقل، المؤسس البارز الذي كان ابنا لحاكم قرطاجة، وقدم الى القسطنطينية، وقام بانقلاب أوصله إلى سدة الحكم عام ٦١٠ م في ظروف تاريخية معقدة وعصيبة خاصة على جبهة الصراع البيزنطي – الفارسي[٤] .

---

[١]هالدون، بيزنطة في حرب، ص ٦٦، ٦٧ .

[٢]يعرف السلطان محمد الفاتح بأنه هو من قضى نهائيًا على الإمبراطورية البيزنطية بعد أن استمرّت أحد عشر قرنًا ونيفًا، ويعتبر الكثير من المؤرخين هذا الحدث خاتمة العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة وعند الأتراك فهذا الحدث هو "فاتحة عصر الملوك" هو سابع سلاطين الدولة العثمانية وسلالة آل عثمان، يُلقب، إلى جانب "الفاتح"، بأبي الفتوح وأبو الخيرات، وبعد فتح القسطنطينية أضيف لقب "قيصر" إلى ألقابه وألقاب باقي السلاطين الذين تلوه حكم ما يقرب من ثلاثين عامًا عرفت توسعًا كبيرًا للدولة العثمانية، Babinger، Franz ، ٢٠٠٣، Mehmed Sultan Fatih and Time)، Istanbul: Capricorn Publishing، ISBN ٩٧٥-٣٢٩-٤١٧-٤، p. ٣٠ ، محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العليّة العثمانية ، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م، صفحة: ١٦٠

[٣]عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٢٧ .

[٤]المرجع نفسه ، ص ١٨٥ .



ومن الممكن إجمال أهم أعماله على النحو التالي:

أولاً: مواجهة الخطر الفارسي.

ثانياً: المشكلة الدينية.

ثالثاً: الصراع البيزنطي – العربي.

يوصف هرقل " بالإمبراطور التعيس "، اذ لم يهنأ بانتصاره على الفرس او على المسلمين في الشام ، فقد ظهر امامه خطر داهم في صورة العرب الذين اعتنقوا الاسلام، وصاروا قوة لا يستهان بها، وقد اثبت قدرتها الفذة على تغيير التاريخ في العصور الوسطى بصورة غير مسبوقة وخلال عقود قليلة[١].

يجب أن نلقي نظرة على بدايات نمو تلك القوة التي لم يحسب لها البيزنطيون حسابا، فقد ولد النبي محمد بن عبد الله صلى الله عليه و سلم، في مكة المكرمة ٣٠ اغسطس عام ٥٧٠ م من أسرة من أشرافها وفيما بعد عمل بالرعي، والتجارة ووصف بالصادق الامين ، وعند بلوغه الأربعين عاماً جاء الوحي من الله تبارك وتعالى وهو يتعبد في غار حراء[٢]، وكان نزول القران الكريم الذي يعد معجزة الهية حية منذ ذلك الحين ، وإلى قيام الساعة، يلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بإرسال سفراء إلى حكام الدول المجاورة ، ومنهم الدول البيزنطية من أجل إبلاغهم برسالة الإسلام الذي هو في الحقيقة دين عالمي لكافة البشر صالح لكل زمان ومكان ، فاحسن البعض استقبال سفراء وأساء البعض الأخر إليهم ، وكان الإمبراطور هرقل من أولئك الذين أرسل لهم نبي الإسلام رسالة للإبلاغ بالدين الجديد .

حدثت معركة مؤتة بين الإسلام بين المسلمين والبيزنطيين[٣] عام (٦٢٩ م) انتصر فيها البيزنطيين، واستشهد فيها ثلاثة من قادة المسلمين في صورة زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة، وتمكن خالد بن الوليد من الانسحاب بباقي القوات الإسلامية[٤] .

أن الإمبراطورية البيزنطية التي كانت قد خرجت من صراعها مع الفرس بانتصار، استخفت بقوة المسلمين وتصورت أنهم يقومون بمجرد مناوشات حدودية محدودة الشأن ولم يتصور البيزنطيون البتة ان يصل بهم الامر الى حد الحاق هزائم مروعة بأباطرة القسطنطينية الكبار الذين انتشوا بخبر الانتصار على الفرس منذ قليل.

كانت السياسة البيزنطية الجائزة على المستوى الاقتصادي القائمة على فرض الضرائب واستنزاف ثروات الولايات الشرقية خاصة القمح كما في حالة مصر كان ذلك أثره في اشتعال نيران السخط، والتمرد في نفوس سكان تلك الولايات وهكذا، قدم البيزنطيون بأخطائهم الفادحة فرصة ذهبية للفاتحين العرب ليتفوقوا عليهم، ويحققوا انتصاراتهم في وقت قياس غير مسبوق ومن قبل ذلك كله الجوانب الايجابية المتعددة التي احتواها الاسلام نفسه كدين سماوي خاتم[٥].

---

[١] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج٣ ، ص ٩٩

[٢] عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٨٩ .

[٣] ابن سعد ، محمد ،ت ٢٥٣هـ. الطبقات الكبرى ، ط ، بيروت ١٩٥٨ ، ج٢ ،ص١٢٨، وسيشار إليه لاحقاً: ابن سعد، الطبقات .

[٤] عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٠ .

[٥] عوض، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٩٢ .



جاء الفتح بمثابة إنقاذ لمصر، وأهلها والاقباط حينذاك من الاضطهاد البيزنطي، فكانت شهادة حق من مؤرخ بارز ردا على ادعاءات وافتراءات لا تقف على قدميها[١].

تمكن خالد بن الوليد من قيادة المسلمين في انتصار تاريخي فذ في صورة معركة اليرموك في ٢٢ اغسطس من عام ٦٣٦ م[٢] ،وتفوق الفرسان المسلمون خفيفي الحركة الذين برعوا في حرب الصحراء على القوات البيزنطية الثقيلة البطيئة الحركة، وكان الانتصار الاسلامي فيها حاسما[٣] .

نسب المؤرخون المسلمون وغيرهم وداعاً رمزياً للإمبراطور البيزنطي هرقل لبلاد الشام إذ قال: أي " الوداع يا سورية وداعا نهائيا[٤] ، على نحو عكس مدى احساسه بالكارثة التي حلت بالدولة البيزنطية من جراء التوسعات العربية الخاطفة، والناجحة.

ولا بد لنا من التساؤل، هل كان الإمبراطور هرقل امبراطورا ناجحا أم فاشلا؟ والواقع أن الصفتين معا تتوافران فيه، فقد نجح مع الفرس وأخفق مع المسلمين ومع ذلك، من الملاحظ أنه ورث تركة مثقلة، وواجه خلال تلك المرحلة المبكرة من تاريخ الدول الإسلامية، وفي تقديري أن أي حاكم آخر لبيزنطة لم يكن من الممكن ان يحقق انتصارا عليهم من خلال فهم حقيقي لطبيعة المرحلة وليس من خلال دعائية مموجة للمسلمين.

التنافس الساساني-البيزنطي ٦٠٢-٦٢٨:

كانت آخر سلسلة حروب بين الإمبراطورية البيزنطية والساسانيون بإيران، لكن الحرب الأخيرة كانت الأعنف لأن كلاهما كاد يقضي على الطرف الآخر.

عام 622م، حصل انقلاب عسكري حيث تمكن هرقل (641-610) حاكم قرطاجة من الاستيلاء على القسطنطينية وأعاد تنظيم الجيش. أبدى هرقل شجاعة ومهارة كبيرة في مواجهة الخطر الفارسي. فبدلا من منازلة جيوش الفرس المتوغلة في أراضي الامبراطورية، قام بالالتفاف عليهم ومهاجمتهم في عقر دارهم في البلاد الفارسية. إذ تحالف مع خزر الترك، وترك العاصمة المحاصرة القسطنطينية وهاجم بلاد فارس من المؤخرة عن طريق الإبحار من البحر الأسود، فاستولى على أذربيجان) ميديا (سنة 624، حيث قام بتدمير أكبر معبد نار مجوسي (انتقاما لتخريب كنيسة القيامة في القدس.

وفي هذه الأثناء ظهر شك متبادل بين الملك كسرى الثاني وقائد جيشه شهربراز .وقام الوكلاء البيزنطيون بتسريب رسائل مزيفة للجنرال شهراباراز تظهر بأن الملك كسرى الثاني كان يخطط لإعدامه. فخاف الجنرال شهرباراز على حياته وبقي محايدا أثناء هذه الفترة الحرجة. وخسرت بلاد فارس بذلك خدمات إحدى أكبر جيوشها وإحدى أفضل جنرالاتها. إضافة إلى ذلك، توفي بشكل مفاجئ شاهين وسباهبود العظيم قادة الجيش الساساني والذي كان تحت سيطرته بلاد القوقاز وبلاد الأناضول .وهذا ما رجح كفة الميزان لمصلحة البيزنطيين، وأوصل الملك كسرى الثاني إلى حالة الكآبة.[٥].

---

[١] اسحق، عبيد ، شمس العرب تسطع على أرض النيل ، ضمن كتاب أثر الإسلام في مصر واثر مصر في الحياة العربية الاسلامية ، قاسم عبده ، ط.القاهرة ١٩٩٩، وسيشار إليه لاحقاً: اسحق، شمس العرب .

[٢] البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٣٦ .

[٣] عوض، الإمبراطورية البيزنطية، ص ١٩٣ .

[٤] الازدي ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط .القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٢٣٦ . وسيشاراليه ، الازدي، فتوح .

[٥] الحيدري ، التنظيمات ٤٦



وبمساعدة الخزر وقوات تركية أخرى، استغل الإمبراطور البيزنطي هرقل غياب قادة الجيش الساساني وربح عدة انتصارات مدمرة للفرس بعد ١٥ عاما من حربهم للبيزنطيين. حملة الملك هرقل تتوجت في معركة نينوى، حيث انتصر الملك هرقل في كانون الأول عام 627م بدون مساعدة الخزر الذي تركوه) انتصاراً ساحقا على الجيش الفارسي بقيادة راهزاد .وهذه المعركة الحاسمة قد قررت مصير الصراع بين الطرفين[١].

ووصل خبر هذه المعركة إلى المسلمين عام 628بعد أن انصرفوا من مكة عاقدين صلح الحديبية، ثم أرسل نبي الإسلام محمد الصحابي عبد الله بن حذافة السهمي إلى كسرى الثاني يدعوه للإسلام. فغضب كسرى غضبا شديدا، فجذب الرسالة من يد كاتبه وجعل يمزقها دون أن يعلم ما فيها وهو يصيح: أيكتب لي بهذا، وهو عبدي؟!! ثم أمر بعبد الله بن حذافة أن يخرج من مجلسه فأخرج. فلما قدم عبد الله على نبي الله أخبره بما كان من أمر كسرى وتمزيقه الكتاب؛ فدعا على الفرس أن يمزقوا كل ممزق[٢].

أما كسرى فقد كتب إلى باذان نائبه على اليمن: أن ابعث إلى هذا الرجل الذي ظهر بالحجاز رجلين جلدين من عندك، ومرهما أن يأتياني به. خرج الرجلان رسالة باذان إلى رسول الله) صلى الله عليه وسلم فلما قرأ كتاب صاحبهم، أخبرهم أن الله قد سلط على كسرى ابنه شيرويه؛ فقتله في شهر كذا وكذا ليلة كذا وكذا من الليل؛ بعد ما مضى من الليل. فانطلقوا فأخبروا باذان. فقال: لئن كان ما قاله محمد حقا فهو نبي، وإن لم يكن كذلك فسنرى فيه رأيا. فلم يلبث أن قدم عليه كتاب شيرويه قباد الثاني ابن كسرى يخبره بقتله لأبيه في تلك الليلة، واستيلاءه على عرشه. فأعلن باذان إسلامه، وأسلم من كان معه من الفرس في بلاد اليمن .[3] وأسلم كذلك العرب في البحرين وخرجوا عن طاعة كسرى. وأسلمت بعض قبائل العرب في العراق مثل بني شيبان[٣].

زحف هرقل خلال العراق، حيث وصلته أخبار اغتيال الملك كسرى الثاني. ثم تحالف مع الأحباش عام 629 م وانتصر مجددا على الفرس وصار قريبا من المدائن. وعندها رآى شيرويه أن من الأفضل أن يعقد الصلح مع هرقل. وبمقتضاه استردت بيزنطة كل ما كان لها من البلاد التي كانت قد سقطت في أيدي الفرس، بما في ذلك أملاكهم في بلاد الجزيرة الفراتية والشام ومصر[٤] .

مشى هرقل حافياً إلى القدس حاملاً ما يسمى بالصليب المقدس عام ٦٣٠. وهذه هي سنة لقاءه مع أبي سفيان لما وصلته رسالة نبي الإسلام محمد .وبعد رجوع هرقل إلى القسطنطينية استقبله أهلها استقبال الأبطال، وحمل له الشعب أغصان الزيتون ورتلوا المزامير وهتفوا باسمه.

لم تدم فرحة هرقل طويلاً؛ إذ لم تمض إلا برهة من الزمن وإذا به يواجه جيوش المسلمين. وبعد معركة اليرموك، حسم مصير بلاد الشام، ثم لم تلبث مصر أن مشت كذلك، ثم شمال أفريقيا.[٥]

---

[١] ابن العبري، تاريخ الزمان، ص ٦٦ .

[٢] ابن الأثير، عز الدين بن الأثير(ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م)، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج٣، دار الكتب العلمية ، تحقيق علي عوض ، وسيشار اليه ، ابن الأثير، أسد الغابة، ج٣، ص ٢١١ .

[٣] ابن رسته، الأعلاقالنفيسة، ص ١٣٧ .

[٤] الدوري،طعمه وهيب خزعل هتاش، أحوال العراق الاقتصادية في العصر الساساني رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة تكريت ، ٢٠٠٧ ، ص ١٣١،١٣٢، وسيشار إليه لاحقاً: الدوري، أحوال العراق .

[٥] المرجع نفسه، ص ١٢١



بلاد الشام في الصراع الساساني - البيزنطي:

وفي جملة ما اتخذه البيزنطيون من وسائل التأثير في الشرقيين وفي جملتهم العرب: نشر النصرانية الديانة التى قبلوها، ودانوا بها، واتخذوها ديانة رسمية للدولة.(١)

وتمكنت النصرانية من كسب بعض العرب فجرتهم إليها، وجذبت إليها القبائل الساكنة على حدود الأرياف والأطراف؛ أي: سكان المناطق الحساسة الدقيقة بالنسبة إلى الخطط السياسية والعسكرية "للساسانيين" و"للبيزنطيين" على حد سواء(٢).

وقد كان من سوء المصادفات أن النصرانية كانت قد تجزأت إلى شيع؛ وأن غالبية النصارى العرب تمذهبت بمذهب يخالف مذهب الروم؛ ولكنها كانت تشعر على كل حال أنها مع الروم على دين واحد، ولهذا: لم يحفل ساسة "القسطنطينية" كثيراً بموضوع اختلاف المذاهب، وإن تألموا من وجوده وظهوره؛ فساعدوا نصارى اليمن، ونصارى الأماكن الأخرى من جزيرة العرب على اختلافهم عنهم، وعملوا في الوقت نفسه على نشر مذهبهم بين العرب؛ ليتمكنوا بذلك من إيجاد محيط ثقافي سياسي يؤيد البيزنطيين.(٣)

وشجع "الساسانيون" مذهب "نسطور" مع أنهم كانوا مجوسا ولم يكونوا نصارى، وشجعوه؛ لأنه مذهب يعارض مذهب الروم، فانتشر في العراق، وفي إيران، وفي سائر الأرضيين الخاضعة للحكم الساساني، ودخل في هذا المذهب أكثر النصارى العرب في العراق(٤).

وكان من نتائج العداء الموروث بين "الساسانيين" و"البيزنطيين" أن انتقلت عدواه للعرب أيضا. فصار أناس منهم مع "الفرس" وآخرون مع "الروم" وبين العربين عداوة وبغضاء، مع أنهما من جنس واحد، وكلاهما غريب عن الساسانين والبيزنطيين.(٥)

وقد تجمعت هذه العداوة: في غزو "عرب الحيرة" للغساسنة، وفي غزو "الغساسنة" لأهل الحيرة، حتى في الأيام التي لم يكن فيها قتال بين الفرس والروم، مما أدى أحيانا إلى: تكدير صفو السلم، الذي كان بين البيزنطيين والساسانيين.

أما ملوك "الساسانيين" فقد كانوا يتاجرون مع العرب، يشترون منهم، ويبيعونهم ويرسلون القوافل بأسمائهم إلى العربية الجنوبية؛ لبيع ما تحمله في أسواقها، ولشراء سلع العربية الجنوبية يحملونها إلى أسواق العراق، وقد كانوا يوكلون حراستها إلى جماعة يختارونهم من سادات القبائل المهيبين المعروفين بجعل يدفعونه لهم.

ظهرت في غضون القرن الثالث الميلادي تطورات جديدة أدت إلى اعتماد هاتين الإمبراطوريتين على إمارتين عربيتين حديثين، كل منهما تتبع قوة من القوتين الكبيرتين وتدافع عن حدود هذه القوة في مجابهة القوة الأخرى، وفي بعض الأحيان كان الأمر ينتهي بأن ينحصر الصراع بين هاتين الإمارتين نفسيهما، دفاعا عن مصالح القوى الكبرى(٦).

---

(١) الفيومي، محمد، تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، مكة والصراعات السياسية بين الفرس والرومان ، القاهرة، ط٤، ١٩٩٤م، ص٣٨٣، وسيشار إليه لاحقاً: الفيومي، تاريخ الفكر الديني .

(٢) مرجع نفسه ، ص٣٨٣ .

(٣) علي، المفصل، جـ٢ ، ص ٦٢٨.

(٤) الفيومي، تاريخ الفكر الديني ، ص٣٨٣

(٥) المرجع نفسه، ص٣٨٣

(٦) لطفي، عبد الوهاب، العرب في العصور القديمة ، الإمارات العربية الحدية ، ٢٠٠٣م، ص٤٣٦، وسيشار إليه لاحقاً: لطفي، العرب في العصور القديمة .



وقد انقسمت الظروف التي أدت إلى هذا الوضع إلى قسمين بعضها خارجي يخص الدولتين الكبيرتين، وبعضها داخلي يخص شبه الجزيرة. وفيما يخص الظروف الخارجية نجد أن كلا من هاتين القوتين شهد تغييرات في غضون القرن الثالث والذي يليه كان لها أثرها على اتجاه كل منهما. ففي الغرب كانت القبائل الجرمانية المتبربرة قد بدأت مواقعها ووقعها على حدود الإمبراطورية الرومانية وتلت ذلك فترة من التدهور انتهت بتقسيم الإمبراطورية من الناحية الفعلية في عهد الإمبراطور قسطنطين "٣٠٦-٣٣٧م" الذي اتخذ بيزنطة "على مداخل البحر الأسود" عاصمة له بعد أن أعاد تسميتها لتصبح القسطنطينية. ثم انتهى الأمر بتكريس رسمي لهذا التقسيم الفعلي في ٣٩٥م. كما شهدت هذه الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي بدأت تعرف باسم الإمبراطورية البيزنطية عددا من الصراعات العسكرية على عرش الإمبراطورية أثر إلى حد ملموس على فاعليتها في مجال الصراع الخارجي. أما فيما يخص الإمبراطورية الفارسية فكانت قد شهدت اضطرابا داخليا حول الحكم انتهى بسقوط الأسرة الحاكمة الفرثية وقيام الأسرة الساسانية مكانها في ٢٢٦م لتنشغل بعد ذلك بعض الوقت في تثبيت دعائم حكمها في الداخل وسيطرتها على إمبراطوريتها في الخارج.[١]

إذ كانت منطقة بلاد الشام غير معزولة عمن حولها: سياسيا، اقتصاديا، ثقافيا، أو دينيا، فرأينا كيف قامت هنا أو هناك تحت إشراف الكنيسة التي أنشأتها وساعدت على قيامها مدارس وميول مذهبية، وهكذا كنا نرى أنها لا تكاد توجد إلا ويعطل رئتيها الهواء، وهذه المدارس الوليدة كانت صبغة دينية ولسانها لا يرطن بغير السريانية لغتها القومية[٢].

كانت بعض القبائل التي ربما جاءت مهاجرة من اليمن قد بدأت تستقر على الحدود السورية وهم بنو غسان. بينما كانت تجمعات قبلية أخرى قد بدأت تستقر في القسم الشرقي من الهلال الخصيب على الحدود الغربية للفرات وهم بنو تنوخ الذين كانوا ينتمون إلى تجمع أكبر هو قبائل اللخميين. وانتهى الأمر، كما مر في مناسبة سابقة إلى أن أصبح كل من هذين التجمعين القبليين يشكل كيانا أساسيا يمكن أن نسميه دولة أو إمارة، ما لبثت أن دخلت في علاقة تبعية مع الدولة الكبيرة المتاخمة لها، فالغساسنة دخلوا في دائرة النفوذ البيزنطي والتنوخيون "أو اللخميون "دخلوا في دائرة النفوذ الفارسي[٣].

وقد أدت كل من الإمارتين دورها كدولة حدية تحمي حدود القوة الكبيرة التي تتبعها ضد غارات الإمارة الأخرى كما حدث في الشطر الأوسط من القرن السادس الذي شغلته سلسلة من الحروب الضارية بين كل من الحارث "الثاني" بن جبلة الغساني، والمنذر "الثالث" بن ماء السماء اللخمي، ولكن مع ذلك فإن دور هاتين الإمارتين لم يكن كلمة تبعية للدولتين الكبيرتين. ففي عام ٥٦٣م، على سبيل المثال، نجد الحارث الثاني يذهب إلى القسطنطينية وينتزع من الإمبراطور البيزنطي يوستنيانوس "جستنيان" الأول موافقة على تعيين يعقوب البردعي أسقفا للعرب السوريين على المذهب المونوفيزي رغم مخالفة هذا المذهب للمذهب الرسمي البيزنطي، رغم أن الدولة البيزنطية كانت تعتبر نفسها حامية لهذا المذهب في العالم المسيحي، كذلك نجد المنذر الأول اللخمي "٨١٤-٨٦٢م" يقوم بدور يتخطى حدود التبعية الإمبراطورية الفارسية؛ فيتدخل في شئون العرش الفارسي ذاته[٤]، كما حدث حين فرض على رجال الدين الفرس أن يتوجوا بهرام "الذي كان ربيبا لوالده" في مواجهة منافس قوي من أمراء البيت الحاكم الإمبراطوري[٥].

---

[١] المرجع السابق ، ص ٤٣٦ .

[٢] الفيومي، تاريخ الفكر الديني ، ص٣٨٤.

[٣] رمضان، المجتمع البيزنطي ، ص ٧٢، ٩١ .

[٤] لطفي ، العرب في العصور القديمة، ص٤٣٧

[٥] المرجع نفسه، ص٤٣٨.



ولكن مع ذلك فإن هذا القدر من حرية الحركة بالنسبة لأمراء هاتين الإمارتين يبدو أنه لم يكن واردا إلا في حالات إما تعتمد على الشخصية القوية لأحد هؤلاء الأمراء أو ترتبط بظروف تخلخل مؤقت في الأسرة الحاكمة في إحدى الدولتين الكبيرتين. أما الخط الأساسي الذي أثبت نفسه بصفة متواترة فقد كان دائما حرص هاتين الدولتين على إزاحة أي أمير من هؤلاء الأمراء من الطريق إذا بدأت تصرفاته تثير الشك في مدى ولائه للدولة التي يتبعها. وقد مر بنا في مناسبة سابقة موقف الإمبراطور البيزنطي تيبريوس الثاني الذي ساق كلا من الحارث الثاني وابنه النعمان إلى السجن في المنفى حين بدأ الشك يساوره في تصرفات كل منهما، كما رأينا، على الجانب الآخر، الإمبراطور الفارسي يعين بعد النعمان الثالث اللخمي أميراً من طيء هو إياس بن قبيصة "٦٠٢-٦١١م" ويعين إلى جانبه مقيما فارسيا أخذ في قبضته زمام الأمور ليصبح الأمير العربي مجرد من أية سلطة فعلية[١].

وكانت خلال هذا التنافس أخبار البيزنطيين هي الغالبة على أخبار القوى الأخرى في أوروبا حيث يذكر الواقدي أنهم من القوى المسيحية الأوروبية التي أمدت الروم على المسلمين بعد تحرير بيت القدس إذ يقول أن هرقل (استنجد بكل من يعبد الصليب ويقرأ الإنجيل فأجابته الرومية والصقالبة والإفرنج والأرمن والدقس والملغيط والكرج واليونان والغلف والغزية وأهل رومية وكل من يحمل صليبا)[٢].

أما اليعقوبي فأنه تحدث عن انكماش أراضي الدولة البيزنطية بعد سيطرة المسلمين على أجزاء مهمة من أراضيها فيقول فصارت محاطة (ببلاد الصقالبة واللالان والفرنج ... ومن مدنها... رومية، قونية، أماسة، خرشن، صقلية)[٣].

لقد وضح اليعقوبي التغيرات الكبرى على الرقعة الجغرافية للإمبراطورية البيزنطية وجعل روما من مدنها وهي معلومات دقيقة لان روما وأجزاء من ايطاليا كانت تحت السيطرة والنفوذ البيزنطي منذ عهد جستنيان (٥٢٧- ٥٦٥م) وبقي النفوذ في جنوب ايطاليا حتى القرن الحادي عشر.

والنصوص السابقة تؤكد أن الكتاب العرب والمسلمين كانوا متأثرين بالرؤى البيزنطية للأحداث في أوروبا وهي دقيقة وواقعية لارتباطها بالعلاقات السياسية والعسكرية بين الدولة العربية الإسلامية والإمبراطورية البيزنطية لكن المعلومات ذات الطابع التاريخي للإفرنج تختفي فيها الدقة وتصبح خيالية تعتمد على التأويل الذي لا يستند إلى الواقع. مثال ذلك أن الواقدي يرجع أصل الفرنجة إلى العرب المتنصرة من غسان الذين لجأوا إلى غرب أوروبا وجزرها بعد هزيمة الروم في معركة اليرموك وهو نفسه يذكر أنهم ساندوا هرقل في حربه على المسلمين كما ذكرنا سابقا. ويمكن تفسير ذلك أن الحضارة اللاتينية ليس فيها ما يفيد العرب منه فالتخلف هو السائد في أوروبا آنذاك والكنيسة مهيمنة على كل مرافق الثقافة وفيها فقط تؤلف الكتب وتقرأ. لذلك لم يترجم العرب والمسلمون عن اللاتينية وإنما اخذوا عن اليونانية وهي لغة الدولة البيزنطية ويعلل ابن صاعد الأندلسي السبب أن (الرومان) بعد المسيحية اضمحلت علوم الفلسفة لمحاربتها كونها وثنية لذلك لم يشتهر عنهم ذلك ولا عن اللغة اللاتينية[٤] .

---

[١] المرجع نفسه، ص٤٣٨

[٢] الواقدي ، محمد بن عمر ،ت ٢٠٧هـ،فتوح الشام، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م، ١ج، ص١٣٨، وسيشار إليه لاحقاً: الواقدي، فتوح الشام .

[٣] اليعقوبي ، تاريخ ، ١ج، ص١٧٩.

[٤] ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق ، ت ٣٨٠هـ،٩٩٠م ، الفهرست ، ط٢ ، ضبطه وشرحه وعلق عليه : يوسف علي القوبل ، وضع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ٢٠٠٢، ص٣٩٨، وسيشار إليه لاحقاً: ابن النديم، الفهرست .



ونجح البيزنطيون في حل المشكلة العربية على حدودهم الجنوبية حلا جذريا بنظام الأحلاف التي عقدوها مع القبائل الضاربة على مشارف بلاد الشام؛ لحراسة هذه البلاد من هجمات قد تنطلق من الجزيرة العربية، وقامت القبائل المعنية بدورٍ ناجح واقتصرت مهمة الفرق البيزنطية النظامية المتواجدة في قواعدٍ ثابتةٍ ومتفرقةٍ على الإشراف على تنقلات القبائل ومساعدتها في التصدي لغزوات البدو عند الحاجة، ونسي البيزنطيون بعد ذلك عرب الجزيرة وأنهم قد يشكلون خطرا عليهم في المستقبل[1].

والحقيقة أن الإمبراطور البيزنطي هرقل لم يدرك مدى خطورة الوضع على جبهته الجنوبية بعد تنامي قوة المسلمين حتى رأى نفسه يواجه -فجأة- زحفهم باتجاه بلاد الشام، ولم تنفع تدابيره التي اتخذها على عجلٍ في وقفهم؛ حيث كان من الصعب تجريد الحدود مع فارس في الشرق والصقالبة والآفار في الغرب -المعرضة للخطر- من الجنود ونقلهم للدفاع عن بلاد الشام في ظل محدودية نقلهم واختيار مواقعهم، وكانت أي محاولةٍ لتدريب السكان المدنيين في هذه البلاد وتسليحهم قضية معقدة وبطيئة، ولا يمكنها أن تواجه التهديدات الخارجية المفاجئة والعنيفة، ويعد المدى الذي يمكن للقوات النظامية أن تتكيف فيه مع الأوضاع الطبيعية والمناخية قضية أخرى ورأى هرقل أن أفضل وسيلة للدفاع عن بلاد الشام في القرن السابع تكمن في:

- تجنيد البدو العرب المقيمين على أطراف الإمبراطورية خاصة أنهم يتمتعون بصفةٍ إضافيةٍ هي معرفة طبيعة الأرض ومناخها بالإضافة إلى أساليب القتال. وتبنى النظرية القائلة إن خير وسيلة لقتال العرب هي استخدام عربٍ آخرين إزائهم، لذلك كان من الضروري لبيزنطة أن تحتفظ بصداقة بعض القبائل وتنويع صلاتها بالعرب.

- تجنيد الأرمن؛ والمعروف أن عديد الجيش البيزنطي النظامي في بلاد الشام لم يكن كبير الحجم، ولا يمكن للإدارة العسكرية البيزنطية توفير أكثر من عشرين ألف جندي للدفاع عن هذه البلاد في ظل الأخطار التي تتعرض لها الولايات الأخرى في آسيا وأوروبا ومصر، ولا يمكن الحصول على جنودٍ منها، ولم يكن ثمة مجال في البحث عن قوى عسكرية لبلاد الشام سوى أرمينية القريبة التي يمكن الاعتماد عليها[2].

أوضاع القبائل العربية في الإمبراطورية البيزنطية:

حصلت هجرات كثيرة إلى بلاد الشام من العراق أو الجزيرة، وتوزع المهاجرون في المناطق الخصبة، فقامت الدولة العمورية في المناطق الشمالية وقامت الدولة الفينيقية على سواحل البحر المتوسط، والدولة الكنعانية في فلسطين وما حولها.

كانت العرب تختلف إلى الشام قبل الإسلام بقرون طويلة، قامت لهم فيها وفي جوارها دول عظيمة خلقت من آثارها مما دل على عظمتها، فمنها دولة النبط ويغلب في أسماء ملوك النبطيين اسم الحارث وعبادة ومالك وهم عرب من بقايا العمالقة، والعمالقة قوم من عاد وهم القوم الجبارون في الشام. ولم تخلف البتراء غير تدمر وأصل ملوكها من سلالة عربية أيضا. وقد أبقت هاتان الدولتان من أصولهما وحاميتهما جندا كثيرا أصبحوا بعد من جملة سكان الشام والمادة الأولى للعربية فيه. قال نالينو: النبط أو النبيط في اصطلاح العرب في القرون الأولى للهجرة اسم أهل الحضر المتكلمين باللغات الآرامية الساكنين في الشام وخصوصا في الصقع الواقع ما بين النهرين، وليسوا النبط أو الأنباط الذين اتسعت مملكتهم في أرض الحجاز الشمالية إلى حدود فلسطين ونواحي دمشق.

---

[1] الواقدي، محمد بن عمر: مغازي الواقدي، كلكشة، ١٨٥٥م، ص ٣، ١٠، ١٥ ، وسيشار إليه لاحقاً: الواقدي، مغازي الواقدي .

[2] العريني، تاريخ الدولة البيزنطية، ص ١٢٠ .



وقد ذكر المؤرخون أن نزول العرب في ديار الشام أقدم من ذلك بقرون فإن تكلت فلاسر أحد ملوك أشور غزا الشام مرارا من سنة ٧٤٣ إلى ٧٣٢ ق. م. وأخضع في خلال ذلك السامرة ودمشق وصور وحماة وعرب البادية بين فلسطين ومصر وكانت عليهم يومئذ ملكة اسمها حبيبة·

وقيل: "إن أول من دخل الشام من العرب سليح وهو من غسان - وغسان ماء نزل عليه قوم من الأزد بين رمع وزبيد في اليمن فنسبوا إليه - ويقال من قضاعة فدانت بالنصرانية وملك عليها ملك الروم رجلا منهم يقال له النعمان بن عمرو بن مالك فلما خرج عمرو بن عامر مزيقيا من اليمن في ولده وقرابته ومن تبعه من الأزد أتوا أرض عك في اليمن ثم أرض الحجاز وصار منهم قوم إلى الشام، منهم آل جفنة ملوك الشام فكتب سليح إلى قيصر يستأذنه في إنزالهم فأذن لهم على شروط شرطها عليهم.

كانت الامبراطورية البيزنطية بمثابة خط الدفاع الامامي المنيع لأوروبا في الشرق ضد الهجمات التي تعرض لها الاوربيون من جانب العناصر الشرقية الاسيوية، فقد لعب الامبراطور البيزنطي هرقل (٦١٠ - ٦٤١) دورا هاما في ايقاف تقدم الفرس وسحق قوتهم العسكرية في نهاية الامر.

الضجاعمة:

سار الضجاعم إلى برية الشام ودوس إلى برية العراق. قال: وأما بنو العبيد بن الأبرص بن عمرو بن أشجع بن سليح؛ فتوارثوا الملك بالحضر الذي آثاره باقية في برية سنجار، والمشهور منهم الضيزن بن معاوية بن العبيد المعروف عند الجرامقة بالساطرون وقصته مع سابور معروفة، ثم استحالت صبغة الرئاسة عن العرب لحمير وصارت إلى كهلان إلى بلاد الحجاز، ولما فصلت الأزد من اليمن كان نزولهم ببلاد عك ما بين زبيد وزمع؛ فحاربوهم وقتلوا ملك عك قتله ثعلبة بن عمرو مزيقياء. قال بعض أهل اليمن، عك بن عدنان بن عبد الله بن أدد. قال الدار الدارقطني: عك بن عبد الله بن عدثان بالثاء المثلثة وضم العين ولا خلاف أنه بنونين كما لم يختلف في دوس بن عدثان قبيلة من الأزد أنه بالثاء المثلثة. ثم نزلوا بالظهران وقاتلوا جرهم بمكة، ثم افترقوا في البلاد فنزل بنو نصر بن الأزد الشراة وعمان ونزل بنو ثعلبة بن عمرو مزيقياء بيثرب وأقام بنو حارثة بن عمر وبمر الظهران بمكة وهم يقال لهم خزاعة·

وقال المسعودي: "سار عمرو مزيقياء حتى إذا كان الشراة بمكة أقام هنالك بنو نصر بن الأزد وعمران الكاهن، وعدي بن حارثة بن عمرو بالأزد حتى نزلوا بين بلاد الأشعريين وعك على ماء يقال له غسان بين واديين يقال لهما زبيد وزمع فشربوا من ذلك الماء فسموا غسان، وكانت بينهم وبين معد حروب إلى أن ظفرت بهم معد فأخرجوهم إلى الشراة وهو جبل الأزد الذين هم به وهم على تخوم الشام ما بينه وبين الجبال مما يلي أعمال دمشق والأردن.

قال ابن الكلبي: ولد عمرو بن عامر مزيقياء جفنة ومنه الملوك والحرث وهو محرق أول من عاقب بالنار، وثعلبة وهو العنقا، وحارثة وأبا حارثة ومالكا وكعبا ووداعة وهو في همدان وعوفا ودهل وائل ودفع ذهل إلى نجران ومنه أسقف عبيدة وذهلا وقيسا درج هؤلاء الثالثة وعمران بن عمرو فلم يشرب ابو حارثة ولا عمران ولا وائل ماء غسان فليس يقال لهم غسان. وبقي من أولاد مزيقياء ستة شربوا منه فهم غسان وهم: جفنة وحارثة وثعلبة ومالك وكعب وعوف، ويقال إن ثعلبة وعوفا لم يشربا منه، ولما نزلت غسان الشام جاوروا الضجاعم وقومهم من سليح ورئيس غسان يومئذ ثعلبة بن عمرو بن المجالة بن الحرث بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد، ورئيس الضجاعم يومئذ داود اللثق بن هبولة بن عمرو بن عوف بن ضجعم[1].

---

[1] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص٣٣٤ ،



كانت الضجاعم ملوكاً على العرب عمالا للروم ، يجمعون ممن نزل بساحتهم لقيصر، فغلبتهم غسان على ما بأيديهم من رياسة العرب لما كانت صبغة رياستهم الحميرية قد استحالت وعادت إلى كهلان وبطونها وعرفت الرئاسة منها باليمن قبل فصولهم، وربما كانوا أولى عدة وقوة، وإنما العزة للكاثر وكانت غسان لأول نزولها بالشام طالبها ملوك الضجاعم بالإتاوة فمانعتهم غسان؛ فاقتتلوا فكانت الدائرة على غسان، وأقرت بالصغار وأدت الإتاوة حتى نشأ جذع بن عمرو[1]بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن المجالد بن الحرث بن عمرو بن عدي بن عمرو بن مازن بن الأزد، ورجال سليح من ولد رئيسهم داود اللثق وهو سبطة بن المنذر بن داود ويقال بل قتلة. فالتقوا فغلبتهم غسان وأقادتهم وتفردوا بملك الشام وذلك عند فساد كان بين الروم وفارس؛ فخاف ملك الروم أن يعينوا عليه فارسا، فكتب إليهم واستدناهم ورئيسهم يومئذ ثعلبة بن عمرو أخو جذع بن عمرو، وكتبوا بينهم الكتاب على أنه إن دهمهم أمر من العرب أمدهم بأربعين ألفا من الروم وإن دهمه أمر أمدته غسان بعشرين ألفاً، وثبت ملكهم على ذلك وتوارثوه. أول من ملك منهم ثعلبة بن عمرو فلم يزل ملكها إلى أن هلك وولي مكانه منهم ثعلبة بن عمرو مزيقياء[2].

ويزعم الأخباريون أن الغساسنة حين قدموا إلى منطقة حوران والجولان وجدوا أن قبائل أخرى تسكنها وتعرف باسم الضجاعمة الذين أرجعهم النسابون إلى سليح بن حلوان من قضاعة. والمعلومات عن الضجاعمة غير متوفرة للمؤرخين، ويروي النسابون روايات مضطربة عن الذين تزعموهم .يقول الأخباريون : إن الحكم الذي أقامه الغساسنة في جهات الشام لم يأتهم عفوا وبطريق سهل، إنما أخذوه بالقوة والحرب. فلما نزلوا المنطقة إلى جوار سليح ضربت هذه عليهم الأتاوة لحساب الروم، وكان يتزعم الغساسنة آنذاك كبيرهم ثعلبة بن عمرو، فتحايل أخوه جذع على كبير سليح واغتاله، فوقعت الحرب بين القبيلتين، وكانت الغلبة للغساسنة وصار الملك إليهم. ويورد الأخباريون هذه القصة تفسيرا لأصل المثل القائل: "خذ من جذع ما أعطاك". ويظهر أن الأخبار المروية عن فتك الغساسنة بالضجاعة مبالغ فيه؛ ذلك أنهم وإن فقدوا ملكهم، فإنهم لم يرتحلوا عن المنطقة، لا بل يروى أنهم أسهموا في مقاومة خالد بن الوليد في دومة الجندل، عندما تصدى المسلمون لفتح الشام.[3] .

كما يروي الأخباريون أن الروم كانوا يفرضون نفوذهم على الضجاعمة، وأنهم قد أنابوهم عنهم في جمع الإتاوات من السكان، فلما ظهر الغساسنة عليهم وثقوا بقوتهم واستمالوهم ووطدوا صلاتهم بهم، واعترفوا لهم بالرئاسة على العرب في بلاد الشام ومدوهم بالمعونة، واتخذوا منهم مجنا يتقون به غزوات الأعراب التي كانت غالبا ما كانت تغير على مراكز الحضارة البيزنطية، كما اتخذوا منهم حلفاء ضد أعدائهم الفرس في الشرق، وهكذا أصبح الغساسنة دولة تابعة للروم البيزنطيين[4] .

---

(1) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ص٣٣٥ ،

(2) كمال ، السياسة الشرقية ، دار المطبوعات الشرقية ، بيرورت . د.ت .. وسيشار اليه ، كمال ، السياسة الشرقية ، ص ٤٤ ..

(٣) برو، توفيق ، تاريخ العرب القديم ، دار الفكر، ٢٠٠١م ، ص١٤٢ ، وسيشار إليه لاحقاً ، برو ، تاريخ العرب ، العلي، المفصل ، ج٤، ١٢٣،١٢٤ . خريسات، محمد، "دور غسان في الحياة العامة في صدر الإسلام"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مج١، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان، تشرين الأول ٢١٧، ١٩٨٧، ١٩٨٧،ص ٢٥، وسيشار إليه لاحقاً : خريسات، دور غسان .

(4) جواد، المفصل، ج ٤، ١٢٣،١٢٤ . خريسات، محمد، "دور غسان في الحياة العامة في صدر الإسلام".ص ٢٦ .



الغساسنة:

تؤكد الروايات أنه حوالي نفس الوقت الذي كانت فيه الدولة "التدمرية" آخذة بالزوال كانت إحدى القبائل العربية تشق طريقها إلى "حوران" وهؤلاء هم "بنو غسان" الذين ينسب سبب رحيلهم عن اليمن إلى تصدع قديم في "سد مأرب" وتنصر "الغساسنة" خلال القرن الرابع(١) .

وبنو غسان في الحقيقة حي من الأزد على رواية المسعودي من القحطانية قال أبو عبيد: وهم بنو جفنة والحارث وهو ثعلبة والعنقاء وحارثة ومالك وكعب وخارجة وعون بن عمرو بن مزيقيا. وذكر الحمداني أن في البلقاء طائفة منهم وباليرموك الجم الغفير وبحمص منهم جماعة. وحكم ملوك غسان حوران والبلقاء والغوطة وحمص ودمشق. قال المسعودي: " كانت ديار ملوك غسان باليرموك والجولان وغيرهما بين غوطة دمشق وأعمالها، ومنهم من نزل الأردن وقد أخرجت غسان من الشام سلحا وصاروا ملوكها، وأول من ملك جفنة بن عمرو فقتل ملوك قضاعة من سليح الذين كانوا يدعون الضجاعمة أو الضجاعم ودانت له قضاعة ومن بالشام من الروم وجميع ملوك جفنة من آل غسان اثنان وثلاثون ملكا لبثوا في ملكهم ستمائة وست عشرة سنة وقيل أربعمائة سنة"(٢).

وبلغت الإمارة الغسانية في عهده ذروة اتساعها، فقد امتدت من قرب البتراء إلى الرصافة شمال تدمر، واشتملت على البلقاء والصفا وحوران، وأصبحت بصري التي بنيت كاتدرائيتها سنة ٥١٢ م العاصمة الدينية في المنطقة، كما اشتهرت بكونها مركزا تجاريا نشطا. ولما كان الحارث من أتباع القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح "المنوفستية" فقد استطاع في أثناء إقامته في القسطنطينية أن يقنع الإمبراطور بإسناد أسقفيات المقاطعات السورية إلى رؤساء هذه الطائفة، بالرغم من مخالفتها لمذهب الدولة الرسمي. ويقال: إن عدد الأساقفة الذين عينوا لهذه الأسقفيات بلغ تسعة وثمانين، فانتشرت العقيدة الجديدة في سورية في أثناء حكمه وحكم ابنه على نطاق واسع والحارث هذا هو الملك الذي روي أن امرأ القيس الشاعر الكندي قد لجأ إليه؛ كي يتوسط لدى الإمبراطور البيزنطي ليعاونه على قتلة أبيه. وهو أيضا صاحب القصة المشهورة عن وفاء السموأل بن عادياء الذي أودع امرؤ القيس لديه دروعه، فأصر على رفض تسليمها لمندوبي الملك ولو كلفه ذلك قتل ولده(٣).

وكان متطرفاً في تأييد مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح، وقد حدث جفاء بينه وبين البيزنطيين بسبب ذلك، إذ ارتاب الإمبراطور جوستين "ابن أخي جوستنيان وخليفته" بولاء المنذر؛ نظراً لتعصبه الشديد لمذهبه، فكتب رسالة إلى حاكم سورية البيزنطي يأمره فيها بالتخلص منه. لكن كاتب الإمبراطور أرسلها خطأ إلى المنذر بدلا من الرسالة الموجهة إليه بدعوته إلى زيارة الحاكم للتشاور؛ فحصل الجفاء، وقطع الإمبراطور عنه الإمدادات مدة ثلاث سنوات متعاقبة؛ فتمرد وغادر أرض الروم إلى البادية، الأمر الذي أطمع المناذرة بسورية فهاجموها وأمعنوا في غزوهم لها، وأوقعوا الرعب في قلوب أهلها، مما حمل الروم على مصالحة المنذر، والتودد إليه لاسترضائه فعقد الصلح بين الطرفين في مدينة الرصافة سنة ٥٧٨م؛ فعاد المنذر إلى عرشه وتصدى لحرب المناذرة وانتصر عليهم، وتمكن من بلوغ عاصمتهم الحيرة وأحرقها وكان ذلك في عام ٥٨٠م(٤).

---

(١) الفيومي، الفكر الديني الجاهلي ، ص ٢١ .
(٢) علي، خطط الشام ، ص ٢٢ .
(٣) كمال، السياسة الشرقية، ص ٤٥ .
(٤) رمضان، عبد العزيز، سياسة بيزنطة التنصيرية تجاه العناصر العربية، مركز البحوث، جامعة القاهرة، ص ٤، ١١ ، وسيشار إليه لاحقاً : رمضان، سياسة بيزنطة .



وزار المنذر وولدان له العاصمة البيزنطية في العام نفسه، فاستقبله الإمبراطور الجديد "تيبريوس" الثاني بحفاوة عظيمة، وأنعم عليه بالتاج بينما لم يكن لأسلافه سوى الإكليل يضعونه على رءوسهم١. وانتهز المنذر فرصة وجوده في العاصمة لإقناع رجال القصر بالتسامح مع أتباع الطبيعة الواحدة والصفح عنهم[١]، ومن المحتمل أن يكون قد عقد مجمعا هناك لتعزيز مذهبه، واتصل بالبطاركة للتوفيق بين رجال الكنيستين، لكن مساعيه خابت بالرغم من إبداء البطاركة رغبتهم وعدم ممانعتهم في ذلك. لكن الوفاق لم يلبث أن انقلب إلى جفاء مرة ثانية، عندما تمادى المنذر في مساعيه الهادفة إلى إعلاء شأن مذهبه، الأمر الذي أوغر عليه صدر الكهنوت الرسمي للدولة؛ فحرض رجاله الإمبراطور عليه، سيما قد رافق ذلك إسهامه مع حاكم سورية البيزنطي في هجوم على الفرس، حيث أحجم الحاكم عن متابعة السير عند رؤيته أن الجسر القائم على نهر الفرات، والذي يؤدي إلى الأراضي الفارسية مهدم؛ فعاد أدراجه إلى الشام، وكتب إلى القسطنطينية كتاباً يدفع فيه عن نفسه مسئولية الإخفاق والخيبة، ويتهم المنذر بالخيانة، وبأن له صلات سرية مع الفرس، وأنه قد أخبرهم بقيام الحملة، وأوعز إليهم بهدم الجسر ليكتب لها الإخفاق. وزاد الأمر سوءا أن المنذر بعد أن عاد إلى الشام جهز جيشاً سار به إلى الحيرة، فغزاها وألحق بها أضراراً جسيمة، ولم يغادرها إلا وهي شعلة من نار، خلافا لمقتضيات الهدنة بين الإمبراطوريتين. فاتخذ الروم من هذه الأعمال جميعها دليلا على تحديه لهم؛ فأصدر الإمبراطور أمراً سرياً إلى عامله الجديد في الشام - وكان صديقاً للمنذر- بأن يحتال للقبض عليه؛ فدعاه لحضور حفلة تدشين كنيسة جديدة بنيت في حوران[٢]، وما أن أطل عليها حتى ألقي القبض عليه، وأرسله إلى العاصمة مع زوجته وثلاثة من أولاده، فوضعوا جميعا في الأسر، ثم جرى نفيهم إلى صقلية حيث قضى المنذر نحبه بعد حين[٣].

قطع البيزنطيون بعد ذلك ونهائيا الإعانة المالية وسواها من الإعانات التي كانوا يدفعونها للغساسنة؛ فما كان من أولاد المنذر، وعلى رأسهم ابنه الأكبر النعمان، إلا أن غادروا ديارهم وأعلنوا الثورة، فاتخذوا البادية منطلقا لسلسلة من الغارات، شنوها على أراضي البيزنطيين في الشام ينهبون ويدمرون. وقد استولوا على بلدة حوارين وقتلوا بعض أهلها، وأسروا آخرين منهم، وعادوا بكثير من الغنائم. ولم يسع القيصر إلا الإيعاز لحاكمه على الشام بتجهيز حملة إليهم. فلما رأى الحاكم صعوبة مهاجمتهم في البادية، ولجأ إلى المكر والحيلة؛ فتمكن من إلقاء القبض على النعمان، وأرسله أسيرا إلى القسطنطينية "٥٨٤م" عندئذٍ تجزأت المملكة إلى أقسام متعددة يرأس كلا منها أمير، وتحالف بعضهم مع دولة الفرس، وبقي بعضهم الآخر بجانب بيزنطة. والواقع أن تاريخ الغساسنة في هذه الفترة يبدو على شيء من الغموض والاضطراب . أما الفوضى فقد بقيت سائدة مدة من الزمن؛ الأمر الذي شجع الفرس على مهاجمة سورية بين ٦١١-٦١٤م إذ استولوا على دمشق والقدس، ولم يستطع هرقل أن يستردهما إلا بجهد عظيم "٦٢٩م" إذ استولوا على دمشق والقدس، ولم يستطع هرقل أن يستردهما إلا بجهد عظيم "٦٢٩ م". وربما يكون الروم قد أدركوا قيمة تحالفهم مع الغساسنة، فأعادوهم إلى إمارتهم؛ إذ جاء في أخبار الفتوح العربية لبلاد الشام أنهم واجهوا من قبل الغساسنة مقاومة؛ إذ حارب هؤلاء العرب الفاتحين في جانب البيزنطيين[٤] .

---

[١] حتي: تاريخ سورية ولبنان، ١ج، ص٤٤٩، جواد، المفصل، ج ٤، ص ١٣٥.

[٢] حتي: تاريخ سورية ولبنان، ١، ٤٤٩، العلي ، المفصل، ج ٤، ١٣٥.

[٣] ربيع، دراسات ، ص ٧٨ ، ٨٣ .

[٤] جواد، المفصل، ج ٤، ص ١٣٩: حتى ، فليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ، ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٥٨م، ج١، ص٤٥٠. وسيشار اليه : فيليب ، تاريخ سورية ، الواقدي، المغازي، ج٣، ص١٠١٨ ؛ خريسات، دور العرب المتنصرة، ص١٤٨. لمعرفة المزيد عن موقف الغساسنة من الفتح الإسلامي. انظر: خريسات، دور غسان في الحياة العامة، ص١١٧.

وكان مؤسس سلالتهم شخص يسمى: "جفنة بن عمرو مزيقياء" الذي لا يعرف تاريخه بوجه التأكيد، وفي التواريخ العربية يختلف عدد الملوك بين أحد عشر، واثنين وثلاثين. ويسمى الغساسنة أيضا بآل "جفنة" أو بأولاد جفنة وذلك لأن: أول ملوكهم هو: "جفنة بن عمرو مزيقيا بن عامر"، ويفسر الإخباريون سبب تسمية عمرو بن عامر بـ: "مزيقياء" بتفاسير عدة: منها "قول حمزة الأصفهاني": وتزعم الأزد أن عمراً إنما سمي مزيقياء ؛ لأنه: كان "يمزق كل يوم من سني ملكه نميرة فسمي هو مزيقيا" وسمي ولده "المزاقية" وقيل: إنما سمى "مزيقيا"؛ لأن الأزد تمزقت على عهد كل ممزق، عندما تهدم سيل العرم.

وكانوا من عرب اليمن الهاجرة بعد انهيار سد مأرب - مثل مناذرة الحيرة - وقد استقروا ببادية الشام، فأصبحوا تابعين للروم يحمونها من هجمات العرب، وكان الحكم في البداية لقبيلة (الضجاعمة) وأشهر ملوكهم: زياد بن الهيولة كما أشرنا سابقا في حديثنا عن الضجاعمة. ثم حكمت قبيلة بني جفنة واتخذوا دمشق عاصمة لهم، ومن أشهر ملوكهم: الحارث بن جبلة، والمنذر بن الحارث، وجبلة بن الأيهم، وهو آخر ملوك الغساسنة، وفي عهده دخل المسلمون بلاد الشام، ويقال إن جبلة أسلم ثم ارتد وهرب إلى الروم في عهد عمر بن الخطاب.

كان "الحارث بن جبلة -حوالي ٥٢٦-٥٦٩" أول هؤلاء الملوك، وأعظمهم الذي يظهر لأول مرة عام ٥٢٨، وهو يحارب "المنذر" الثالث اللخمي ملك الحيرة. واللخميون أصلهم أيضا من جنوب الجزيرة العربية كانوا يسكنون على طول الحدود الغربية للإمبراطورية الفارسية، واستخدموا كدولة حاجزة بنفس الطريق التي استخدم البيزنطيون بها الغساسنة، واعترافاً بخدمات "الحارث" فقد عينه الإمبراطور "يونستنيان" في العام التالي سيداً على كل القبائل العربية في سورية، ومنحه لقب "فيلارك" رئيس قبيلة وبطريق.

ولقب الحارث بن جبلة بلقب "الأعرج" وهو الذي حارب المنذر الثالث بن ماء السماء ملك الحيرة وقتله في موقعه عين أباغ "يوم حليمة" وأبلى بلاء حسنا في قتال الفرس؛ فمنحه الإمبراطور جوستنيان لقب "بطريق" وهو يعني قائد عشرة آلاف في الجيش البيزنطي، ولقب "فيلارك" ويعني رئيس قبيلة، وقد ترجم العرب هذه الألقاب بمعنى "ملك" ويفسر بعض المؤرخين ذلك بأن ربما اعتبر ملوك الغساسنة أنفسهم خلفاء لملوك الأنباط. وقد قدم الحارث للبيزنطيين خدمات جلى، إذ رفعه ولاؤه للعرش البيزنطي إلى قتال المناذرة، وأسهم في إخماد فتنة قامت ضد الإمبراطورية في السامرة في فلسطين، وحارب في الجيش البيزنطي الذي زحف إلى العاصمة الفارسية بقيادة القائد "بليزاريوس" لكنه آثر الانفصال عن الجيش البيزنطي، والعودة إلى مراكز إمارته

وفي عام ٥٤٤ أسر "المنذر" أحد أبناء "الحارث" وقدمه ضحية للآلهة "العزى" التي تقابل "أفروديت"، وانتقم "الحارث" لنفسه بعد عشر سنوات في معركة حاسمة جرت قرب "قنسرين" حين قتل غريمه اللخمي أهم دور لعبته هاتان الملكتان هو أنهما كانتا جسرا عبرت عليه ألوان من حضارة الفرس والروم إلى الجزيرة العربية.

أما في الشمال فقد نزل التنوخيون قبل الإسلام بقرون، وسموا تنوخيين لأنهم حلفوا على المقام بالشام، والتنخ والتنوخ المقام، كانوا قبائل تتاخم منازلها مملكة الروم، فلما غزا ملك الفرس الروم، وأذرع فيهم القتل والسبي وخرب العمائر، أنفذ ملك الروم إلى تنوخ يستنجدهم، على ملك الفرس فأنجدوه، وقاتلوا معه قتالاً شديداً، ثم سألوا ملك الروم أن يتولوا حرب الفرس منفردين عن جند الروم لتظهر له طاعتهم وغناؤهم فأجابهم إلى ذلك فقاتلوا الفرس وظفروا بهم؛ فأعجب بهم ملك الروم وفرق فيهم الدنانير والثياب وقربهم وأدناهم وأقطعهم سورية وما جاورها من الأصقاع إلى الجزيرة. وسورية مدينة بقرب الأحص على جانب البرية. قال ابن العديم: هذا منتهى أمرهم في الجاهلية.



ولم يعرف الزمن الذي كان فيه التنوخيون، وبعضهم يقول: إنهم كانوا في أواخر القرن الثالث للمسيح ويقول المسعودي: إن قضاعة بن مالك بن حمير أول من نزل الشام وانضافوا إلى ملوك الروم فملكوهم، بعد أن دخلوا في دين النصرانية، على من حوى الشام من العرب، فكان أول ملوك تنوخ النعمان بن عمرو بن مالك، ثم ملك بعده عمرو بن النعمان ابن عمرو، ثم ملك بعده الحواري بن النعمان ولم يملك من تنوخ غيرهم. ثم وردت سليح الشام فتغلبت على تنوخ وتنصرت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام. قال: وغلبت غسان على من بالشام من العرب؛ فملكها الروم على العرب وإن من ملكته الروم من اليمن بالشام تنوخ والضجاعم من سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة وغسان استكفاء بهم من يليهم من بادية العرب[1] .

قام النعمان بن عمرو في عام ٥٦٣م بزيارة لبلاط "بوستنيان[٢]"، حيث ترك تأثيرا عميقاً على أفراد الحاشية كشيخ بدوي مهيب، وحصل أثناء وجوده في القسطنطينية على تعيين "يعقوب البرادعي" أسقاف على الكنيسة المونوفيزية السورية؛ وقد انتشرت العقيدة الجديدة في سورية كلها أثناء حكمه وحكم إبنه، ويقال: إن يعقوب البرادعي رسم مائة ألف كاهن، ونصب تسعة وثمانين أسقفا في تلك البلاد، ووصلت المملكة حينذاك ذروة اتساعها؛ وإذا كانت تمتد قرب "البترا" إلى "الرصافة" شمال "تدمر"، وتشتمل على "البلقاء" والصفا وحوران، ولكن حماسته للمذهب الذي تعتبره بيزنطة غير متفق مع الديانة الرسمية باعدت بينه وبين "بوستين" الذي بلغ منه أن ارتاب في ولائه السياسي، وبذلك توطد هذا المذهب في سورية، ويرى بعض المؤرخين أن مدة حكمهم نحو ستمائة سنة، وعدد ملوكهم ٣٢ ملكاً؛ أي من أوائل القرن الميلادي إلى ظهور الإسلام.[3]

وانتشرت بعض القبائل العربية في مناطق الحدود الفاصلة بين الجزيرة العربية وبلاد الشام مشكلة سداً استغلته بيزنطة لصد غارات البدو على المناطق الزراعية؛ فقد سكن بنو عذرة وبنو سعد هزيم على الطريق الممتد من شمال الحجاز إلى بلاد الشام، وامتد بعض أفخاذهم وبطونهم إلى وادي القرى[4] في الشمال، واتصلوا بالمسلمين في أواخر حياة النبي صلى الله عليه وسلم، واعتنق بعض بني عذرة الإسلام قبل غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة[5].

سكنت إراشة وهي فرع من بلي في منطقة البلقاء في الشمال فجاورت البيزنطيين وأقامت حلفا معهم، وأسهمت في قتال المسلمين في معركة مؤتة[6]، فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم سرية بقيادة عمرو بن العاص رضي الله عنه فقاتلهم وفرقهم، وهي الغزوة التي عرفت بذات السلاسل[7]، اضطرت بعدها إراشة إلى الدخول في الإسلام، ثم ارتدت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[8].

---

[1] كرد ، خطط الشام ، ص٢٣.
[2] ملك الروم ، الحموي ، معجم ، ج١ ، ص ٧٩٦.
[3] الفيومي، كتاب تاريخ ، ص ١٢٢ .
[4] وادي القرى: واد بين المدينة والشام من أعمال المدينة كثير القرى. الحموي، البلدان ، ج٥، ص ٣٤٥.
[5] تذكر روايات المصادر أن أحد قادة المسلمين في معركة مؤتة كان رجلًا من بني عذرة يقال له قحطبة بن قتادة. انظر: سيرة ابن هشام: ٤،٧٢. وتبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو بين الحجر وأول الشام. المصدر نفسه، ٢،١٤. عباس، تاريخ بلاد الشام، ص١٤٤؛ عاقل، نبيه، "موقف سكان بلاد الشام من الفتح"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مج٣، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان، ١٦،٢٢ آذار ١٩٨٥م، ١٩٨٧م، ص١٥٨. وسيشار اليه ، عاقل ، موقف سكان
[6] مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: مؤتة من مشارف الشام. المصدر نفسه: ٥،٢١٩، ٢٢٠.
[7] ابن هشام، السيرة ، ج٤، ص٢٣٩.
[8] تتحدث المصادر من غارة قام بها عمرو بن العاص أثناء حروب الردة على بلي وبعض القبائل الأخرى. الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣، ص٣٠٥ .



أشارت روايات المصادر إلى نزول لخم بين مدين[1] وتبوك امتدادا إلى أذرح[2]، وانتشر اللخميون في المنطقة الواقعة غرب البحر الميت ونهر الأردن ، وسكنت قبيلة جذام في المنطقة الممتدة من تبوك إلى شرق وادي عربة والبحر الميت حتى منطقة البلقاء حول عمان[3]، فتداخلت مع سكن بعض فروع لخم، شكلت هاتان القبيلتان جزءا من التحالف القبلي الخاضع لبيزنطة الذي حارب المسلمين في معركة مؤتة، وكانت غزوة تبوك ردا على تحرك القبائل العربية والبيزنطيين باتجاه المناطق الجنوبية[4] ويبدو أن بعض بطون لخم هالهم قيام تحالفٍ قبلي - بيزنطي موجهٍ ضد إخوانٍ لهم من العرب، فأسلم نفرٌ منهم في السنة التاسعة للهجرة ، واعتزلت حدس -وهي إحدى بطون لخم- القتال في مؤتة، لكن هذين الحدثين لا يكفيان لإقامة الدليل على قيام علاقاتٍ طيبةٍ بين المسلمين وقبيلة لخم[5].

وأغرى تعاظم قوة المسلمين بعد فتح مكة بعض الجذاميين فاعتنقوا الإسلام وأقاموا علاقاتٍ طيبة مع المسلمين، مثل: فروة بن عمرو الجذامي حاكم معان[6] من قبل بيزنطة[7] وساند بنو الضبيب -وهم رهط من جذام اعتنقوا الإسلام- زيدا بن حارثة عندما هاجم الجذاميين الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي رضي الله عنه مبعوث النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل[8].

نزلت قبيلة القين - بلقين- في المنطقة الواقعة شرق ديار لخم وجذام؛ أي في المنطقة الممتدة من وادي ثجر شمال تيماء بمحاذاة وادي السرحان، وباتجاه الشمال إلى تخوم حوران، وجاورت بلاد بلي وعذرة، وكان بنو القين من ضمن التحالف القبلي الذي حارب المسلمين في معركة مؤتة ويبدو أن جماعة منهم اعتنقت الإسلام قبل وفاة النبي صلى الله عليه وسلم في السنة الحادية عشرة للهجرة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم ولى عليهم عمرو بن الحكم رضي الله عنه.

فرض الغساسنة وجودهم في مناطق حوران وشرق الأردن وبعض فلسطين، بعد أن تغلبوا على بني سليح الضجاعمة وكلاء البيزنطيين، وشعر البيزنطيون بمدى قوتهم، فخشوا أن ينضموا إلى الفرس فاستقطبوهم وأحلوهم محل السليحيين، وعقدوا معهم حلفا دفاعيا هجوميا موجها ضد غارات البدو وهجمات اللخميين، وقام الغساسنة بتنفيذ الدور الذي حددته لهم بيزنطة على الرغم من أن الطرفين كانا على خلافٍ مذهبي فإن ذلك لم يؤثر على العلاقة السياسية بينهما، وتمتع أمراء الغساسنة بلقب فيلارك الذي أضفاه عليهم الأباطرة البيزنطيون.

شكل الغساسنة عماد التجمع القبلي اللخمي والجذامي المعادي للمسلمين في غزوة تبوك، وقد رفض الحارث بن أبي شمر الغساني دعوة النبي صلى الله عليه وسلم إلى اعتناق الإسلام، واستمر في تحالفه مع البيزنطيين، والراجح أنه كان يخشى خطر التمدد الإسلامي باتجاه الشمال على وضع القبيلة الديني والسياسي وعلاقتها ببيزنطة[9].

---

(1) مدين: قرية تجاه تبوك بين المدينة والشام. الحموي ، معجم البلدان ، ٥،٧٧.

(2) أذرح: اسم بلد في أطراف الشام من أعمال الشراة ثم من نواحي البلقاء. المصدر نفسه: ١،١٢٩.

(3) حمارنة، صالح، دور جذام في الفتوح الإسلامية، دراسات تاريخية،١٩، ٢٢ منشورات وزارة السياحة والاثار. الاردنية. ،. عمان. ، ١٩٨٦م ، ١٩٨٦م، ص١٥١ وسيشار اليه ، حمارنة ، دور جذام .

(4) الواقدي، مغازي الواقدي، ٣،١٠١٥.

(5) الطبري، تاريخ الأمم، ج ٣،ص ٩٦.

(6) معان: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. الحموي، البلدان ، ج١، ص١٥٣ .

(7) ابن هشام، السيرة، ج ٤،٢١٦، ٢١٧.

(8) المصدر نفسه: ص٢٣٥، الطبري ، تاريخ الأمم، ج٣ ، ص ٢٤٣،٣٨٩.

(9) رمضان، المجتمع البيزنطي، ص ٩١، ٩٥ .



سكنت بعض جماعاتٍ من الغساسنة في الجنوب في تيماء والمدينة وقد تأثروا بالدعوة الإسلامية، وربما كان الوفد الغساني الذي قدم إلى المدينة في العام العاشر للهجرة ليبايع النبي صلى الله عليه وسلم هو من هذه الجماعات[١].

وجدت قبائل أخرى في بلاد الشام لكنها لم تكن على قدرٍ من القوة والمنعة والأهمية حتى تعيرها المصادر اهتماما، مثل تنوخ؛ وقد نزلت في أواسط بلاد الشام وشمالها على تخوم البادية الممتدة شمالاً حتى قنسرين وحلب، وقد ساند التنوخيون البيزنطيين في معركة مؤتة، وسكنت بهراء في أواسط وشرق بادية الشام، وامتدت ديارها حتى نهر الفرات، والراجح أنها كانت موالية لبيزنطة وأن فئة من رجالها حاربوا إلى جانب البيزنطيين في معركة مؤتة[٢].

اتخذت بلاد الشام منذ العام السادس للهجرة حيزاً بارزاً في سياسة النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم الخارجية، بعد أن حسم الوضع السياسي الداخلي في الحجاز لصالحه إثر صلح الحديبية وكان اهتمامه بتلك البلاد كهدفٍ حيوي:

- بوصفها أرضا عربية مثل الحجاز.

- إقامة مراكز إسلامية على الأطراف الشامية لنشر الدعوة بين القبائل العربية الوثنية منها والمتنصرة، واحتوائها تحت راية الدولة الإسلامية في المدينة أو عقد صلحٍ معها لتمتين النفوذ الإسلامي في تلك الربوع.

- فك تحالفها مع الدولة البيزنطية.

- السيطرة على طريق التجارة؛ إذ إن مضاربها تعد بمثابة معابر مهمة للتجارة بين بلاد الشام وأنحاء الجزيرة العربية في الوقت الذي وصلت فيه تجارة القوافل إلى ذروة النشاط والاستقرار.

وأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يراقب الوضع في تلك المناطق من خلال السرايا المبكرة التي كان يرسلها، والرسائل الموجهة إلى الإمبراطور البيزنطي هرقل والأمير الغساني شرحبيل بن عمرو وصاحب بصرى وسائر رؤساء القبائل العربية.

روت المصادر العربية الإسلامية سفارة الرسول (صل الله عليه وسلم) حملت كتاب النبي (صل الله عليه وسلم) إلى هرقل عظيم الروم؛ أي إمبراطور بيزنطة؛ وكان حينها في بلاد الشام بسوريه؛ وتاريخ هذه السفارة سنة (٦هـ / ٦٢٧م) بعد منصرف النبي (صل الله عليه وسلم) من الحديبية؛

وكان دحيه بن خليفة الكلبي سفير النبي (صل الله عليه وسلم) إلى هرقل قيصر الروم؛ ونسخة الكتاب: -

" بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد ٍ عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلامٌ على من أتبع الهدى، أما بعد: فأني أدعوك بدعاية الإسلام، أَسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسين ،و((يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا أربابا من دون ألله، فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون))[٣]"[٤].

---

[١] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص ١٣٠.

[٢] رمضان، المجتمع البيزنطي، ص ٩٩، ١٠١ .

[٣] سورة ال عمران ، الآية ٦٤.

[٤] البخاري ،محمد بن إسماعيل،٢٥٦هجرية، الجامع الصحيح ، ط٣، بيروت ، ١٩٨٧ ،جـ٢ ، ص٥.وسيشار اليه ، البخاري ، الجامع ، الطبري، تاريخ للرسل والملوك ، جـ ٣ ، ص٨٧. أبن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ ، ص٨١.كذلك ينظر:. الحلبي، علي برهان،ت١٠٤٤هـ، السيرة الحلبية من السيرة الأمين والمأمون ، دار المعرفة،بيروت ١٤٠٠هـ، ج٢، ص٣٦٦، ولزرعي محمد بن أبي أيوب أبو عبد الله ،ت



وورد نص هذا الكتاب في كتاب صبح الأعشى نصه:

من محمدٍ رسول الله إلى الإسلام، فإن أسلمت فلك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم، وإن لم تدخل في الإسلام، فأعط الجزية[1] ، فأن الله تعالى يقول: ـ ((قتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتب، حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون))[2]. وإلا فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام إن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية))[3] .

وبعد قراءة النصين لكتاب الرسول صلى الله وسلم إلى ملك أو إمبراطور الروم؛ نفهم من مضمون الكتاب عدة حقائق سياسية ودينيه؛ أولها اعتراف النبي صلى الله عليه وسلم بسلطة إمبراطور الروم، ودعوة الأخير للاعتراف بالإسلام دينا ودولة. ووسمه بتحية الإسلام؛ واستشهد نبي الرحمة بالآية القرآنية التي تدعو أهل الذمة من اليهود والنصارى للتقارب مع المسلمين الموحدين فالرابط المشترك بين هذه الأديان وحدانية الله والإخلاص في عبادته؛ وحمل النبي (صل الله عليه وسلم) الإمبراطور هرقل الإثم في حالة عدم الإيمان والاعتراف بالرسالة الإسلامية؛ وعلى عكس ذلك كسب الأجر مرتين.

سفارة الرسول (صل الله عليه وسلم) إلى الملك الحارث بن أبي شمر الغساني[4] ملك دمشق (٦هـ/٦٢٧م)

أرسل النبي محمد (صل الله عليه وسلم) شجاع بن وهب الاسدي سفيرا إلى الحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق وذلك سنة (٦هـ /٦٢٧م)؛ وبعث معه كتابا جاء فيه:

((بسم الله الرحمن الرحيم، من محمدٍ رسول الله إلى الحارث بن أبي شمر. سلامٌ على من أتبع الهدى وآمن بالله وصدق، وإني أدعوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك[5])).

وكانت رد فعل الحارث بن أبي شمر الغساني أزاء ذلك الكتاب والسفارة حسب ماروت لنا المصادر التاريخية سلبيا أنه رمى الكتاب وقال: ـ ((من ينزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه))[6].

٧٥١هـ، زاد المعاد في هدى خيرالعباد،تحقيق شعيب الارناؤط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦، جـ ١ ، ص ١١٩ ، وسيشار إليه لاحقاً : الزرعي، زاد المعاد ، الأندلسي ، الكلاعي، أبو ربيع سليمان بن موسى الأندلسي ،ت ٦٣٤هـ، الاكتفاء بما تضمنه مغازي رسول الله ،ص، والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين ،ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧، جـ٢ ،ص٣٧٩ ، وسيشار إليه لاحقاً : الأندلسي، الاكتفاء بما تضمنه مغازي الرسول، ، ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل ،ت ٧٧٤هـ ،السيرة النبوية ،دار المعرفة ،بيروت ،بلا ، جـ٢،ص٤٩٨، وسيشار إليه لاحقاً : ابن كثير، السيرة النبوية .

[1] الجزية :ضريبة قديمه شاعت بين الفرس والبيزنطيين : وكانت نقوداً تفرض بدل الخدمة العسكرية ؛ وفي عصر الرسول فرضت على غير المسلمين من أهل الذمة الرجال القادرين على حمل السلاح حصراً، مقدارها دينار واحد سنوياً .ينظر :ترتون. الجزية في الإسلام، ط١، ،د.ت، ص ٤٣ ، وسيشار اليه ، ترتون ، الجزية.

[2] سورة التوبة ، الآية٢٩

، [3] القلقشندي ، صبح الأعشى ، جـ ٦، ص٣٧٦.

[4] الحارث بن أبى شمر الغساني :ـ هو الحارث السابع شرحبيل بن عمرو الرابع المعروف بأبي شمر الأصغر والذي تولى ملكه سنه٦٢٥مالى سنه ٦٣٠ميلادية وقد ورد بعدة صيغ لدى الطبري ، تاريخ جـ٣، ص٨٤ . كذلك ٨٨. كذلك :ـ ابن إسحاق، السيرة النبوية، مج٢، ج٨ص٣٤٥ابن هشام ، عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري ،ت ٢١٣هـ، السيرة النبوية ، ط ١ ، تحقيق طه عبد الرؤوف ،دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ ، جـ٢،ص٣٩٢. وسيشار اليه ، ابن هشام ، السيرة النبوية

[5] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٨٨. الكلاعي، الاكتفاء ، جـ٢،ص٤٠٦. الحلبي ، السيرة الحلبية ،جـ٢ ،ص٣٧٦. الزرعي محمد بن أبي أيوب أبو عبد الله ،ت ٧٥١هـ، زاد المعاد في هدى خيرالعباد،تحقيق شعيب الارناؤط مؤسسة الرسالة، بيروت ، ١٩٨٦ جـ٣، ص٦٩٧، وسيشار اليه ، الزرعي ، زاد المعاد .

[6] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٨٨. الحلبي ، السيرة الحلبية ، جـ٢، ص٣٧٦.



يبدو أن حفيظة الملك الغساني ثارت عندما قرأ مضمون الكتاب النبوي؛ ويظهر أن هذا الكتاب جاء معاصرا للكتاب النبوي الموجه إلى هرقل؛ بدليل إن الأخير وبخ وثنا الحارث عن عزمه[1].

والواقع إن الحارث بن أبي شمر الغساني لم يكن قادرا للسير بجحافله إلى مدينة الرسول (صل الله عليه وسلم)؛ فالسرايا والجيوش العربية الإسلامية وصلت طلائعها منذ سنه (٦هـ/٦٢٧م) إلى شمال الحجاز إلى مدن دومة الجندل وفدك وغيرها.فضلا عن عدم قدرة الحارث المادية والعسكرية للوصول إلى قلب الحجاز[2].

وبلغ النبي (صل الله عليه وسلم) بموقف الحارث بن أبي شمر الغساني قال عنه: ـ ((باد ملكه)) وهذا يعني زوال ملك غسان من بلاد الشام؛ وهذا ما تحقق بالفعل بعيد التحرير العربي الإسلامي لبلاد الشام في العصر الراشدي؛ وتحديدا بعيد معركة اليرموك.

وكتاب النبي (صل الله عليه وسلم) إلى الملك الحارث بن أبي شمر الغساني يبين الدعوة إلى الاعتراف بالإسلام دينا ودولة؛ لكون مملكة الغساسنة من المماليك العربية المنتصرة أي؛ بدليل تذكير النبي (صل الله عليه وسلم) للحارث بالدعوة إلى التوحيد ليدوم ملكه؛ لأنا لأرض وما عليها هي ملك لله وحده؛ وبالرغم من ذلك لم يعترف الحارث الغساني بمحتوى هذا الكتاب لا لشيء؛ ألا لكونه لا يريد الاعتراف بنبوءة الرسول محمد (صل الله عليه وسلم) وسلطته الفعلية على وسط وجنوب وشمال الحجاز وقتذاك، بتنامي القوة الإسلامية شعرت القبائل الموالية لبيزنطة في جنوب بلاد الشام بحدوث تغييرٍ ديني وسياسي في الحجاز على مقربة منها، تمحض عن قيام حكومةٍ مركزيةٍ قويةٍ في المدينة، ودخلت في طاعتها معظم قبائل الجزيرة العربية، وراحت تتطلع نحو الشمال، ورأت في هذا التطور خطرا يهدد كيانها الديني والسياسي؛ لذلك وثقت علاقاتها ببيزنطة.

رأى هرقل في هذا التنامي تدخلا في شئونه واختراقا لسيادته بعد انتصاره الكبير على الفرس، ومع ذلك فقد عده مجرد اندفاع قبلي أو محاولة إمارة عربية ناشئة توسيع رقعتها الجغرافية من ذلك النوع الذي اعتاد بدو الصحراء أن يشنوه بين وقتٍ وآخر على أطراف الدولة، ولا تلبث أن تتوقف تلقائيا عندما يتصدى لها حراس الحدود من فرق الجيش الإمبراطوري أو القبائل الموالية لبيزنطة التي تعيش على تخوم بلاد الشام.

المواجهات العسكرية بين المسلمين والبيزنطيين:

دفعت التطورات في الحجاز القبائل القاطنة في دومة الجندل إلى القيام بتحركٍ سريع، وتزعم أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني تحالفا قبليا راح يتهيأ للزحف نحو المدينة، ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بتلك الاستعدادت خرج من المدينة على وجه السرعة في شهر (ربيع الأول ٥هـ/ أغسطس ٦٢٦م)، وتوجه نحو دومة الجندل مستبقا قوى التحالف، ولما وصل إليها لم يجد من يصطدم به، ويبدو أن أكيدر تهيب الموقف فانسحب باتجاه الشمال، واستغل النبي صلى الله عليه وسلم وجوده في تلك المنطقة فقام بعملياتٍ استطلاعية.

تعد هذه الغزوة الحلقة الأولى في سلسلة الصراع العسكري بين المسلمين والقبائل الضارية على تخوم بلاد الشام خاصة وبين المسلمين والبيزنطيين عامة في الصراع على بلاد الشام، يؤكد هذا ما ذكره الواقدي من أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم وهو بصدد مهاجمة دومة الجندل: "إنها طرفٌ من أفواه الشام، فلو دنوت منها لكان ذلك مما يفزع قيصر"[3].

---

[1] الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، جـ٣، ص٨٨.

[2] البلاذري احمد بن يحيى بن جابر ،ت٢٧٩هـ، فتوح البلدان ، مطبعة لجنة البيان . ،مصر ، ١٩٣٧،ص٨٥.
الحموي ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٧٤ .

[3] الواقدي، تاريخه، ج ١، ص٤٠٣.



تكثفت هجمات المسلمين على المناطق الحدودية مع بلاد الشام في العام السادس للهجرة، نذكر منها سرية زيد بن حارثة التي انتهت إلى العيص[١]، وتلك التي انتهت إلى حسمى وراء وادي القرى، وقد ارتبطت كسبب بدحية بن الخليفة الكلبي وكان عائدا من بلاد الشام بعد أن اجتمع بهرقل، فهاجمته جماعةٌ من جذام بقيادة الهنيد بن عارض ومعه ابنه، ولا تشير الرواية إلى دور هذا الرجل أو علاقته بالنبي صلى الله عليه وسلم إلا إن اسمه يتردد فيما بعد كمبعوثٍ له إلى بلاد الشام حاملا رسالته إلى هرقل، وتدل قرائن هذه المهمة الثانية أن لها علاقة بمهمة دحية الأولى أو هي استكمالٌ لها بدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتردد في إرسال قوةٍ عسكريةٍ للانتقام له بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه فاجأت بني جذام، وقتل زيد الهنيد وابنه[٢].

يبدو أن هذه السرية لم تكن محصورة بنتائجها الثأرية، ولكنها مهدت لقيام علاقةٍ وثيقة بين المدينة وقبيلة جذام سيكون لها تأثيرها في مسار السياسة التي انتهجها النبي صلى الله عليه وسلم تجاه القبائل العربية[٣] فقد تحدثت روايات المصادر على قدوم رفاعة بن زيد الجذامي في رهطٍ من قومه إلى المدينة معتنقا الإسلام، وأجرى مباحثات مع النبي صلى الله عليه وسلم تمحض عنها ما يشبه المعاهدة -لم تصلنا بنودها إنما عرفت بنتائجها- فقد وافق النبي صلى الله عليه وسلم على إطلاق سراح الأسرى والأموال التي غنمها زيد رضي الله عنه، وأرسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه مع الوفد لتنفيذ الاتفاق[٤]، وستهيمن روح هذه المعاهدة على المعاهدات التي سوف يعقدها النبي صلى الله عليه وسلم في المستقبل مع القبائل العربية المتنصرة.

ثمة سرية أخرى خرجت في شهر (رجب ٦هـ= ديسمبر ٦٢٧م) باتجاه وادي القرى بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه[٥]، وقد أغفلت روايات المصادر دوافعها ونتائجها، إنما يمكن القول إنها تتعلق بسياسة النبي صلى الله عليه وسلم الشامية.

خرجت سرية في شهر (شعبان ٦هـ= يناير ٦٢٨م) بقيادة عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه باتجاه دومة الجندل لقتال قبيلة كلب النصرانية، وقد شغلت حيزا هاما في سياسة النبي صلى الله عليه وسلم الشامية؛ فقد طلب من قائدها أن يتزوج ابنة زعيم القبيلة إن استجاب هو وقومه إلى دعوة الإسلام؛ وذلك بهدف استقطابهم وتعزيزا للعلاقات بين الطرفين، ويوضح هذا الأهمية التي يعلقها النبي صلى الله عليه وسلم على كسب قبيلة كلب إلى جانبه؛ فقد كانت هذه القبيلة أهم مجموعةٍ عربيةٍ في بلاد الشام حين ظهر الإسلام كقوةٍ سياسية، نجح عبد الرحمن رضي الله عنه في مهمته واعتنق الإصبغ بن عمرو الكلبي الإسلام وتبعه أكثر قومه، وتزوج من ابنته![٦].

تكمن أهمية هذه السرية في الدلالة على سياسة النبي صلى الله عليه وسلم التوسعية في اتجاه بلاد الشام نظرا إلى ما تمثله دومة الجندل من موقعٍ حيوي في التجارة مع هذه البلاد لا ينافسها فيه سوى بصري[٧]، ويذكر بأن هذا الموقع لفت نظر النبي صلى الله عليه وسلم من قبل فقام بغزوه في مطلع السنة الخامسة للهجرة.

---

[١] العيص: موضع في بلاد بني سلَيْم من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام. الحموي: ٤،١٧٣.

[٢] الواقدي، تاريخه، ج ٢،٥٥٧.

[٣] بيضون، إبراهيم: دولة الرسول في المدينة. بحث في كتاب تاريخ بلاد الشام، دار الأمل، اربد، ١٩٩٢، ص٨٦، ٨٧ ، وسيشار إليه لاحقاً : بيضون، دولة الرسول .

[٤] الواقدي، فتوح الشام، ج٢، ص ٥٥ .

[٥] ابن سعد، طبقات، ج ٢،٨٩.

[٦] المرجع نفسه ج ٢، ص٦٤، ٦٥.

[٧] بيضون، دولة الرسول، ص٨٨.



تميزت السرية المعروفة بأم قرفة بدوافعها الاقتصادية الواضحة؛ فقد خرج زيد بن حارثة رضي الله عنه في شهر (رمضان ٦هـ/ يناير ٦٢٨م) في تجارةٍ إلى بلاد الشام فتعرض لاعتداء من قبل جماعة من فزارة في مكانٍ قريبٍ من وادي القرى وعاد إلى المدينة، بيد أنه عاد مجددا إلى استئناف مهمته بعد إصرار النبي صلى الله عليه وسلم، ونزل في المكان نفسه، واصطدم مع الجماعة التي اعترضه فقتل وأسر وعاد إلى المدينة[١]، ويعد هذا الاختراق لقبيلة كبيرة كفزارة ما تزال غير مكترثة حتى ذلك الحين بالقوة الإسلامية النامية في المدينة عملا ناجحا كان له وقعه الحسن بين المسلمين![٢].

الواضح أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتمكن في العام السادس الهجري من حسم الوضع لصالحه على الحدود الشمالية للحجاز، وهذا ما دفعه إلى استئناف حملاته، وأتاح له صلح الحديبية التحول نحو هدفه الخارجي وهو مطمئن على وضعه الداخلي. ومن جهةٍ أخرى شهدت الجبهة القبلية - البيزنطية بعض الارتباك؛ إذ تزعزعت ثقة القبائل العربية ببيزنطة بفعل محاولتها تغيير المعادلة في العلاقات الثنائية من واقع فرض سيطرتها المباشرة عليها وتخفيف مساعداتها المالية لها، مما أسهم في تراجع الروح المعنوية لدى القبائل التي نشأت على الاستقلال ورفض التدخل الخارجي في شئونها إلا ما كان في إطار التحالفات والمصالح الخاصة، كما أن الاختلاف المذهبي أسهم في خلق وعيٍ لديها تجاه الإسلام على الرغم من أنها وجدت فيه تحديا عقائديا يفوق -مبدئيا- التحدي البيزنطي، من هذا المنطلق تكتسب غزوات المسلمين نحو الشمال -بعد صلح الحديبية- تلك الأهمية التي فرضتها إعادة ترتيب مواقع النفوذ البيزنطي في الأطراف الشمالية[٣].

استأنف النبي صلى الله عليه وسلم نشاطه الجهادي في الشمال بعد صلح الحديبية؛ فأرسل كتابين؛ أحدهما إلى الإمبراطور البيزنطي والآخر إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم بلاد الشام، وتطرق في الكتاب الذي أرسله إلى هرقل إلى أوضاع القبائل العربية الموالية لبيزنطة، الأمر الذي أثار الإمبراطور البيزنطي ودفعه إلى استنفار قواته وحلفائه من العرب: "فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية"[٤].

قد وردت -أيضا- عبارة الآريسيين محل الفلاحين؛ أي أتباع آريوس، وهم أصحاب المشيئة الواحدة المعارضة للمذهب الملكاني الذي اعتنقه البيزنطيون؛ إذ كانت القبائل العربية المنتصرة على مذهب الآريوسية الذي حمل اسم اليعقوبية فيما بعد، كما وردت لفظة الأكاريين للدلالة على أولئك الذين يعملون بحراثة الأرض وزراعتها[٥]

هكذا ستحمل هذه المرحلة الجديدة اهتماما أكثر من جانب النبي صلى الله عليه وسلم بأمور بلاد الشام، وستتوج سياسته هذه بغزوتي مؤتة وتبوك في العامين الثامن والتاسع الهجريين.

---

[١] بن سعد، الطبقات، ج ٢، ص ٩٠، ٩١.

[٢] بيضون، دولة الرسول، ص٨٧، ٨٨.

[٣] بيضون، إبراهيم: حملة مؤتة. المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام عام ١٩٨٧م، ص٦٢، ٦٣، وسيشار إليه لاحقاً : بيضون، حملة مؤتة .

[٤] ابن الأثير ، الكامل في التاريخ ، جـ ٢ ، ص٨١. ، الحلبي، السيرة الحلبية .ج٢، ص٣٦٦،

[٥] الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج٢ ص٦٤٩، وابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص٢٦٥.

تطور النظم السياسية والإدارية في الدولة البيزنطية :

منذ توسع قسطنطين في حدود دولته أنشأ رومية جديدة في الشرق وكانت القسطنطينية العاصمة السياسية، وجاء اختيارها لموقعها المميز، والمتسم بالحصانة ،مما يسهل الدفاع عنها ومرفأها المعروف بالقرن الذهبي من أحسن مرافئ العالم يؤوي ١٢٠٠ سفينة ويمكن سده بسلسة طولها ٢٥٠ متر لئلا تتخطاه أساطيل العدو. فهناك أنشأ قسطنطين مدينته الجديدة القسطنطينية (مدينة قسطنطين) وجعل في أطرافها أسوارا عالية وأنشأ فيها ساحتين تحيط بهما أروقة. وأنشأوا فيها قصرا وملعبا ودور تمثيل وأقنية وحمامات ومعابد وكنيسة مسيحية.

ونزع قسطنطين من المدن الأخرى ما كان فيها من التماثيل والنقوش البارزة المشهورة ليزين بها مدينته ولأجل إسكانها نقل إليها سكان المدن المجاورة بالقوة وقدر مكافآت وألقاب تشريف للأسر الكبرى التي تنتقل إليها وقرر كما كان الحال في رومية توزيع الحنطة والخمر والزيت على الناس وتوفير المشاهد والفرجة لهم.

لما ترك الإمبراطور رومية لم تعد مقر للحكومة وظل فيها مجلس أعيانها وإن لم تعد له سلطة وبقيت مزاراتها واحتفالاتها كما بقيت إلى أواخر القرن الرابع مركز الحزب الديني القديم. القصر ـ أخذ الإباطرة الذين نزلوا الشرق في التعود بعادته بحيث يلبسون ثيابا إضافية من الحرير والقصب ويجعلون على رؤوسهم تاجا مرصعا باللؤلؤ ويتحجبون في قصورهم حيث كانوا يجلسون على عرش من ذهب يحف بهم وزرائهم ويفصلهم عن الناس جمهور من الحشم والخدم والموظفين والحرس. وعلى من ينال شرف الحظوة من مواجهتهم أن يسجد أمامهم ويمرغ وجهه في الأرض علامة العبادة والخضوع ويطلقون عليهم ألقاب المولى والجلالة ويعاملونهم معاملة الأرباب وكل ما يمس أشخاصهم مقدس فيقولون القصر المقدس والغرفة المقدسة. ومجلس الإمبراطور المقدس والخزانة المقدسة. فكان عيش الإمبراطور في الإمبراطورية الغربية (ايطاليا) من القرن الأول إلى الثالث شبيه بحياة حاكم أو قائد أما قصر الإمبراطور في الإمبراطورية الشرقية (القسطنطينية) فهو أشبه بقصر ملك فارس. وقد أطلق على طريقة الحكم في الإمبراطورية الشرقية اسم الإمبراطورية الواطئة معارضة لطريقة الحكم السالفة في القرون الثلاثة التي لقبوها بالإمبراطورية العالية.

أصبح الموظفون أكثر عددا مما كانوا ويحف بالإمبراطور جيش صغير من الخاصة يحرسون قصره وهناك حرس ووكلاء وخدم ومجلس عالي وحجاب وسعاة وأمناء سر ينقسمون إلى أربع مكاتب. وأصبح الموظفون في الولايات أكثر سوادا إذ رأى الإمبراطور ديوكلسين الولايات متسعة فقسمها إلى عدة قطع ففي غاليا مثلا قسم ولاية ليون إلى أربع واكيتين إلى ثلاث. وبعد أن كان في الإمبراطورية ٤٦ واليا أصبح فيها ١١٧ ثم فصلوا الوظائف فجعلوا مع الولاة والوكلاء قوادا عسكريين من دوقات وكنتية في الولايات الواقعة على التخوم.

أصبح جميع الموظفين لا تصلهم أوامر الإمبراطور مباشرة فلا يخاطبون إلا كبار الموظفون رؤسائهم فيخضع الولاة لقائدي حرس القيصر والموظفون في الأشغال العمومية لحرس المدينة. وجباة الأموال إلى الكونت الذي يتولى الأعطيات المقدسة. والوكلاء للكونت المشرف على الأملاك والضباط إلى موالي الأجناد وجميع موظفي القصر يرجعون إلى مولى التشريفات وخدمة القصر إلى رئيس الخدمة المقدسة. وهؤلاء الرؤساء كالوزراء[1].

[1] الأصفهاني، حمزة بن الحسين ،٣٦٠هـ،٩٧١م،تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م، ص٩٦ وسيشار اليه ، الأصفهاني، تاريخ سني.



وهذه الطريقة لا يصعب علينا فهمها فقد اعتدنا أن نرى موظفين وقضاة وقوادا وجباة ومهندسين على اختلاف في أعمالهم التي يتولونها ولكل واحد عمله الخاص ويرجع أمرهم إلى ناظر هو رئيس ديوانه بل إن عندنا من النظارات أكثر مما في الأستانة. إلا أن هذه الإدارة الإدارية التي ألفناها لأننا نعرفها منذ الطفولة ليش فيها التباس ولا خروج عن حد الطبيعة. فقد كانت الإمبراطورية الشرقية أنموذجا في هذا الباب واحتفظت به المملكة البيزنطية ومن ذلك العهد حاولت جميع الحكومات المطلقة أن تنسج على منوالها؛ لأن في ذلك من التسهيل في العمل ما ينتفع به من يتولون أعمال الحكم.

المجتمع في الإمبراطورية الشرقية:

كانت هذه الإمبراطورية هي الحد الفاصل في تاريخ الحضارة اجتمعت فيها سلطة الحاكم الروماني المطلقة مع فخفخة ملوك الشرق يتألف منها سلطة لم يكن بها عهد إلى ذلك العهد. وهذه السلطة التي لم يسمع بمثلها تأتي على كل شيء في يدها فلم يعد سكان الإمبراطورية وطنيين رومانيين منذ القرن الرابع بل صاروا يدعون باللاتينية الرعايا (الخاضعين) وبالرومية العبيد فكانوا كلهم من ثم عبيد الإمبراطورية ولكنهم يختلفون بالمقام وهم درجات في الشرف الذي يوليهم إياه مولاهم ويورثونه أبنائهم وإليك تلك المناصب حسب درجاتها:

١ ـ أشرف الأشراف وهم لأسرة الإمبراطورية.

٢ ـ المشاهير وهم وزراء ورؤساء الدواوين.

٣ ـ المعتبرون وهم كبار أرباب المناصب.

٤- الممجدون وهم كبار الموظفين (ويدعون الأعيان).

٥ ـ أهل الكمال.ولكل صاحب شأن مقامه ولقبه ووظائفه.

وحظي الندماء والموظفون بمكانة مرموقة؛ حتى صح أن يدعى ذلك العهد عهد الألقاب والتشريفات، وما قط شوهد إلى حد تبلغ السلطة المطلقة إذا دعمها الجنون في الألقاب والميل إلى ترتيب كل أمر بالإكثار من القوانين وعليه فقد كانت الإمبراطورية الشرقية مثالا تاما لمجتمع يدار بالآلة الصماء ولحكومة فنيت في إرادة قيصرها؛ فحازت أقصى ما يعرف بأنصار السلطة المطلقة وسيكافح بعد أشياع الحرية زمنا طويلا تلك التقاليد التي أبقتها إمبراطورية الشرق.حكومة المدينة ـ لم يعتن الرومان بجباية الأموال الرعايا بأنفسهم بل كان الإمبراطور يكتفي ببيان الخراج المطلوب من كل ولاية (وذلك كل خمس سنين في الغالب) ويحدده كما يرد:

ويعلم الوالي كل مدينة ما يجب عليها أداؤه؛ فحكومة المدينة هي التي تقدم المبلغ المطلوب. وما دامت المدينة غنية يجبي الوالي خراجها موزعا له بين السكان؛ فإذا عجزوا عن الدفع يتحتم على من تولوا الخراج أن يسددوا العجز لأنهم مسئولون عن الخرج وخزانة الإمبراطورية لا تتنازل عن حقوقها.ولقد كان منصب الجباية حتى القرن الثالث مرغوبا فيه كأنه من أسباب الشرف؛ فيعد الجابي في مدينته كأنه كعضو الشيوخ في رومية، وإذا افتقرت البلاد يعود منصب الجباية من المناصب التي تكسر متوليها فترهق النفوس في توليتها[1].

---

[1] ابن حبيب، محمد بن حبيب بن أمية ،ت٢٤٥هـ، ٨٦٠م،المحبر، تحقيق أيلزة ليختن ، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت، ص٣٧١؛ الأصفهاني، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، ص٨٩، وسيشار إليه لاحقاً : ابن حبيب، المحبر .



رأى الإمبراطور أن يسنوا قانوناً لعقاب من يأبى جباية الخراج؛ فصار الجابي يتولى ذلك رغم أنفه ويجب على كل من يملك خمسة وعشرين فدانا من الأرض أن يكون أحد الجباة طوعاً أو كرهاً، وكثير من الجباة كانوا يؤثرون أن يخرجوا عما يملكون من الأراضي ويهربوا ويدخلوا في سلك الرهبنة والخورنة أو الاستخدام والجندية[١].

أصدر الأباطرة أوامرهم بالبحث عن هؤلاء الفارين وأن يعادوا إلى مدنهم بالقوة، وقد جاء في أحد القوانين المسئولة أنهم عبيد الإمبراطورية.فكانت الحكومة تحاول أن تبقي محابس الشيوخ في المدن على هذه الكيفية، وإذا كانت تخرب بيوتهم بخراجها أصبح عدد الجباة أبداً في قلة، وكان مجلس الشيوخ يتألف على عهد الإمبراطورية الغربية من مئة عضو، وفي القرن الرابع نشبت فتن في إحدى الولايات فأمر أحد الأباطرة أن يأتوه برؤوس ثلاثة من الجباة من كل مدينة فكتب إليه الوالي (ليسع حلمكم أن يقرر ما الذي يجب أن نعمله في المدينة التي ليس فيها ثلاثة من الجباة)[٢].

وقع في الإمبراطورية الرومانية مثلما وقع في عامة المجتمعات القديمة مثل إسبارطة ويونان وايطاليا وهو أن يضمحل الأحرار ويخلفهم العبيد ويبقى في القرى ما يكفيها من الحراثين. لا جرم أن المدينة الرومانية لم تخرب بل كانت تتجه للنماء، فقد كان عدد الوطنيين في القرن الأول زهاء مليون نسمة وفي القرن الثالث صدر أمر الإمبراطور بمنح جميع سكان الإمبراطورية حق الوطنية فصار الوطنين الرومانيين يعدون بالملايين ويبدءون باضمحلال سائر سكان العالم بيد أن الحكم الروماني كان سببا في اضمحلال شعوب المملكة كما اضمحل به من قبل أهل ايطاليا وكان يقتضي له كثير من الجنود وكثير من العبيد[٣].

وبهذا الحكم يفلح الأغنياء ويصعب على صغار أرباب الأملاك أن يقفوا أمام الكبراء فيستخدمون في الجندية أو يخربون بيوتهم بأيديهم. ويقتني صاحب الأملاك الواسعة أراضيهم حتى أتى زمن لم يبقى في بعض البلاد غير أملاك واسعة يحرثها العبيد. وهؤلاء السكان من العبيد لا يتجددون فإذا عرض عارض من العوارض المألوفة إذ ذاك من مثل وباء وحرب وغارة برابرة وهلك جمهور من الحارثين في إحدى الأملاك تبقى الأرض بوراً؛ فخلت القرى على التدريج ولا سيما ما كان على التخوم من الناس، ولم يبقى سكان إلا في المدن بل صار في عدة أنحاء من المملكة قفار حقيقية خلت من السكان والعمران؛ فانشأ الأباطرة يسكنون فيها عصابات من البربر ممن ضربوهم وأسروهم ليحيوا بهم موات تلك القرى.

إلا أن هؤلاء البرابرة لا يملكون الأراضي بل يستعمرونها فقط مثل الهيلوتبين في إسبارطة ويقضى عليهم أن يبقوا في الأرض التي أنزلوا فيها لا يفارقونها ولا أولادهم بحال يؤدون إلى صاحب الأرض مالاً مقرر فمن ثم كانوا مستأجرين إلى الأبد بالقوة. وليس هذا النظام جديد بل كان في إيطاليا على عهد الإمبراطورية الشرقية أناس من الطوارئ من الأحرار الفقراء قيدوا أنفسهم في خدمة صاحب ملك عظيم لينالوا منه أرضا يزرعونها. وزاد سواد الطوارئ زيادة كبرى لما ضموا إليهم الأسرى من البربر.وهذه الطريقة الشديدة لم تكف في إحياء أمة لأن أولئك الحراثين كانوا يفرون أو يهلكون. وفي القرن الخامس بعد مرور الجيوش العظيمة من المخربين (داكيز وأتيلا) كان في أراضي المملكة فراغ كبير تعذر على الأباطرة أن يسدوه[٤].

---

[١] عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي ٦٦١،٦٠٠، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٠م، ص١٢٦، وسيشار إليه لاحقاً : عباس، تاريخ بلاد الشام .

[٢] الحديثي، دراستان في التاريخ الساساني والبيزنطي، ص ٨٢ .

[٣] جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٤، ص١٥٤.

[٤] بن سيد الناس ، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري ت ٧٣٤هـ ، عيون الأثر ، المحقق: محمد الخطراوي - محي الدين مستو ، د،م ، د. ت ج٢، ص٣٢٣. وسيشار اليه ، ابن سيد الناس ، عيون الأثر ،...



معالم النظم والحضارة في بلاد الشام البيزنطية :

أ- النظام الاداري :

أصيبت الإدارة بعطل شديد بحيث اصبحت عاجزة عن القيام بوظيفتها على نحو مرشي ، وليس هناك حاجة إلى إثبات مدى الضرر والخطر الذي تتعرض له إمبراطورية عالمية بدون إدارة قوية، وأن كانت الإمبراطورية في حاجة إليه هو رجل يصلح إدارتها، وأن دقلديانوس كان ذلك الرجل، وأن نظامه الضرائبي كانت مبادئه في الاصلاح تتلخص في التبسيط والتوحيد، تبسيط النظم وتوحيدها في ولايات الامبراطورية المختلفة[١] .

قسمت الإمبراطورية إلى اثني عشر دوقية هي بريطانيا والغالة (وشملت شمال فرنسا وأرض الرين وهولندا)، وفيينسيس (جنوب فرنسا) واسبانيا (بما فيها البرتغال ومراكش) وايطاليا (ومعها صقلية وسردينيا وكورسيكا) وافريقيا (الجزائر وتونس وطرابلس) ثم الشرق (وشملت كيليكيا وسوريا و فلسطين و بلاد الشام و قورينة) وبذلك قضى نهائيا على تنظيم الإمبراطور أغسطس في تقسيم الولايات بين الإمبراطور والستاتو[٢] .

وقعت بلاد الشام في دوقية الشرق، ولكن إصلاح دقلديانوس لم يتوقف عند هذا الحد ، بل رأى أن يقسم الولايات الكبيرة إلى ولايات اصغر، وذلك عملاً بمبدأ اللامركزية ، فقسمت الولايات الكبيرة مثل إيطاليا واسبانيا والغالة و بلاد الشام إلى ثلاث أو أربع أو خمس ولايات صغرى في بلاد الشام التي كانت طوال تاريخها القديم وحدة سياسية وإدارية واحدة قسمت إلى ثلاث ولايات أساسية[٣] : ولاية بلاد الشام الجويتيرية وتشمل غرب الدلتا بما فيها الإسكندرية[٤]، وولاية بلاد الشام الهرقلية وتشمل شرق الدلتا و بلاد الشام الوسطى المعروفة باسم هيتانوميا، ثم ولاية طيبة (وتشمل الصعيد جنوبي اسيوط)، أما الصحراء الغربية فقد أصبحت ولاية مستقلة أطلق عليها اسم ليبيا .

انقسمت بلاد الشام إلى ولايات ثلاثة منفصلة : ومع ذلك فان الفصل التام لم يتحقق، إذ منح حاكم الولاية الأولى وهي بلاد الشام (الجويتيرية) الذي كان مقره الإسكندرية سلطاناً أسمى من حكام الولايتين الاخريين[٥] .

وطرأ على هذا النظام بعض التعديل في أخر القرن الرابع الميلادي، إذ أصبحت بلاد الشام تكون في سنة ٣٨٢ دوقية مستقلة والحقت بها ليبيا ، وبذلك استردت وحدتها الادارية من جديد ، واصبح يحكمها حاكم عام ، وعقب ذلك فصلت بلاد الشام الوسطى (هيتانوميا) إداريا، وأصبحت تكون ولاية إدارية أطلق عليها اسم اركاديا في سنة (٣٨٦) ، وبعد ذلك أعيد تقسيم كل من طيبة و اوغسطمنيكا و بلاد الشام، كل إلى قسمين.

وفي سبيل صبغ التعديلات الادارية بصبغة جديدة تماما واستجابة تطورات عامة اخرى نمت في القرن الرابع الميلادي، أدخلت تعديلات في الوظائف المدنية القديمة فاختفت معظمها وحلت محلها وظائف جديدة، فمن ذلك مناصب الكهنة اختفت وحل محلها الكنيسة ورجالها

---

(١) كمال، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٦٥ .

(٢) ابن العبري ، تاريخ ، ص ٢٩٨

(٣) العريني : بلاد الشام البيزنطية، ص ٨١،٩٥ و ١٥٥، ١٧٧ .

(٤) كمال، الامبراطورية الرومانية ، ص ٢٦٦ .

(٥) Simeonova، Op. Cit.، p 76، 78.



كما امم مناصب اكسجيتيس والمشرف للتموين اختفت تدريجياً، أما المناصب الأساسية الجديدة فهي ثلاثة[1]:

أولاً : المشرف على المدينة : الذي أصبح خلال القرن الرابع أحد موظفي المدينة النظاميين ينتخبه مجلس المدينة .

ثانياً : حامي المدينة أو العامة: وكان واجبه الاساسي حماية دافعي الضرائب من جامعي الضرائب.

ثالثاً : الموظف المالي: الذي تولى اهم وظيفة بالنسبة للحكومة المركزية وهي جمع الضرائب[2] .

أما عن المجالس المنتخبة فقد استمرت تحمل المسؤوليات الإدارية، ولكن فقدت كل معاني الحكم المحلي إذ أصبح أعضاء هذه المجالس يكونون منذ القرن الرابع طبقة وراثية، هي الطبقة الثرية في كل مدينة[3] .

ويتضح لنا معالم النظام الإداري الذي ساد بلاد الشام في القرنين الرابع والخامس والثلث الأول من القرن السادس، حتى أصدر جستنيان قانونه الثالث عشر المشهور سنة ٥٣٨ ، حيث أنه لم يعد يحفل بالنظم المدنية، ولا حتى في الظاهر ، وإنما سعى إلى تقوية الإدارية المباشرة بكل أسلوب، وأهم تعديل قام به جستنيان هو تقسيم دوقية بلاد الشام إلى أقسامها الأربع القديمة وأضاف ولاية ليبيا، فأصبحت بلاد الشام تنقسم إلى خمس ولايات، ولكن أخطر تعديل ادخله جستنيان على نظام دقلديانوس هو توحيد السلطة المدنية والعسكرية في يد حاكم كل ولاية ولعله كان يهدف من وراء هذا التعديل تقوية سلطة الحاكم على ولايته[4].

وفي عهد دقلديانوس انتهت الحروب الأهلية والانقسامات العسكرية المتوالية التي شغلت سني القرن الثالث والتي تركت الإمبراطورية الرومانية منفصمه الأوصال تعبث فيها الفوضى والاضطرابات دون سلطة مركزية يحسب لها حساب باستيلاء دقلديانوس على الحكم ، ولكن هذا الإمبراطور يشبه فئة الأباطرة في الفترة الأخيرة في بعض الجوانب، ويختلف عنهم كل الاختلاف في جوانب أخرى، ولكنه يختلف عنهم في أنه كان شخصية قوية ذات مواهب فذة في الإدارة والحكم بالرغم من أنه لم يكن قائداً عسكرياً عظيماً ، وكثيراً ما عهد بقيادة الجيوش إلى غيره من أعوانه الضباط، وبالرغم من أنه شخصية محافظة إلى ابعد حدود المحافظة، وخاصة من الناحية الدينية ، ولكنه كرس نفسه لمهمة أعجزت من سبقه من الأباطرة وهي وقف الإمبراطورية الرومانية من الانزلاق إلى هوة التدهور والفوضى التي كانت مندفعة إليها[5] .

ومن أفضل إصلاحاته التي تأثرت بها بلاد الشام أنه فصل بين السلطتين المدنية والعسكرية في الولايات، وبعد ذلك قسم الولايات الكبرى إلى عدد من الولايات الصغرى ليخفف عن كاهل الإدارة المركزية، فانقسمت بلاد الشام إلى ثلاث ولايات نتيجة لذلك، أما في مجال المالية والاقتصاد؛ فقد حاول دقلديانوس إصلاح نظام العملة بإصدار عملة جديدة ذهبية وفضية بالإضافة إلى الدينار البرونزي القديم بعد أن أدخل على وزنه بعض التعديل بما يتفق والنظام الجديد للعملة الذي كان الهدف الأساسي منه هو منع تدهور قيمة العملة الذي ساد في القرن الثالث[6] .

---

[1] ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ٢٨٧.
[2] كمال، الامبراطورية الرومانية ، ص ٢٦٩ .
[3] ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ص ٢٨٩.
[4] كمال ، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٧٠ .
[5] كمال ، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٤٣.
[6] المرجع نفسه ، ص ٢٤٤ .



ولكن مهمة دقلديانوس في الحكم والإصلاح كانت غاية في الصعوبة، إذ كان عليه في الوقت نفسه أن يؤمن حدود الإمبراطورية المترامية ضد غزوات المعارضين من كل جانب، ثم أن يقمع أي مقاومة أو ثورة محلية ضد حكمه أو تشريعاته، ثم أخيراً أن يخمد الحركة الدينية الجديدة التي تهدف إلى القضاء على جميع العقائد الدينية التي ألغتها الإمبراطورية حكومة وشعوبا من قديم، ونقصد بالدين الجديد المسيحية[١].

ب- الحياة الدينية :

تعتبر نشأة الرهبنة المسيحية في بلاد الشام البيزنطية من أهم مظاهر الحياة في ذلك العصر ، كما تعتبر من ناحية اخرى اهم ما ساهمت به بلاد الشام في بناء حضارة العصور الوسطى المسيحية أو أن سكان بلاد الشام أسبق الناس إلى ممارستها ، بل لقد عرفها الانسان في تجربته الدينية في امم مختلفة قديمة[٢] .

يتضح أن التنسك والرهبنة الدينية كانت لها أصول في بيئة بلاد الشام قبل ظهور المسيحية، وأن الرهبنة لم تأخذ هذ المحاولات والتجارب القديمة مباشرة ، وإنما اتخذت بدايتها من ظاهرة بلاد الشام ية قديمة اخرى بعيدة كل البعد عن التقاليد الدينية ، ذلك ان ال بلاد الشام ي القديم كان قد الف في ظروف الضيق ان يفر من المدينة او القرية إلى الصحراء أو إلى إحراج المستنقعات، كان يفعل ذلك حين يعجز عن دفع ضرائب الدولة المستحقة عليه؛ فكان يفر من وجه الحكومة خشية العقاب الشديد الذي يصيبه في هذه الظروف ، وكان يطلق على مثل هذا الشخص لفظ الهارب أو المختفي في العصرين اليوناني والروماني[٣].

أما عن نظام الرهبنة في وادي النطرون فهو نظام الرهبنة الانطوائية الذي ساد في أديرة بلاد الشام الوسطى والدلتا أي شمال اسيوط، وما من شك أن خير مكان لدراسة هذا النظام هو منطقة وادي النطرون، وذلك للتفاصيل الكثيرة التي يوردها عدد من المصادر في وصف أديرتها .

إن الرهبان في وادي النطرون كانوا من طائفتين : الأولى : تتكون من خمسة آلاف راهب يعيشون على جبل نستريا ذاته، كل له نظامه الخاص حسب قدرته واستعداده، وكان يسمح لهم أن يقيموا فرادى أو مثنى أو أكثر، وكانوا يجتمعون جميعاً للصلاة يومي السبت والأحد، أما في أيام الاسبوع الاخرى فكان كل يصلي في صومعته أو ديره، بحيث أنه إذا وقف الإنسان في المساء في تلك المنطقة سمع المزامير والتسابيح صاعدة من الصوامع حوله ، فيظن انه في الفردوس.

أما الفئة الثانية من الرهبان في تلك المنطقة فهم النساك المعتزلون الذين يعيشون متوحدون في جوف الصحراء كل في كهفه أو قلته ، بعيدا عن زميله ، وهؤلاء يبلغون الستمائة عدداً، ولا يجتمعون أو يتصلون برهبان الأديرة إلا يومي السبت والأحد حين يشهدون الصلاة الجامعة.

إن حركة الرهبنة في منطقة وادي النطرون تقترن باسم اثنين من أئمة الحركة المسيحية في ذلك الوقت هما أمون الذي نزح إلى هذه الصحراء في عام ٣٢٥م، والقديس مكاريوس الاسكندري واليه ينسب الدير الموجود الان في وادي النطرون باسم دير ابو مقار ولا يزال الى جواره حتى اليوم اديرة ثلاثة اخرى هي السريان والبرموس وبشوى ، ولا زالت حياة الرهبان فيها تحتفظ بكثير من طابعها الفردي الأول لم تقتصر الرهبنة الانطوانية على الرجال فحسب بل شملت النساء ايضا اللائي لم تكن حياة الاعتزال لزاما عليهن ، بل كان في استطاعتهن ان يقمن بحياة الطهر والتنسك في بيوتهن او في جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى[٤].

---

[١] عباس، تاريخ بلاد الشام ، ص ٣٦، وكمال ، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٤٥ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ٢٨٦ .

[٣] كمال ، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٨٨ .

[٤] كمال، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٩٤ .



ج- الحياة الثقافية :

أما عن الحياة الثقافية في العصر البيزنطي؛ فقد اتخذت مظهراً وطابعاً جديداً؛ نتيجة لتغير الظروف العامة في الإمبراطورية بأسرها، ونقصد بها سيادة الدين المسيحي الجديد واتخاذه دينا رسميا للدولة؛ فمنذ القرن الرابع الميلادي وإعلان الإمبراطور قسطنطين المسيحية الدين الرسمي للإمبراطورية، وجدنا المسيحية تشغل الناس وتسيطر على النشاط الفكري والثقافي في الإمبراطورية، وكانت بلاد الشام من المراكز الهامة للدين الجديد كما سبق أن بينا، ولم يكن غريباً أن تساهم بلاد الشام وبنصيب وافر في الحركة الثقافية الدينية الجديدة، وكان محور هذه الحركة هو الكتابة في شرح الدين الجديد ، وتمجيد ابطاله الاول ، وحين انقسن المسيحيون في القرن الرابع الى مذاهب وفرق ، وجدنا اتباع كل مذهب وفرقة يؤلفون ويكتبون في الدعاية لوجهة نظرهم والدفاع عنهم، ومن أشهر هذه الانقسامات ما حدث بين أريوس واثناسيوس، فقد كان كلا الزعيمين من أكثر أهل العصر ثقافة وحدة عقل، اريوس ينتمي إلى مدرسة انطاكية المسيحية التي كانت متأثرة بتعاليم اوريجينيس المشبعة أساساً بالفلسفة الأفلاطونية[١]، وكثيراً ما حضر الشباب لدراسة العلوم الإنسانية (أي الفلسفة الوثنية وآدابها) ثم تحولوا بعد ذلك إلى المسيحية وخاصة في القرنين الرابع والخامس[٢].

هناك ظاهرة أخرى جديرة بالملاحظة وهي أن العنصر البشري في بلاد الشام ازداد انتشاراً في الدوائر العلمية؛ إذ لم يعد علماء قاصرين على مواطني الاغريق[٣] في بلاد الشام ومن الشخصيات التي تلقت المعرفة على يدي هيباثيا سنيسيوس أسقف كنيسة قورينة في برقة، الذي عاش في السنوات العصيبة في نهاية القرن الرابع وبداية القرن الخامس حين كانت تضطهد الوثنية بكل الوسائل المشروعة وغير المشروعة[٤].

د- الحياة الاقتصادية :

أولاً : نظام الأراضي :

يمكننا أن نتخذ عام ٢٩٧ نقطة الابتداء، حين حضر دقلديانوس إلى بلاد الشام للقضاء على فتنة اخيليوس، وقام بعدد من الإصلاحات والتشريعات كان الغرض الأساسي منها هو توحيد النظم في بلاد الشام مع سائر اقطار الإمبراطورية وفيما يتعلق بالضرائب الزراعية، نعرف أنه فرض ضريبة موحدة في جميع أنحاء البلاد على أساس مساحة الأرض ونوع المحصول ، وألغى جميع الضرائب السابقة التي كانت معقدة أشد تعقيد، فكانت تختلف من مكان لآخر، وتختلف حسب الأشخاص، فهناك من ملاك النظام الضرائبي من تمتع بإعفاء كامل من الضرائب أو من بعضها[٥].

الطابع العام لتطور نظام الأرض في بلاد الشام القرن الرابع يشير إلى زيادة قطاع الملكية الخاصة من الأرض على حساب قطاع الملكية العامة التي تختفي تماما في منتصف القرن[٦].

ويجب ألا نتصور أن أرض بلاد الشام كانت مقسمة إلى عدد من الاقطاعات الكبيرة فحسب، بل وجدت أيضاً في القرن السادس قرى حرة يمتلك أرضها صغار الملاك ويدفعون ضرائبهم للدولة مباشرة[٧].

---

[١] المرجع نفسه ، ص ٣٠١ .
[٢] المرجع نفسه ، ص ٣٠٣ .
[٣] المرجع نفسه ، ص ٣٠٤ .
[٤] المرجع نفسه ، ص ٣٠٥ .
[٥] كمال، الامبراطورية الرومانية ، ص ٢٧٣ .
[٦] المرجع نفسه ، ص ٢٧٤ .
[٧] المرجع نفسه ، ص ٢٧٧ .



ثانياً : الصناعة والتجارة :

فقد استمرت الإسكندرية في العصر البيزنطي أيضاً أكبر مركز للصناعة والتجارة في بلاد الشام ، ولكن ما من شك أن سوء الأحوال العامة وكثرة الاضطرابات وتوالي الاضطهاد أثر في قدرة البلاد الإنتاجية وفي نوع الإنتاج أيضاً؛ فصناعة الزجاج مثلا استمرت في الإسكندرية ولكن ما عثر عليه في الحفائر الحديثة في منطقة الفيوم يدل على تأخر المستوى عما عرف عن الزجاج إلى بلاد الشام ي من قبل ، ويؤيد هذه النتيجة أيضا قدرة ما عثر عليه من الزجاج إلى بلاد الشام ي في الخارج؛ إذ يبدو أن تأخر الصناعة إلى بلاد الشام من ناحية وقوة المنافسة الخارجية صرف الأسواق الأجنبية عنه[١].

وكذلك صناعة البردى التي اشتهرت بها بلاد الشام منذ القدم فقد استمرت ، ولكن تأخر مستواها عن ذي قبل، ومنها صناعة الكتب من رق الجلد ، الذي كان يسجل عليه الأدب والفكر المسيحي الجديد ، تأثير على عدم العناية بإنتاج الأنواع الراقية من البردى القديم[٢].

أما الصناعة الثالثة في بلاد الشام التي كانت منتشرة أيضا وهي نسج الكتان ، فقد وجدت أيضاً في ذلك العصر، ويذكر دقلديانوس في قائمة أسعاره كتان الإسكندرية على أنه ضمن أفضل خمس أنواع من الكتان في الإمبراطورية بأسرها[٣] .

أما عن صناعة العطور والتوابل التي كانت تستورد من الاسواق الشرقية ثم تصنع في بلاد الشام ويعاد تصديرها فقد استمر أيضاً، نظراً لأن التجارة الشرقية لم[٤] تتوقف، وأن قابلت بعض الصعوبات أحياناً، ويذكر كشف حساب ممتلكات كنيسة روما في بلاد الشام، أن مئات الأرطال من الزيوت والتوابل والعطور بأنواعها كانت تصنع في مصانعهم بالقرب من الإسكندرية[٥].

رغم سوء الأحوال العامة في بلاد الشام في العصر البيزنطي حين تقاس بالعصر الروماني الأول، فان الصناعات الأساسية استمرت في بلاد الشام وان كانت قد تأخرت في مستواها عن ذي قبل[٦].

وفيما يتعلق بصادرات بلاد الشام؛ فكانت تصدر القمح، ثم الكتان والبردى والروائح والعاج والعطور والتوابل، ويبدو أن الزجاج لم يعد يصدر الآن، كما أن تجارة الورق من البردى تأثرت بالإقبال على استخدام رقوق الجلد ، ومع ذلك فقد استمر تصدير الورق[٧] .

أما عن الواردات الأساسية فهي أن المعادن (وخاصة الفضة أو الصفيح)، والخمور والحرير والعطور والتوابل من أجل صناعتها محليا وإعادة تصديرها، وما كان يصدر من هذه الواردات كان يباع في الإسكندرية للاستخدام الخاص بواسطة الطبقة البورجوازية المزدهرة في هذه المدينة، وكذلك كبار الأسر الغنية في الريف[٨] .

---

[١] المرجع نفسه ، ص ٢٧٩ .
[٢] رمضان، المجتمع البيزنطي، ص ٤٣، ٤٥ .
[٣] المرجع نفسه ، ص ٥٥.
[٤] كمال، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٧٩ .
[٥] Aziz، Ramdan، Op. Cit.، p، 43
[٦] سالم ، الإمبراطورية الرومانية ، ص ٢٨٠ .
[٧] Aziz، Op. Cit.، p، 43
[٨] Aziz، Ramdan، Op. Cit.، p، 43 .



أما الفئة البرجوازية في الريف فقد انكمشت كثيراً في هذا العصر، وفقدت قدرتها الشرائية القديمة، أما سائر السكان فكان اكبر همهم هو المحافظة على الحياة أو الفرار إلى الدير[١].

وتضافرت عدة عوامل حتمت قيام علاقات اقتصادية بشكل أو آخر بين الطرفين منها ما كان يتعلق بالمسلمين أم الفرنج ، أو ما يتعلق منها بطبيعة العلاقات التي نشأت بين الطرفين، أو ما يتعلق بطبيعة بلاد الشام نفسها ومدنها المختلفة[٢] .

وما يذكره لنا المؤرخ ابن شداد في حديثه عن مدينة بيروت التي استولى عليها الفرنج سنة ٥٠٣ هـ ، وظلت تحت حكمهم إلى أن استردها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٩٣ هـ يقول: " أنه على مقربة منها جبل فيه معدن الحديد"[٣] ، وتصف بعض المصادر هذا النوع من الحديد بانه حديد طيب جيد القطع ويستخرج منه الكثير ، ويحمل إلى مدن الشام المختلفة[٤].

كانت مدينة طرابلس من أهم مدن بلاد الشام في صناعة الورق وبخاصة الورق السمرقندي، وأنه كان يتم إرساله إلى كثير من المدن الشامية المختلفة لجودته وشهرته، بل لتفوقه على الورق الذي صنع في سمرقند من ذلك النوع[٥] ، هذا إلى جانب أنها كانت من المصادر الهامة للحصول على مواد الصباغة التي اعتمدت على نوع من النبات كانت تستخرج منه اصباغ ارجوانية اللون[٦].

وفي شمال بلاد الشام كانت أنطاكية ، بوجه خاص قد اشتهرت بما تنتجه من المواد الخام اللازمة لصناعة المنسوجات الحريرية ، والبسط والزجاج والفخار والصابون وهي مواد لم تكن البلدان الاسلامية في بلاد الشام في غنى عنها[٧].

كانت المناطق الجبلية المجاورة لمدينة بيت المقدس تعد من أهم مناطق بلاد الشام في استخراج بعض خامات الصابون وبخاصة مادة البوتاس ، والذي اشتغل باستخراجه كثير من ابناء القبائل العربية التي استوطنت هذه المناطق ، حتى أواخر العصور الوسطى[٨]، اشتهرت محاجر القدس بإنتاج كثير من الحجارة ذات الالوان المختلفة ، ومعروف ان حجارة بيت المقدس من أحسن الحجارة وأجملها ، وأقواها، ولا سيما النوع المعروف بالحجر المزي الصلب ومن اللون الأحمر، والتي تميزت أيضاً بخاصية مقاومة وتأثير المياه والرطوبة ، بما يساعد على أن تحتفظ المباني التي تبنى بها بجمال لونها واشكالها عبر الازمنة الطويلة[٩] .

---

[١] المرجع نفسه ، ص ٢٨٢ .

[٢] عبد الله، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين، ص ٢٩ .

[٣] ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، ص ١٠١ – ١٠٢ .

[٤] عبد الله، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبين ، ص ٢٩ .

[٥] خسرو ، سفر نامة ، ترجمة: د. يحي الخشاب. تصدير: د. عبد الوهاب عزام. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب -الطبعة الثانية. ١٩٩٣ وسيشار إليه لاحقاً: خسرو ، الرحلة ، ص ٤٨ .

[٦] السيد، عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ م ، ص ٢٣٢ ، وسيشار إليه لاحقاً: سالم، طرابلس الشام.

[٧] رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ م ، ج٣ ، ص ٢٣ وسيشار إليه لاحقاً ، رنسيمان، تاريخ الحروب الصليبية.

[٨] علي السيد علي ،القدس في العصر المملوكي ، القاهرة ١٩٨٦ م ، ص ١٩٩ ، علي، وسيشار إليه لاحقاً :القدس في العصر المملوكي .

[٩] عبد الله، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٢ .



الصناعات المعتمدة على الزراعة :

أشهر الصناعات في بلاد الشام :(صناعة المنسوجات ومنها الحرير)[١]، بلاد الشام من المناطق القليلة في العالم التي تجتمع فيها اغلب الأقاليم المناخية ، ففي الجزء الشمالي منها تقع الجبال المرتفعة القريبة من المناطق الباردة ، لا بل نجد أن الثلوج تبقى معظم أشهر السنة على قمم جبال لبنان الغربية ، وتجاوزها السهول الواقعة في حوض نهر العاصي ، ثم إلى الجنوب نجد سهول فلسطين و حوران التي اشتهرت بزراعة الحبوب وأشجار الفاكهة وغيرها من الزراعات التي تجود في تلك المناطق[٢].

ومن الصناعات : (صناعة الخمور / صناعة عصر زيت الزيتون/صناعة طحن الحبوب /استخراج ماء الورد).

صناعة الأسلحة :

تعد صناعة الأسلحة من الصناعات الهامة التي قامت على صناعة التعدين ، فقد اشتهرت بلاد الشام بصناعة الأسلحة وخاصة السيوف التي صنعت في أكثر من منطقة فيها ، وقد تميزت بها المنطقة الجنوبية من البلقاء لتوفر معدن الحديد ، وقد قامت على هذه المعادن صناعات حربية مثل (السيوف / الخوذ / السهام / الدروع)[٣].

صناعات أخرى وجدت في بلاد الشام :

(صناعة الزجاج / دباغة الجلود والاتجار بها / صناعة الرخام /صناعة طواحين الحبوب بقوة المياه / صناعة الأدوات والمعدات الزراعية / صناعة بعض أنواع الدهانات / صناعة الفخار والسيراميك)[٤] .

الزراعة :

عدت الزراعة من أهم مقومات اقتصاد الإمبراطورية البيزنطية إلى جانب موارد أخرى ، فقد عمل القسم الأكبر من الشعوب التي خضعت للحكم البيزنطي في أقاليم الإمبراطورية المختلفة بالزراعة ، وكانت الضرائب الناتجة عن الزراعة من أهم واردات الدولة البيزنطية التي قامت عليها معظم نفقات الإمبراطورية مثل النفقات العسكرية والخدمة المدنية ، وصيانة نظام النقل ، لان معظم دخل الإمبراطورية كان يعتمد عليها[٥].

كانت الزراعة من أقدم الحرف التي مارسها الإنسان في بلاد الشام ، وظهر ذلك في النقوش والرسومات التي اكتشفت في المناطق التي سكنوها ، فقد ظهر في إحدى الرسومات المصاحبة لأحد النقوش منظر لرجل مع محراث تجره حيوانات كما وردت كلمات تدل على العمل بالزراعة مثل أكار : فلاح ، عيان : سكة المحراث) ، (رال : القش) ، ووردت أسماء نباتات مثل (ورد ، كما ، كرمة) ، بل لقد كانت الزراعة هي الأساس الاقتصادي في انتعاش وتطور الحياة في مدن بلاد الشام[٦]

---

[١] زبيدة ، الحياة الاقتصادية ، ص ١٣٣ .
[٢] المرجع نفسه ، ص ١٥٥ .
[٣] المرجع نفسه ، ص ١٧١ .
[٤] المرجع نفسه ، ص ١٧٥ .
[٥] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٨٣ .
[٦] العيسى ، سالم ، تاريخ الغساسنة ، عيسى سليمان. دار النمير للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٧ ، العيسى : تاريخ الغساسنة ، ص ٢٩ .



ويمكن التعرف على أهم الأدوات الزراعية في بلاد الشام[1]:

١-المحراث الخشبي .　　　٢- لوح الدراس / النورج .

٣-المنجل .　　　٤- المذراة .

٥- المجرفة .　　　٦-الوتد .

٧- العربة الخشبية .　　　٨-الغربال .

ومن الأشجار في بلاد الشام :

الأشجار المثمرة : أشجار تمتاز بطيب ثمرها مثل (أشجار الفواكة)

اللوزيات : (اللوز ، الجوز ، الفستق الحلبي) .

أشجار النخيل : ينمو في المناطق الرطبة والمناطق المرتفعة الباردة[2].

الأشجار غير المثمرة : تصنع منها الأخشاب لصناعة السفن وغيرها من الصناعات .

وفيما يتعلق الثروة الحيوانات[3] ، اهتمت الشعوب القديمة بشكل عام بتربية أنواع من الحيوانات التي كانت تعتمد عليها في شؤون حياتها المختلفة، مثل الأبقار والأغنام والماعز، واعتموا بتربية الحيوانات الأليفة: (الخيول / الكلاب / الجمل / الضان والماعز / الحمار/ البقر).

ونشط الصيد[4]، ومن أشهر مناطق الصيد في بلاد الشام منطقة (منبج / هيرابوليس) في الأطراف الشمالية من بلاد الشام ، وفي المنطقة البادية الممتدة ما بين تدمر إلى واحة الأزرق .

أنواع الصيد: (صيد البر / صيد البحر)[5] .

كما نشط الرعي، وهو ما ترعاه الراعية ، والراعي هو الذي يتولى أمر الماشية التي ترعى ، ويقال للذي يجيد رعية الإبل (ترعاية) و (ترعى) ، أو هو الحسن الارتياد للكلأ للماشية ، تعتبر قطعان المواشي من المناظر المألوفة في المناطق غير المأهولة في بلاد الشام ، حيث توجد في السهول الخصبة ، وترعى بين الصخور ، وعلى منحدرات الجبال و في البراري ، وتخضع المواشي لمراقبة الرعاة الذين يقومون بقيادة القطيع نحو المراعي الجديدة باستمرار ، طمعها في تسمين مواشيهم[6] .

ويقسم الرعاة إلى أقسام :

(رعاة الإبل وهم المتعمقون في الصحراء / رعاة البقر والخيل وهم لا يبتعدون عن الماء كثيراً، رعاة الأغنام يقومون برعايتها في الحقول والبراري المحيطة بالقرى والمدن)[7] .

---

(١) زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٩٣ .
(٢) المرجع نفسه ، ص ١٠٢ .
(٣) المرجع نفسه ، ص ١١٥ .
(٤) زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ١٢١، ١٢٨ .
(٥) الباشا، عبد الرحمن رأفت ، الصيد عند العرب ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، دار النفائس ، بيروت ،لبنان، ١٩٨٣، ص ٦٧. وسيشار اليه ، الباشا ، الصيد عند العرب
(٦) ليلى، القسطنطينية، ص ١٧٧، ١٨١ .
(٧) الباشا ، الصيد عند العرب ، ص ٧٥



الإصلاحات الزراعية في الدولة البيزنطية:

كانت بلاد الشام ولاية واحدة في أيام الفرس (٥٣٩-٣٣٢ ق . م) وكانت الإدارة الفارسية حريصة على أن تترك للسكان وتجمعاتهم الكثيرة شيئا من الحرية الذاتية في تصرفهم الإداري؛ فالوالي كان له الإشراف العام والتأكد من تحصيل وجمع الضرائب المفروضة[١] ، وكانت مدينة آيلة (العقبة) تشكل جزءا من المنطقة الجنوبية من بلاد الشام[٢]، بالإضافة إلى عمون (عمان) و بيلا (طبقة فحل) ودمشق ، أما مدينة البترا فكانت تشكل جزءا من الجهة الشرقية من الدولة الفارسية ، بالإضافة إلى تدمر.

يلاحظ أن الإصلاحات السياسية والإدارية في القرن الرابع الميلادي، عملت على تحسين وتقوية البناء السياسي والعسكري في الإمبراطورية البيزنطية ، وتركزت السلطة في أيدي ملاك الأراضي، الذين استغلوا أوضاعهم الاجتماعية الجيدة ، واستفادوا من الإعفاءات الضريبية على أراضيهم ومنتجاتهم ، ويمكن أن نفهم التنظيمات والتقسيمات الإدارية للأقاليم في فلسطين وجنوبي الأردن، من خلال إعادة التنظيم الإداري الذي تم في الإمبراطورية الرومانية خلال هذه الفترة.

ووصلت المنطقة إلى أوج نشاطها الاقتصادي، وزاد عدد السكان بشكل ملحوظ، مما حدا بالسلطات البيزنطية إلى تقسيمها إلى أربع ولايات، ضمت معظم المناطق الموجودة – حاليا – في الأردن.

تعتبر فترة الحروب الصليبية عاملا مساعدا له أهميته في زيادة التعامل التجاري بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام؛ فعلى إثر إقامة الفرنج في بلاد الشام أتيحت لهم الفرصة لتزداد معرفتهم بمنتجات الشرق وسلعه، مما أدى إلى تزايد ملحوظ إقبالهم عليها، بل وتطلع الكثيرون من أبناء الغرب الأوروبي ببلدانه المختلفة للحصول على هذه السلع كما استطاع المسلمون الغرب الأوروبي الحصول على منتجات الشرقين الادنى والاقصى ، كما استطاع المسلمون الحصول على احتياجاتهم من الغرب الاوربي وبخاصة من الاخشاب والمعادن وعلى هذا الاساس فان احتياجات كل طرف منهما إلى السلع أصبح في الإمكان الحصول عليها عن طريق الطرف الاخر مما أدى بالضرورة إلى قيام تعامل تجاري بينهما.

الثروة المائية :

تتمثل هذه الصفة السائدة في مناخ بلاد الشام في تناوب فصلي المطر والجفاف ، فيبدأ فصل المطر من نهاية شهر تشرين الأول حيث تهطل لمدة يوم أو عدة أيام ، وتسمى هذه الأمطار بالأمطار المبكرة أو حسب المصطلحات العامية للمزارعين الوسم ، وتأخذ الأمطار بالازدياد لتبلغ ذروتها في شهري كانون ثاني وشباط ، وفي معظم فصول الشتاء تتساقط الثلوج والبرد ، ثم تأخذ الأمطار بالتناقص حتى تنتهي تقريبا في منتصف نيسان في حين يشمل فصل الجفاف بقية أشهر السنة ، وينطبق هذا النمط المناخي على بقية منطقة البحر الأبيض المتوسط ، والسبب في ذلك هو وقوعها بين منطقتين مناخيتين مختلفتين : منطقة الرياح التجارية الجافة أو الصحراء الإفريقية في الجنوب ومنطقة الرياح الغربية في الشمال والتي تكون محملة بالرطوبة التي تجلب المطر طوال السنة من المحيط الأطلسي إلى أوروبا الوسطى والشمالية وهي تشكل في فصل الشتاء الرياح السائدة في بلاد الشام ، أما في الصيف فان منطقة الحر تنتقل إلى الشمال من خط الاستواء ، لتصبح المنطقة خلال أشهر عديدة خاضعة لمناخ جاف قاحل شبيه للمناخ السائد في الصحراء الكبرى[٣] .

---

[١] زيادة ، التطور الإداري ، ص ٩٩ .

[٢] النصرات ، محمد ، تاريخ جنوبي الأردن في الفترة البيزنطية من وادي الحسا شمالاً حتى خليج أيلة (العقبة) جنوبا (٣٢٤- ٦٣٦م) ، المجلة الاردنية للتاريخ و الاثار ، م٣ ، ع ٢ ، الاردن ٢٠٠٩م ، وسيشار اليه ،النصرات ، تاريخ جنوبي الأردن ، ص ١٤٦ .

[٣] المرجع نفسه ، ص ٨٨ .



التجارة في بلاد الشام في العصر البيزنطي :

لعبت التجارة دوراً هاما في الحياة الاقتصادية لبلاد الشام في العصر البيزنطي؛ فكان لموقع بلاد الشام الجغرافي الهام كبير في جعلها مركزا لعبور التجارة بين قارات العالم القديم ، فاستفاد سكانها من العلاقات التجارية التي كانت قائمة بين شعوب وبلدان العالم القديم ، كجزء من منطقة غرب آسيا فقد تمتعت بلاد الشام بأهمية بالغة كعقدة مواصلات بين قارات العالم القديم[١]، بالإضافة إلى عملية التبادل التجاري ، كانت هنالك عمليات تبادل ثقافي واختلاط اجتماعي عن طريق ما كان يتم جلبه من رقيق من كلا الطرفين (تجار بلاد الشام وتجار[٢] الجزيرة العربية) ، مما أدى إلى دخول الجنس الأبيض (رقيق الروم والصقالبة والقوقاز) والجنس الأسود (رقيق افريقيا)، في كلا المجتمعين (مجتمع بلاد الشام والجزيرة العربية)[٣].

طرق المواصلات في بلاد الشام :

الطرق البرية :

طريق الحرير : من أهم طرق التجارة في العالم القيدم ، وهو شريان تجاري يربط مدينة (لويانغ) على النهر الأصفر مع موانئ البحر الأسود وموانئ البحر المتوسط ، وبقي هذا الطريق يستخدم لعدة مئات من السنين كطريق رئيس للتجارة بين قارات العالم القديم الثلاث (آسيا ، افريقيا ، أوروبا) ومن خلاله تم تبادل السلع والثقافات بين الشعوب الواقعة في مساره، حيث انه ربط حضارات العالم القديم في المناطق التي مر بها وبين حضارات (الصين، والهند، وبلاد بابل ، وبلاد اليونان ومصر)[٤] .

طريق الهند : وجدت ثلاث من طرق التجارة الرئيسية التي ربطت بين الهند والغرب ، ومن الطرق الرئيسية التي كانت تربط بين الهند وبلاد الشام :

عبر باكستان إلى بحر قزوين .

طريق الخليج العربي التي كانت تنطلق من مصب نهر أندوس إلى نهر الفرات.

طريق دائري عبر الخليج العربي والمحيط الهندي إلى عدن ، وعبر البحر الأحمر إلى ميناء السويس ، ومنها يسير في اتجاهين احدهما إلى مصر ، والأخر إلى صيدا و صور[٥].

الطريق البري عبر الممرات الهندية إلى بلخ ومنها :

أما عن طريق نهر اوكسوس النهر بالحد الفاصل بين كل من أفغانستان وطاجكستان إلى بحر قزوين ومنه إلى اوكسين في بلاد اليونان .

أو عبر طريق القوافل البري حيث تعبر القوافل صحراء كرمان إلى الممرات الشمالية لبحر قزوين وصولاً إلى أنطاكية عبر طريق المدائن.

---

(١) رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج٢ ،ص ٢٦ .
(٢) زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ١٩ .
(٣) الخرابشة، ممدوح عبد الحليم ، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي القرن ، ٣، ٧م، رسالة ماجستير غير منشورة ، اشراف محمد خريسات ، الجامعة الأردنية ،٢٠٠٣ ، ص٦٠ ، وسيشار إليه لاحقاً ، الخرابشة ، استقرار القبائل العربية .
(٤) زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٤٣ .
(٥) المرجع نفسه، ص ٤٥ .



طريق آسيا الصغرى : أن الطرق الرئيسة فيها تسير عبر نيقيا إلى ملاقينا ثم إلى دوري ليون ثم إلى قيسارية وملاطية ، ثم تتجه جنوبا عبر سوريا من خلال بوابات قليقية ثم إلى الحدود العربية.

طريق البخور /١ : طريق ينطلق من اليمن باتجاه الشمال بمحاذاة البحر الأحمر ، ويعد طريق البخور طريق قوافل داخلي عظيم يبدأ من جنوب الجزيرة العربية قاطعا إياها شمالا حتى دمشق ، ثم يتابع سيره شمالا ليصل إلى حلب وأنطاكية ، ومنها إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط .

طريق البخور : يقع على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية عبر الحدود الشمالية لمنطقة سبأ ، إلى مكة ، شمالا إلى (ديدان / العلا) ، ومنها إلى مدين ثم إلى أيله (العقبة)[١] .

الطريق من مكة إلى فلسطين : من الطرق التي كانت تربط بلاد الشام بالجزيرة العربية[٢] وهي نفس طريق الحج الشامي لاحقا[٣] ، وكان يسلكها تجار مكة في طريقهم إلى كل فلسطين ، دمشق ، وبعض موانئ البحر المتوسط الشامية مثل غزة وصور[٤] .

طريق عرضي يمتد في أقصى شمال شبه الجزيرة العربية : يمثل هذا الطريق امتدادا صحراويا لطريق تجاري يبدأ من الرمادي على نهر الفرات ، ويسير بمحاذاة النهر حتى منطقة (أبو كمال) على نهر الفرات ، ثم تمتد غربا إلى تدمر ومن هناك إلى حمص .

طريق تراجان : أشهر طرق التجارة في بلاد الشام[٥].

الشروط الواجب توفرها في طرق التجارة البرية :

توفر المياه العذبة لتزويد القوافل بالمياه اللازمة .

ابتعاد الطريق عن المناطق الجبالمحمية،ية ، لتسهيل التنقل والحركة وتوفر الأمن[٦].

توفر الحصون والقلاع والمواقع المحمية ، لحماية القوافل من الهجمات المفاجئة من قطاع الطرق ، أو القبائل الواقعة حول الطريق .

وجود الحمامات والفنادق، أو الخانات التي تقوم بتقديم خدمات الاستراحة للقوافل والمبيت للمرافقين عند الحاجة.

---

[١] النقر، عبد الحافظ، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي، دار الموسوعات، بيروت، ص ٢١ ، وسيشار إليه لاحقاً: النقر، التجارة الداخلية والخارجية .

[٢] الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الأمم والملوك ، ج ١٣ ، طبعة جديدة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩ ، ج٤ ، ص٢٨ ، وسيشار إليه : الطبري ، الأمم والملوك .

[٣] درادكة : صالح ، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية ، ط١ ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٧ .ص ٢٣، وسيشار إليه لاحقاً: درادكة، طريق الحج .

[٤] الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٩٥ ، و زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٤٧ .

[٥] المرجع نفسه ، ص ٤٨ .

[٦] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٥٤ .



الأحلاف التجارية تعد أهم الشروط جميعا ، لأنه عند انعدامها فانه لن يتوفر الأمن للقوافل على الطرق ومن أشهرها حلف (الإيلاف) بين قريش والإمبراطورية البيزنطية ، والقبائل الواقعة على طريقي تجارتها باتجاه الشام واليمن[١].

توفر الحراسة للقوافل التجارية خلال عبورها لطرق التجارة .

السلع المتداولة في تجارة بلاد الشام :

البخور واللؤلؤ والأحجار الكريمة من جنوب الجزيرة العربية وموانئ الخليج العربي و من الهند.

الثياب المترفة من بابل وبلاد ما بين النهرين[٢].

الأواني الزجاجية والفضة والذهب .

الخمور من دمشق ولبنان والمناطق المحيطة بأنطاكية .

التركواز واللازورد والأقمشة القطنية من حوض السند .

الصبغة والحرير والتوابل والفرو .

الفلفل من جزر المالبار .

النحاس من كالينيا بالقرب من بومباي .

المسك وفرو القندس من إقليم السند .

زيت الزيتون الذي كان ينتج ويصدر من أنطاكية ، وهو من الأسباب الرئيسة في الازدهار العمراني والتجاري في المدينة[٣].

صادرات بلاد الشام :

نتيجة العلاقات التجارية الواسعة التي كانت بين الإمبراطورية البيزنطية والمناطق المجاورة لها كان لا بد أن تقابل عمليات استيراد السلع إلى الأسواق في بلاد الشام عملية تصدير السلع التي كانت تنتج في المصانع أو المزارع الشامية إلى الأسواق الخارجية ، وشملت الصادرات المواد التي تنتج في المصانع والمعامل الشامية ، والورش الموجودة في المدن أو السلع التي يعاد تصنيعها في بلاد الشام بعد أن تستورد كمواد خام من مصادرها الأصلية ، كالحرير - ومن الصادرات أيضا الأرجواني اللامع ، والبنفسجي الغامق، وأزهار الشاطئ، والمزخرفات بالإشكال الحيوانية والرموز الدينية والتي كانت تصنع في الورش الحرفية البيزنطية والتي كانوا يتباهون بها ، والمصوغات الذهبية ، والعاج المنقوش والزجاج ، والجلود المصبوغة باللون الأرجواني، وفي نفس الوقت تم منع تصدير بعض من السلع الهامة كالذهب ، والملح ، والحديد والمعادن التي يمكن استخدامها في صناعة الأسلحة ، والأخشاب اللازمة لبناء السفن، وأي شيء يمكن أن يساعد أعداء الإمبراطورية البيزنطية ضدها[٤].

---

[١] المرجع نفسه ، ص ٥٥ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ٦٩ .

[٣] المرجع نفسه ، ص ٧٠ .

[٤] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٧٢ .



الضرائب :

الضرائب من أهم بنود النظام الإداري في الإمبراطورية البيزنطية على مر العصور ، وكانت أهم ضريبة يتم جبايتها هي ضريبة الأراضي ، التي كانت تقدر تبعا لمساحة الأرض ، وصلاحيتها للزراعة فقد كان الجزء الأكبر من الضرائب يقع على عاتق الزراعة ، ومعظم نفقات الدولة العسكرية ، والمدنية وصيانة شبكة الطرق تتحمله الزراعة ، وكان هناك ضرائب أخرى يدفعها سكان المدن منها رسوم وصولات الاستلام ، وضريبة على الأموات ، ورسوم المحاكم ، وفوق هذا كله كانت الدولة تتقاضى رسوما على البضائع المستوردة ، وكانت الضرائب تجبى من صغار المزارعين بنفس القدر الذي كان يدفعه كبار الملاكين من الطبقات الارستقراطية ، كما أن الفلاحين يتعرضون للاضطهاد من قبل جامعي الضرائب بالإضافة إلى أن المطلوب من الفلاح دفعة كان يزيد عن المقرر عليه[١]، كما كان يتعرض إلى عمليات الغش المتعمد ، والابتزاز ، والتلاعب بالأوزان والمكاييل ، والعملة ودفع ضريبة المكوس ، بالإضافة إلى الرسوم التي كانت تدفع للجباة[٢] .

النقود المتداولة:

اعتبرت الإمبراطورية البيزنطية نفسها استمرارا أو وريثا للإمبراطورية الرومانية التي سبقتها، إلا أنها اختلفت عنها في اعتبار الديانة المسيحية الرسمية لها ، واللغة اليونانية لغة الإمبراطورية الرسمية ، في حين لم يحدث هناك تغيير في العملة ، فقد بقي استخدام الرموز اللاتينية في النقد البيزنطي قبل القرن الرابع الميلادي ،وقد انعكس الاستقرار الذي أصاب النظام النقدي البيزنطي على التبادل التجاري ، ودفع الضرائب المقررة على السلع بالذهب ، حيث تم سك قطعة ذهبية سميت (سوليدوس) وفئات مختلفة من النقد الفضي ، والبلون (خليط من الذهب أو الفضة ومعدن رخيص) والبرونز ، إلا أن هذا النظام النقدي انهار في بداية القرن الخامس الميلادي عندما اجتاح القوط الغربيون الإمبراطورية البيزنطية[٣] .[٤].

خلال تاريخ النقد البيزنطي بقي (السيلودس الذهبي يزن ٤,٥٥ غرام) من الذهب الصافي هو وحدة النقد الرئيسة في النظام النقدي البيزنطي، وقد كانت قيمة القطع النقدية الأخرى تحدد بالنسبة إليه وكان يساوي أيضا (٧٢/١) من الباوند الروماني أو ٤٢ قيراط ، والقيراط يساوي (٠,١٨٩) غرام[٥] .

ونتيجة لازدهار العمليات التجارية والمصرفية بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام ، فان المدن الإسلامية قد عرفت إلى جانب العملات المحلية من الدينار الذهب والدرهم الفضة ثم بعد ذلك الفلس النحاس ، عرفت كثيرا من المعاملات الأجنبية وتنوعت النقود المتداولة فيها تنوعا مع العناصر والأجناس التي كانت تفد إليها حيث يؤكد لنا كثير من الرحالة الأوروبيين والحجاج المسيحيين الوافدين على البلاد لزيارة الأماكن المقدسة في كل من بلاد الشام ومصر ، يؤكدون أن العملات التي عرفت في الغرب الأوروبي كانت متداولة ومعروفة في كثير من مدن بلاد الشام ، مثل بيت المقدس، ودمشق ، وحلب، وغيرها[٦]، على سبيل المثال - أن العملات الفضية الألمانية والتي عليها علامة الصليب وهي من الفضة الجيدة كانت معروفة ومستعملة[٧].

---

[١] المرجع نفسه ، ص ٧٦ .

[٢] المرجع نفسه ، ص ٧٧ .

[٣] ربيع ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، ص٤١،٤٠ .

[٤] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٧٣ .

[٥] المرجع نفسه، ص ٧٤ .

[٦] ابن الشحنة : أبو الفضل محمد ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، د ط ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، سورية ، ١٩٨٤ ،ص٣١، وسيشار إليه لاحقاً: ابن الشحنة، الدر المنتخب .

[٧] كمال، العلاقات الاقتصادية ، ص ١١٧ .



الأسواق :

تركز النشاط الاقتصادي بجنوب بلاد الشام في الأسواق التي لعبت دوراً واضحا في حياة البلاد الاقتصادية في العصر البيزنطي – كغيره من العصور – فكانت مراكز البيع والشراء للسلع التي يحتاج إليها الناس؛ فليس من المنكق أن يقتصر التبادل التجاري بين بلاد الشام والمناطق المجاورة لها على محطات القوافل أو الموانئ البحرية فقط ، لذلك فقد أقيمت أسواق موسمية ، تقصدها القوافل التجارية من داخل وخارج الجزيرة العربية وبلاد الشام ، وبعض هذه الأسواق كان يقام في محطة معينة من محطات القوافل البرية أو البحرية[١] .

من أجل ضبط التعامل في الأسواق فقد وضعت الدولة البيزنطية تعليمات للأسواق ومنها :

انجاز المعاملات التجارية مع العرب على الحدود السورية .

تحديد عدد التجار في المدن السورية[٢] .

ج- وضع أي شخص غريب يدخل الأراضي البيزنطية تحت المراقبة[٣].

وجد في بلاد الشام العديد من الأسواق التجارية الهامة والتي توزعت في أنحاء مختلفة منها اذكر منها:

سوق دومة الجندل / (الجوف حاليا)[٤] :

دومة الجندل : بلدة تقع في نقطة متوسطة بين الشام والحجاز والمدينة المنورة على منتصف الخط الواصل بين العقبة والبصرة ، وهي تبعد عشر مراحل عن دمشق ، وكانت هذه البلدة محطة هامة من محطات القوافل التي تزود المسافر بما يحتاجه من الماء والغذاء[٥].

ومن السلع التي كانت تباع في هذه السوق (اللبان ، و المر ، و اللادن ، والعقيق اليمني ، والعطور ، والذهب ، والعاج ، وخشب الابنوس ، والرقيق ، والقمح المصري)[٦] .[٧]

سوق دير أيوب :

دير أيوب قرية في حوران من نواحي دمشق ، يزعم أنها كانت مسكن النبي أيوب عليه السلام[٨] ، وهي شمالي بصرى وغرب اذرعات (درعا) وتعرف اليوم باسم (شيخ سعد) وفيها عين ماء ، وسوقها هو أول أسواق الشام قياما[٩] .

---

[١] رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج٢ ، ص ٢٦.

[٢] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٥ .

[٣] سالم ،السيد عبد العزيز ،د ت ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان ، ص ٣٨٥ ، وسيشار إليه لاحقاً: سالم ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، سحاب ، إيلاف قريش ، ص ٢١٤ .

[٤] العاني ، حقي إسماعيل ابراهيم ، أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية قبيل وفي صدر الإسلام ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠، ص٤٧،٥٢ ، وسيشار اليه ، العاني ، أسواق العرب ، ابن حبيب ، المحبر ، ص ٢٦٣،٢٦٤ ، وسيشار إليه لاحقاً: العاني، أسواق العرب .

[٥] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٦ .

[٦] سحاب ، إيلاف قريش ، ص ٣٨٤ .

[٧] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٧ .

[٨] الحموي، معجم البلدان ، ج ٢ ، ص ٤٩٩ .

[٩] الإدريسي ، نزهة المشتاق ، ص ٢٨٦.



ج- سوق بصرى :

بصرى هي عاصمة حوران ومن اكبر مدن الشام قبل الإسلام ، وقد اشتهرت في العصر الجاهلي أكثر من دمشق؛ لأنها كانت محطة للتجار القادمين من الهند والحبشة واليمن (تجار طريق البخور)، ولأهميتها كمحطة قوافل كبرى عمل الرومان والبيزنطيين من بعدهم على تحصينها ، وجعلوا فيها حاميات قوية تقوم بمراقبة حركات القبائل داخل الصحراء ، وصد هجماتهم عن بلاد الشام[١].

د- سوق اذرعات (درعا) :

ذرعات بلد بالشام قرب البلقاء وعمان[٢] ، اسمها اليوم (درعا) ، تقارب بصرى بالأهمية ، كانت خاضعة للدولة البيزنطية وكان حكامها من عمال الروم ، والراجح أنهم من الغساسنة ، لان اذرعات كانت ضمن مناطق سيطرتهم ، كانت علاقات العرب التجارية بها مقاربة لعلاقتهم ببصرى ، اشتهرت بإنتاج الخمور[٣].

و- سوق طبقة فحل :

تعتبر طبقة فحل من أهم المدن اليونانية العشرة في بلاد الشام ، وهو اسم موضع في الشام كانت فيه الحرب بين المسلمين والروم[٤]، بعد دخول هذه المدينة تحت السيادة البيزنطية في القرن الرابع الميلادي عاد الازدهار لها بشكل تدريجي ، حيث قامت الدولة بوضع أساسيات للترابط الاجتماعي والأوضاع الاقتصادية مما أدى إلى ازدهار التجارة الدولية في ذلك الوقت ، وازداد عدد سكان طبقة فحل حتى وصل في القرن السادس إلى أعلى حد له في تاريخ المدينة ، بدا العنصر العربي وعلى وجه التحديد رجال القوافل بالاستقرار في المدينة ، وشاركوا بالنشاطات التجارية التي تجري فيها ، الأمر الذي أدى إلى زيادة الدور الذي لعبته طبقة فحل في التجارة الدولية في ذلك الوقت ، والتي كانت تأتي من الجزيرة العربية على شكل تجارة ترانزيت عبر طبقة فحل باتجاه سواحل وموانئ الدول الغربية[٥].

ز- أسواق دمشق :

دمشق البلدة المشهورة ، قصبة الشام[٦]، وهي جنة الأرض بلا خلاف ، لكثرة البساتين والورود فيها ، واشتهرت أسواقها بالنبيذ الحلبي ، والصوف الأبيض ، وكانت معبرا للقوافل والبضائع من البحر الأبيض المتوسط ومناطق الداخلية في بلاد الشام والعكس ، فمنها يأتي بالمشمش والبرتقال والمنسوجات كالقطن والحرير المزينة بالمطرزات، وصور الأزهار الموضوعة على خلفيات ناصعة ، كما اشتهرت بالسيوف الدمشقية التي امتازت بالحدة والمرونة التي تعتبر من أسرار صناعتها وبزخرفة الأخشاب والمعادن وتطعيمها بالذهب والفضة[٧].

---

[١] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٨ .
[٢] الحموي ، معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٢٣ .
[٣] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٢٩ .
[٤] الحموي ، معجم البلدان ، ج٦ ، ص ٣٤٠ .
[٥] زبيدة، الحياة الاقتصادية ، ص ٣١ .
[٦] الحموي ، معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ١٤٢٢ .
[٧] زبيدة، الحياة الاقتصادية، ص ٣٢ .



ح- أسواق القدس وأسواق جرش:

وارتبطت بعمليات التبادل بين المسلمين والفرنج في بلاد الشام على عصر الحروب الصليبية وجود نوع من الأسواق الإسلامية والصليبية على حد سواء[١] ، وهي ما يمكن أن تسميه بالأسواق الموسمية ، ومن تلك الأسواق ما كان يرتبط بقدوم الحجاج المسيحيين ، والذين يكثر تواجدهم وحضورهم للاحتفال بعيد الفصح في مدينة بيت المقدس ، حيث تشير كثير من المراجع أنه أمام الباب الرئيسي لكنيسة القيامة كان يوجد فناء كبير[٢] ، والذي كان يقام فيه سوق موسمي عند مقدم الحجاج المسيحيين ، وحيث تباع فيه الحلي والمسابح والصور الخاصة بالقديسين ، والتحف الشرقية التي يحرص كثيرون من أبناء الغرب الأوروبي على اقتنائها.[٣]

الأعمال المصرفية والصيارفة:

تطلب تطور الأعمال التجارية ، والمالية وازدهار عمليات التبادل الاقتصادي بين الدولة البيزنطية و الدول المجاورة ، تطلب وجود أعمال مصرفية تخدم المصالح التجارية لدى الطرفين ، حيث أن سبق لهم أن عرفوا الكثير من الأعمال المصرفية في مصر والشام والعراق وبلاد فارس، حيث احترفوا مهنة الصيرفة وكان التعامل المالي يتم في أسواق الصيارفة أو خانات الصرف، كما كان يطلق عليها أحياناً، على يد الصرافين أو الصيارفة؛ فيعطى التاجر للصراف منهم ، ويحصل منه على صك بما دفعه ، وكلما اشترى بضائع سدد ثمنها بهذه الصكوك محمولة على الصراف الذي يتعامل معه[٤] ، كذلك اصدر هؤلاء الصيارفة أو الصرافين خطابات الاعتماد الانتمائية أو " السفتجات " أو " السندات المالية المؤجلة الدفع " على آجال طويلة أو قصيرة ، حيث لجا كثير من التجار إلى النظام الأخير وهو السندات المالية المؤجلة الدفع على آجال[٥] .

النقوش و الكتابات القديمة البيزنطية في بلاد الشام:

المؤثرات التاريخية :عندما أعلنت المسيحية ديانة الرسمية ازدهر الفن البيزنطي وقد أخذت بيزنطة عن روما وعن الشرق الألوان البديعة وشاع استخدام القباب مع الأسقف المائلة .

العناصر الزخرفية والفنية البيزنطية:

العناصر النباتية: غلب عليها التلقائية والتبسيط والتحوير والتأثير الشرقي، فاستخدم أفرع وأوراق وعناقيد العنب، وأوراق الأكنش و الأنتيمون والزهيرة واللبلاب، ونباتية محورة[٦] .

العناصر الحيوانية سادها التحوير والتجريد والتبسيط الزخرفي، فاستخدم الحيوانات والطيور خاصة الحمام والطاووس والحملان وبعض الحيوانات الرمزية والأسطورية للدين المسيحي، كما استخدمت زخارف تمثل رجال الدين والقديسين والملائكة[٧].

---

[١] الأفغاني : سعيد ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦٠ . ص٤١، وسيشار إليه لاحقاً: الأفغاني، أسواق العرب .

[٢] موسى، معاهدة تجارية ، ص ٢٩٥ .

[٣] كمال، العلاقات الاقتصادية ، ص ٨٩ .

[٤] زكي ، نعيم ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ٢٠٠٣م ص ٣٤٢. وسيشار اليه ، زكي ، طرق التجارة الدولية.

[٥] كمال، العلاقات الاقتصادية ، ص ١١٣ .

[٦] صايغ ، سليم ، الآثار المسيحية في الأردن ، المطبعة الكاثوليكية ، عمان ، ١٩٩٦ ، ص ٦٧، وسيشار إليه لاحقاً: صايغ، الآثار المسيحية .

[٧] قاقيش ، رنده ، عمارة الكنائس وملحقاتها في الأردن في العهدين البيزنطي والأموي ، ط. ١ ، ٢٠٠٧، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ، الأردن ، ص٤٥، وسيشار إليه لاحقاً: قاقيش، عمارة الكنائس .



العناصر الهندسية : كثر الاعتماد على الوحدات الهندسية المبسطة، وتداخلت كثيرا مع الوحدات النباتية والحيوانية وكانت تعتمد على المربعات والمعينات والمثلثات والمستطيلات واستخدمت في زخارف الأرضيات وأسفال الجدران.

العناصر الرمزية : ظهرت رموز دينية كثيرة أهمها الحمامة والصليب، ورمز للروح برسم الطاووس وأنواع غريبة من المسخ والوحوش والحيوانات الخرافية[١].

السمات والخصائص الفنية المميزة للفن البيزنطي:

فشيدت المباني من الحجر وكسيت بالملاط لتسهل زخرفتها أو تطعيمها بالفسيفساء - شاع استخدام القباب وغطيت بصور الافرسك أو الفسيفساء أو بالحفر الخفيف الملون.- حل طراز ونمط جديد يتفق مع مثاليات وحاجات الدين الجديد، وابتكرت وحدات ورموز جديدة ، واتجهت الزخارف بصفة عامة إلى البساطة والتحوير وكثر تداخل الأشكال الهندسية المضفورة والمجدولة اتجهت الألوان البيزنطية نحو الهدوء والوقار، والتسطيح وقل استخدام التدرج اللون[٢].

كان الذهب أكثر الألوان شيوعا واستخداما في الأرضيات للنقوش، كما استخدمت رقائق الفضة وفوقها نقوش مزدانة بالأزرق والأخضر السندسي والأبيض الناصع والأحمر الزنجفري ، وقد وضعت هذه الألوان بعد تحديد الزخارف بحد من اللون الأسود وقد استخدم اللون الأحمر والأسود العميق، والبيج المحمر لم يزد عدد الألوان المستخدمة عن أربعة ألوان إلا نادراً[٣].

الفنون البيزنطية :

العمارة البيزنطية : شيدت المباني من الحجر أو من الطوب و اكتست الأسطح بالملاط أو تطعيمها بالفسيفساء أو بشرائح الرخام الملونة. كما شاع استخدام القباب فوق طبلات ترفعها الأسقف وتنيرها في الوقت نفسه وهذه القباب تحملها تواشيح لعرض الألوان الجذابة في صور الفرسك أو الفسيفساء.

فن النحت والحفر البيزنطي : يخلو الفن البيزنطي من التماثيل المنحوتة أما الأشكال الآدمية فقد زخرفت بالحز فوق أسطح الحشوات والأرضيات كلها غائرة عن منسوب الحفر.

فن التصوير :رفضت أغلب المذاهب المسيحية إقامة التماثيل، مما أدى إلى اتجاه الفن إلى أسلوب النقش والتصوير الملون لتسجيل صور أقطاب الدين والمناسبات والأحداث الدينية فأخذ الفن البيزنطي طابعا متميزا يتسم بهدوء وثبات الحركة تماما في رسوم أشخاصه الذين يكونون واقفين ومتجاورين وأنظارهم متجهة إلى الأمام تماما، وأخذت أوضاع أذرعهم وأيديهم وضعا ثابتا -أما الوجود فكانت صغيرة ومستديرة أو بيضاوية متجهة إلى الاستطالة والعيون متسعة ذات خطوط مقوسة، ناظرة إلى الأمام في هدوء ، أما ثنيات وطيات الملابس فبدت الخطوط وعلى أبعاد ومسافات رتيبة ومتجاورة.- فاستخدام بالفريسكو، وأسلوب التمبرا وأسلوب الشمع وأسلوب الرسم على أرضية مذهبة لتنفيذ الرسوم.

فن الزخرفة البيزنطية : وظهرت أنواع مختلفة من التيجان والطبالي الحاملة للعقود صنعت من الرخام أو من الحجر.

---

(١) مانجو ، سيريل ، العمارة البيزنطية ، ترجمه رنده قاقيش ، سوريا ، ١٩٩٩، ص ٨٧، وسيشار إليه لاحقاً: مانجو، العمارة البيزنطية .

(٢) عاقل ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص٤٣

(٣) قاقيش ، عمارة الكنائس ، ١٢١



الحرف والفنون التطبيقية البيزنطية:

أشغال الرخام :واستخدام الرخام بسخاء لتكسية الجدران و الأرضيات ومنه ما زخرف بأنواع الرسوم الهندسية من الأشكال الرباعية المختلفة أو الدوائر المنسقة مع سائر التصميم وغالبا ما أحيط الرخام الملون برخام أفتح منه لونا وقد ظهرت أمثلة من الرخام المطعم بالألوان[١].

الفسيفساء : كانت القباب والتواشيح والحنايا أنسب الأماكن للفسيفساء مستخدما الرسوم الآدمية أو الحيوانية ومن رسوم الطير وتألقت الفسيفساء بالذهب والألوان الأخاذة لإكساب المكان فخامته المطلوبة أما المشغولات العاجية تمثل تماثيل صغيرة وأيقونات وزخارف فوق أغلفة الإنجيل التي يحلي بعضها بالأحجار الكريمة[٢].

المنسوجات :عرف منسوجات الحرير والكتان وألياف القنب وقد زخرفوا أرديتهم بوسائل وأساليب متنوعة مثل الكنارات المنسوجة، التطريز خاصة الملابس الكهنوتية والمخرمات[٣].

---

[١] **صايغ ،الآثار المسيحية ، ص ٧٩.**

[٢] **مانجو ، سيريل ، العمارة ، ص ٤٣**

[٣] **قاقيش ، عمارة الكنائس ، ص ١٣٢**



الخاتمة:

التاريخ البيزنطي تاريخ طويل و متنوع شمل العديد من الثقافات و الامم و حاول بكل قوة ان يقدم حضارة متكاملة متجانسة، ففي أوائل القرن السادس الميلادي، تعرّضت سورية لخطر التوسع الفارسي. وحاول أباطرة بيزنطة، الوقوف ضد هذا الخطر في عهد الإمبراطور جوستنيان (٥٢٧-٥٣٢م)، وقد دوّن المؤرخ السوري «بروكوبيوس» من قيسارية معلومات هامة عن تلك الأحداث، التي بلغت ذروة خطرها في عهد كسرى أنوشروان و تعد هذه بداية كتابات التاريخية البيزنطية في المشرق، إذ عاشت الإمبراطورية البيزنطية لأكثر من ألف سنة، منذ القرن الرابع وحتى ١٤٥٣. خلال الجزء الأكبر من وجودها، كانت واحدة من أقوى القوى الاقتصادية والثقافية والعسكرية في أوروبا على الرغم من النكسات وفقدان الأراضي وخصوصا خلال الحروب الرومانية الفارسية والبيزنطية العربية .

وكانت الثقافة التقليدية اليونانية الرومانية خلال منتصف القرن السادس الميلادي، لا تزال مؤثرة في الإمبراطورية البيزنطية ومن أعلامها البارزين الفيلسوف الطبيعي يوحنا فيلوبونوس. مع ذلك، كانت الفلسفة والثقافة المسيحية سائدة وبدأت تحل محل الثقافة القديمة، و طابع تلك الفترة يمكن ان نستنتجه من الكتابات التاريخية حيث اهتمت المصادر التاريخية العربية بالتأريخ للمعارك والفتوحات الإسلامية بجنوب بلاد الشام و ما حدث فترة البيزنطينين من تطورت و تغيرات تمس المجتمع و المنطقة و أبرز الاخبار التي تناولت موضوع مراسلات النبي عليه الصلاة و السلام والغزوات والفتوح التي حدثت بين المسلمين والبيزنطيين وما نتج عنها وما تبعها من احداث .

شهدت الإمبراطورية البيزنطية حركة ادبية كبيرة خاصة في مجال التدوين التاريخي، اختلفت قوتها خلال الفترة الممتدة ما بين (٢٨٤ – ١٤٥٣ م)؛ فتارة تكون قوية بالعديد من الكتابات، وتارة أخرى تكون ضعيفة لا ترقى إلى مستوى الكتابات التاريخية الكلاسيكية في العصر الروماني، ولكن في كل الأحوال لم يخل عصر أسرة من الأسر البيزنطية من كتاب الحوليات في عصرها الاوسط و تعتبر الكتابات اللاهوتية من المصادر المهمة في دراسة التاريخ البيزنطي، وتأتي كتابات أباء الكنيسة الأوائل و تعتبر بعض الكتابات الأدبية من المصادر المهمة التي يعتمد عليها المؤرخ في الحصول على بعض المعلومات، وهي سجل مهم لبعض الأحداث التاريخية، والاجتماعية، والدينية إلى جانب أنها تشكل جانبا مهما للغاية عن الفكر السائد آنذاك داخل المجتمع .

دأب العرب على أن يطلقوا على الآخر صفة المشرك أو العلج، أو صفة الحربي نسبة إلى دار الحرب؛ فأنهم استعملوا تسمية الروم للتعبير عن البيزنطيين، ووردت هذه التسمية في شعر ما قبل الإسلام، و اعتنى العرب إلى جانب المؤسسات السياسية بالمؤسسة العسكرية؛ لأسباب لا تخفى في عصر متميز بالصراع وتتالي الحروب، وتعتبر المعرفة العسكرية عنصراً من العناصر الضامنة الانتصار، أو المساعدة على ضمانه، لذلك نجد وصفا دقيقا للجند البيزنطي وتنظيمه وتوزعه في فضاء الإمبراطورية .

تمثل الكتابات السياسية أهمية كبيرة لكتابة التاريخ البيزنطي بصفة خاصة، فمن خلالها يمكن الاطلاع على التطور التاريخي والاداري للوظائف البيزنطية، سواء المدنية منها أو العسكرية

جرى تحول كبير من الغرب إلى الشرق، وتزايدت أهمية القسم الشرقي من الإمبراطورية من الناحية البشرية والاقتصادية والثقافية، حين غدت سورية تابعة لهذه الإمبراطورية البيزنطة وقد قسمت إدارياً إلى ثلاث مقاطعات هي: سورية وفينيقية وفلسطين وكان لانتشار المسيحية في سورية وبلاد شرق البحر المتوسط، أثر كبير في تطور العالم المسيحي في اتجاهين: إغريقي في المدن الساحلية، وسرياني في الداخل، الى ان قاد المسلمون الفتوحات الاسلامية و نشر الاسلام في جنوب بلاد الشام و اصبحت تحت حكم الخلافة الاسلامية .



قائمة الملاحق



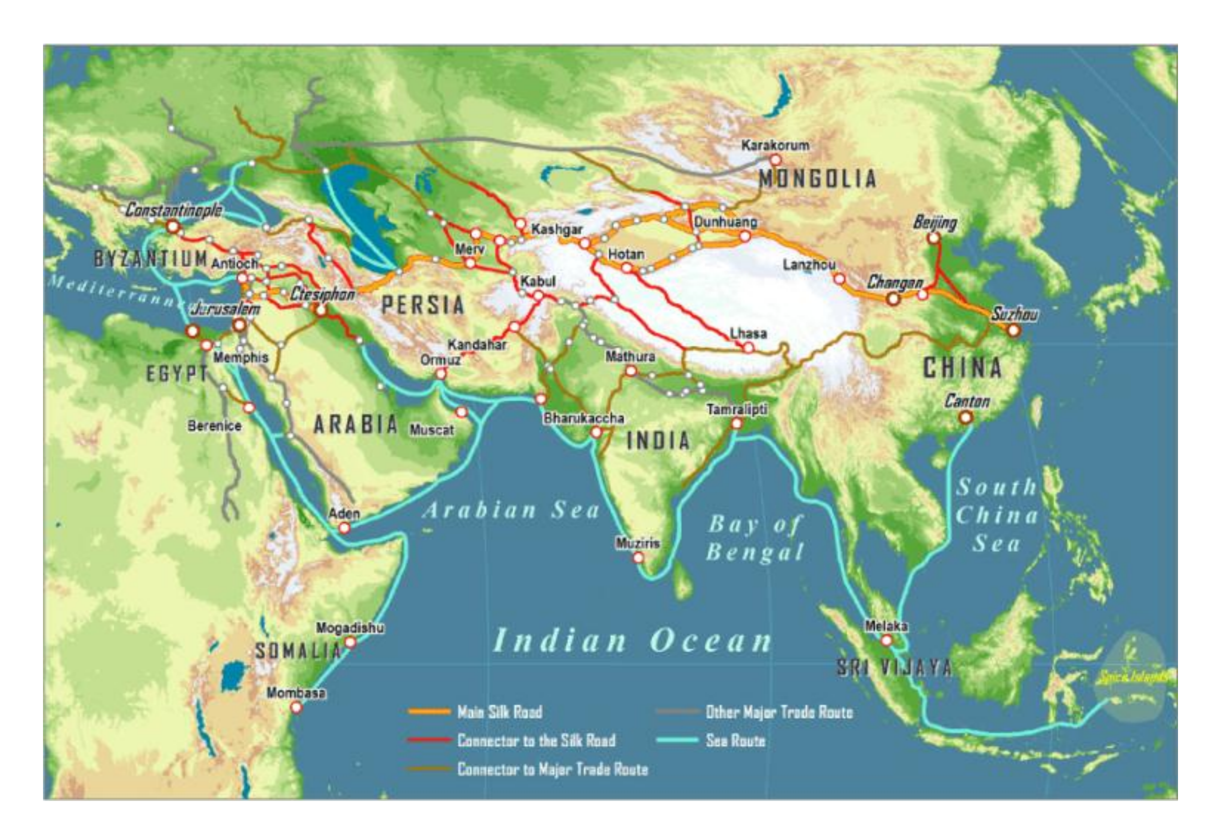
ملحق رقم (١)

خارطة دولة البيزنطية في القرن السادس ميلادي "Europe and the East Roman Empire, 533-600 A.D

Jean-Paul Rodrigue , New York: Routledge,2017, 440 pages. ISBN

ملحق رقم (٢)

الطرق التجارية في الدولة البيزنطية



Jean-Paul Rodrigue , New York: Routledge,2017, 440 pages. ISBN



قائمة المصادر والمراجع الحديثة

قائمة المصادر :

القرآن الكريم :

إبراهيم، الحسن بن أحمد بن ،ت٣٦٠هـصفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ،١٩٨٩م

ابن إسحاق.محمد بن إسحاق ،١٥١هـ ، السيرة النبوية ، تحقيق مصطفى عبد الواحد ، ط٣ ، بيروت ، ١٩٨٧م .

ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري ،ت ٦٣٠ه/١٢٣٣م،الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٠م م

ابن الأثير، عز الدين بن الأثير(ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣ م)، أسد الغابة في معرفة الصحابة ، ج٣، دار الكتب العلمية، تحقيق علي عوض،

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي البغدادي ،ت ٥٩٧ه/ ١١٨٣م،المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، الهند، حيدر آباد الدكن، مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٣٥٧-١٣٥٩ه

ابن الشحنة : أبو الفضل محمد ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، د ط ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، سورية ، ١٩٨٤

ابن العبري ، تاريخ الزمان ، ترجمة ، الاب اسحق ارملة ، تقديم ، جان موريس فييه ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٨٦ م

ابن العبري، أبو الفرج جمال الدين، تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار المشرق، ١٩٥٨م

ابن الفقيه أبو بكر محمد بن إبراهيم،ت٢٩٠هـمختصر كتاب البلدان، تحقيق: دي غويه، مطبعة بريل، ليدن،١٨٨٥م

ابن النديم، أبو الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق ، ت ٣٨٠هـ٩٩٠م ، الفهرست ، ط٢ ، ضبطه وشرحه وعلق عليه : يوسف علي القوبل ، وضع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية ،بيروت ، ٢٠٠٢

ابن تميم : شهاب الدين أبو محمود ،ت ٧٦٥ هـ ، ١٣٦٣ م، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، تحقيق أحمد الخطيمي ، ط١ ، دار الجيل بيروت ، لبنان

ابن جبير ، ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أبو الحسين (المتوفى: ٦١٤هـ)، رحلة ابن جبير ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ٢٠١٠م

ابن حبيـب، محمد بن حبيب بن أمية ،ت٢٤٥هـ،المحبـر، تحقيق أيلزة ليختن شتيتر، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت.



ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين احمد أبو العلى،ت٨٥٢هـ الإصابة في تمييز الصحابة ، تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، ، دار الكتب العلمية، بيروت ، ١٤١٥هـ

ابن حزم ، علي بن أحمد ،ت ٨٥٤هـ جمهرة أنساب العرب ، مكتبة مشكاة، ٢٠٠٦

ابن حوقل ، ابو القاسم محمد بن علي الموصلي ، ت ٣٦٧ هـ ،٩٧٧ م ، كتاب صورة الارض ، دط ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٩٢

ابن خلدون ، عبد الرحمن ت ٨٠٨هـ \ ١٤٠٥م ، تاريخ ابن خلدون ، العبر و ديوان المبتدأ والخبر ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت

ابن رسته، أحمد بن عمر ابن رستة، الأعلاق النفيسة ، دار صادر ، 1892م

ابن سعد ، محمد ،ت ٢٥٣هـ الطبقات الكبرى ، ط١ ، بيروت ١٩٥٨

ابن سيد الناس ، أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري ت ٧٣٤هـ عيون الأثر، المحقق: محمد الخطراوي - محي الدين مستو، د،م، د. ت .

ابن شداد ،عز الدين أبو عبد الله بن علي بن إبراهيم الحلبي ت ٦٨٤ هـ ، الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٩٦٢ م

ابن عبد البر، ألنمري ،ت٤٦٣هـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المحقق: علي محمد البجاوي، دار الجبل، بيروت، ١٩٩٢م

ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسين ،ت٥٧١هـ ١١٧٥ م،تاريخ مدينة دمشق، وذكر فضلها وتسمية من خلها، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، ٨٠ج، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، د.ت .

ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل ،ت ٧٧٤هـ ،السيرة النبوية ،دار المعرفة ،بيروت ، د.ت.

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، ت ٧٧٤ه/١٢٧٢م،البداية والنهاية، مطبعة السعادة، ط١، مصر، ١٩٣٢م

ابن هشام ، عبد الملك بن أيوب الحميري المعافري ،ت ٢١٣هـ السيرة النبوية ، ط ١ ، تحقيق طه عبد الرؤوف ،دار الجيل ، بيروت ، ١٤١١هـ

أبو دية، سعد، معان، دراسة في الموقع، استعراض تاريخ المدينة السياسي وأثر الموقع فيه منذ عهود معين وسبأ وحتى اليوم، ط١، د.ن، ١٩٨٤م

الإدريسي : محمد بن محمد بن عبد الله الحمودي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مجلد ٢، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د ط ، د ت

الازدي ، فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، ط .القاهرة ، ١٩٧٠ م

اسحق، عبيد ، شمس العرب تسطع على أرض النيل ، ضمن كتاب أثر الإسلام في مصر واثر مصر في الحياة العربية الاسلامية ، قاسم عبده ، ط.القاهرة ١٩٩٩



الأصفهاني ، حمد بن محمد المرزوقي ت ، الأزمنة والأمكنة، ج٢ ، ط١ ، مطبعة مجلس دائرة المعارف ، حيدر أباد الدكن ، الهند ، ١٩١٢

الأصفهاني، حمزة بن الحسين ،٣٦٠هـ٩٧١م،تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦١م

الأصفهاني، عماد الدين ، ت ٥٩٧هـ \ ١٢٠٠م ، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت، منشورات دار الأفاق الجديدة، ط٢، ١٩٧٨م

الأنصاري، أبو عبد الله محمد بن على بن احمد بن حديده، ،ت٧٣٨هجرية، المصباح المضيء في كتاب النبي الامى ورسله إلى ملوك الأرض وعجمي ، ط١، بيروت

البخاري ،محمد بن إسماعيل،٢٥٦هجرية، الجامع الصحيح ، ط٣، بيروت ، ١٩٨٧ ،

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر بن داود ،ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م،فتوح البلدان ، ط ،بيروت ١٩٥٨

الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله ،ت ٦٢٣٠هـ معجم البلدان، بيروت، دار صادر، ١٩٨٦

خسرو ، سفر نامة ، ترجمة: د. يحي الخشاب. تصدير: د. عبد الوهاب عزام. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب -الطبعة الثانية. ١٩٩٣

الخطابي ، أبو سليمان احمد بن محمد ، ت ٣٨٨ هـ معالم السنن، طبعه وصححه : محمد راغب الطباخ ، حلب ، المطبعة العلمية ، ١٣٥٢هـ١٩٣٣م

الراوندي ، محمد ، راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية، ترجمة إبراهيم أمين الشواربي وعبد النعيم محمد حسنين وفؤاد عبد المعطي الصياد، مراجعة ونشر إبراهيم أمين الشواربي ، د.م.ن، إصدار المجلس الأعلى للفنون والآداب، ١٩٦٠

الزرعي محمد بن أبي أيوب أبو عبد الله ،ت ٧٥١هـ زاد المعاد في هدى خيرالعباد،تحقيق شعيب الارناؤط مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٦

السيوطي ، جلال الدين ،ت ٩١١هـتاريخ الخلفاء، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧م

القزويني، زكريا بن محمد، آثار البلاد وأخبار العباد ، د ط ، دار صادر ، بيروت ، د ت

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ،ت٨٢١هـ١٤١٨م، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ١٤ج، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العربية، بيروت، ١٩٨٧م،

الأندلسي، الكلاعي، أبو ربيع سليمان بن موسى الأندلسي ،ت ٦٣٤هـ الاكتفاء بما تضمنه مغازي رسول الله ،ص، والثلاثة الخلفاء ، تحقيق محمد كمال الدين ،ط١ ، بيروت ، ١٩٩٧

ماجستير. سنة النشر: ٢٠٠١.

المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين ،ت٣٤٦هـمروج الذهب ومعادن الجوهر ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد،ط٥ـ دار الفكر ـ بيروت ١٩٧٣

المقدسي ، شهاب الدين أبو محمود ابن تميم ،٧٦٥هـ١٣٦٣م، مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام ، تحقيق أحمد الخطيمي ، ط١ ، دار الجيل بيروت ، لبنان



المقريزي ، أحمد بن علي بن عبد القادر العبيد المقريزي؛ السلوك لمعرفة دول الملوك، المحقق: محمد عبد القادر عطا (ط. العلمية)؛ دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م

يوحنا النقبوسي ، تاريخ مصر ، تحقيق عمر جابر، عين للدراسات، ٢٠٠٦م.

أبو راس ، محمد، الأنباط وعلاقتهم بالإمبراطورية الرومانية ، دار العلم، بيروت، ٢٠٠٤م

احسان، عباس ، تاريخ دولة الانباط ، بحوث في تاريخ بلاد الشام، دار الشروق، عمان، ١٩٨٧م

الارناؤوط، محمد ، معطيات من دمشق وبلاد الشام الجنوبية في نهاية القرن السادس عشر ، وقفية سنان باشا ، ط١ ، دار الحصاد للنشر والتوزيع ، دمشق ، سوريا ، ١٩٩٣

اسكندر، فايز نجيب ، بنيامين الاول البطريرك الثامن والثلاثون بين نهاية العصر البيزنطي وبداية الفتح الاسلامي لمصر ٦٢٣،٦٦٢ ، ضمن كتاب دراسات في تاريخ العصور الوسطى ، ط .القاهرة ، ٢٠٠٣

إسماعيل، حلمي محروس، الشرق العربي القديم وحضارته - بلاد مابين النهرين والشام والجزيرة العربية القديمة، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ١٩٩٧م

إسماعيل، ليلى عبدالجواد، الدولة البيزنطية في عصر الإمبراطور هرقل، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٨٥م

اسمت، غنيم ، تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، مصر ، ١٩٩٠

اسمت، غنيم، امبراطورية جستنيان ، دار المجمع العلمي، جدة ،١٩٧٧م.

الأفغاني : سعيد ، أسواق العرب في الجاهلية والإسلام ، ط٢ ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٦٠

أنيس فريحة، العرب والإسلام والخلافة العربية في القرون الوسطى، بيروت ،١٩٧٣م

الباشا، عبد الرحمن رأفت ، الصيد عند العرب ، ط٢ ، مؤسسة الرسالة ، دار النفائس ، بيروت ،لبنان ،١٩٨٣

باقر ، طه ، رشيد ، فوزي ، هاشم ، تاريخ ايران القديم ، جامعة بغداد ، ١٩٨٠

بتلر، ألفرد، فتح العرب لمصر ، ترجمة: محمد فريد أبو حديد بك، مكتبة مدبولي: القاهرة ، ١٩٩٦م

البحير : صلاح الدين ، الاردن ، دراسة جغرافية ، ط٢ ، لجنة تاريخ الاردن ، عمان ، ١٩٩٤

البدري، هلال، السياسة الخارجية للإمبراطورية الرومانية، دار المعرفة، ٢٠٠٤م

برو، توفيق ، تاريخ العرب القديم ، دار الفكر، ٢٠٠١م

البشدري، حسين محمد إبراهيم ، حق اللجوء في الشريعة الإسلامية من بلاد الإسلام إلى بلاد غير المسلمين. دار الكتب العلمية، ٢٠١٠

بيضون، إبراهيم: دولة الرسول في المدينة. بحث في كتاب تاريخ بلاد الشام، دار الأمل، اربد، ١٩٩٢

بينز ، نورمان ، الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب : حسين مؤنس ، ومحمود يوسف زايد ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٠

ترتون. الجزية في الإسلام، ط١، ،د.ت، د.م.



توفيق، عمر كمال ، تاريخ الامبراطورية البيزنطية، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ١٩٦٧م

جانسون ، هورستولدي ، تاريخ الفن ، ترجمه عصام التل ، الجزء الاول ، العالم الفديم ، عمان، ١٩٩٥.

جرومان، أدولف وآخرون ، التاريخ العربي القديم ، فؤاد حسنين ، القاهرة :١٩٥٨م

جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، ١٨ ج ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان . د.ت

الجنزوري، علية عبد السميع،. صفحة من تاريخ دولة الروم: العلاقات الإسلامية البيزنطية في فترة حكم النساء و أزواجهن ١٠٢٨،١٠٥٦ م- ٤١٩،٤٤٨ هـ ، بيروت

جواد ، علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط٢، بيروت ، ١٩٧٦

جوزيف، نسيم يوسف ، تاريخ الدولة البيزنطية ، ، ط١ .الاسكندرية ، ١٩٨٤ م

الجوهري، يسرى، الشمال الإفريقي ، الهيئة المصرية، الإسكندرية، ١٩٨٠م

حاطوم ، نور الدين وآخرون ، المدخل لدراسة التاريخ ، دمشق ،١٩٦٤

حتى، فليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ١٩٥٨م.

الحديثي ، قحطان عبد الستار ، والحيدري ، صلاح عبد الهادي ، دراستان في التاريخ الساسائي والبيزنطي ، منشورات جامعة البصرة ، ١٩٨٦

حسن ،كاظم دخيل. الصراع السياسي وأثره في الإصلاح القانوني في عصر الإمبراطور الروماني جستنيان ،٥٢٧-٥٦٥م، مجلة الآداب .

حسنين ، إبراهيم، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة، ١٩٩٧م

حسين، ابراهيم ، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، د ط ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، مصر ، ١٩٨٣م

الحسيني ، صدر الدين ، أخبار الدولة السلجوقية ، دار الآفاق ، بيروت ، ١٤٠٠هـ

الحلبي،علي برهان،ت١٠٤٤هـ السيرة الحلبية من السيرة الأمين والمأمون ، دار المعرفة،بيروت ١٤٠٠هـ

حمارنة، صالح، دور جذام في الفتوح الإسلامية، دراسات تاريخية، منشورات وزارة السياحة والاثار. الاردنية. ،. عمان. ، ١٩٨٦م

خربوطلي، شكران، شبه الجزيرة العربية والصراع الدولي عليها، دار رسلان، دمشق . د.ت

الخطيب ، محمد، أضواء على الإعلام في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، دار الفرقان للنشر والتوزيع، ١٩٨٧

خليل ، أميره محمد محمود، "الطوائف المسيحية فى بلاد الشام فترة الحروب الصليبية ،١٠٩٧،١٢٩١م،٤٩١،٦٩١ هـ ٢٠٠٧ م.

خميس، إبراهيم، دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة، ١٩٩٧.



درادكة : صالح ، طريق الحج الشامي في العصور الإسلامية ، ط١ ، عمان ، الأردن ، ١٩٩٧

الدرة ، محمود ، تاريخ العرب العسكري ، بيروت ، ١٩٦٤

دسوقي : محمد عزت ، القبائل العربية في بلاد الشام ، د ط ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٨

الدعجة، مهند نايف مصطفى ، حمص منذ الفتح العربي الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي. المنهل ، ٢٠٠٩.

رأفت، عبد الحميد ، " الرهبانية المصرية والسلطة البيزنطية " ، ندوة الدور الوطني للكنيسة المصرية عبر العصور ، اعداد وتقديم ، عبد العظيم رمضان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ٢٠٠٢ م

رأفت، عبد الحميد، الفكر المصري في العصر المسيحي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ٢٠٠٠م

رستم : أسد ، الروم وصلاتهم بالعرب ، ج٢ ، ط١ ، دار المكشوف ، بيروت ، لبنان ، ١٩٥٥

رستم، أسد، الروم في سياستهم ودينهم وثقافتهم وصلتهم بالعرب، جزءان، ط٢، بيروت، المكتبة البوليسية، ١٩٨٨م

رمضان، عبد العزيز، المجتمع البيزنطي، دار الحياة، ٢٠١٧م، ص ٤٢، ٥١ .

رمضان، عبد العزيز، سياسة بيزنطة التنصيرية تجاه العناصر العربية، مركز البحوث، جامعة القاهرة

رمضان، عبد العزيز، معايير اختيار المبعوثين البيزنطيين، مركز البحوث والدراسات، جامعة القاهرة

رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٩ م

زايد ، محمد، مصادر تاريخ العصور الوسطى : التاريخ البيزنطي جامعة الفيوم ، ٢٠٠٢.

الزبيري، مصعب ، نسب قريش – دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٩٨م

زكي، نعيم ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى)، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٣م .

زينب عبد المجيد، العلاقات السياسية والدينية بين الدولة البيزنطية وغرب أوروبا في الفترة من ١٠٧١-١١٠١ ميلادية. الزقازيق ، ١٩٨٥

سالم ،السيد عبد العزيز ،د ت ، تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، دار النهضة العربية ، بيروت ، لبنان

سعيد عبد الفتاح عاشور. تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار العلم للملايين، ٢٠١٥

سعيد عمران، السياسة الشرقية للأمبراطورية البيزنطية في عهد الأمبراطور مانويل الأول، الإسكندرية، ١٩٨٥م

السعيد، عصام، تاريخ العرب في العصور القديمة، الإسكندرية، ٢٠٠٨

سلامة، موسى. حرية الفكر وأبطالها في التاريخ ، دار ومطابع المستقبل بالفجالة والاسكندرية ومؤسسة المعارف ببيروت ، ١٩٣٥م.



سليم، أحمد أمين ، معالم تاريخ العرب قبل الإسلام ، بيروت، ب . ت

سليمان ، أحمد عبد الكريم، المسلمون والبيزنطيون في شرق البحر المتوسط، د ن ، القاهرة ١٩٨٢م

السيد، عبد العزيز سالم ، طرابلس الشام في التاريخ الاسلامي ، الاسكندرية ١٩٦٧ م

الشاعر ، محمد فتحي، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية ، مصر ، ١٩٨٩

شوقي ، احمد ، تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي ، دار المعارف ، د.م ، د.ت ج١

الشيخ، محمد: تاريخ الإمبراطورية، القاهرة: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٤م.

صايغ ، سليم ، الآثار المسيحية في الأردن ، المطبعة الكاثوليكية ، عمان ، ١٩٩٦

صبحي لبيب ،الفندق ظاهرة سياسية ، اقتصادية ، قانونية، مصر وعالم البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٨٦

الصفدي، هشام، تاريخ الرومان ، دار الفكر الحديث، بيروت، ١٩٦٧م

طارق، منصور محمد ، قطوف الفكر البيزنطي ، مصر العربية، القاهرة، ط٣، ٢٠٠٢م، ج١ ، دار مصر العربية للنشر ، القاهرة ،٢٠٠١م .

الطبراني، سليمان، المعجم الكبير ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، مصر ، د.ت.

الطبري ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك ، ج ١٣ ، طبعة جديدة ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٧٩

الطحاوى، حاتم عبدالرحمن حاتم. العلاقات الاقتصادية بين الإمبراطورية البيزنطية والمدن التجارية الإيطالية ١٢٠٤،١٠٨١، د.م، د.ت ،١٩٩٧م

ع ٢، الاردن ٢٠٠٩م

عاشور، سعيد عبد الفتاح، الحركة الصليبية: صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى - الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية – القاهر، د.ت.

عاشور. سعيد، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة، د.م، ١٩٧٦م

عاقل ، الامبراطورية البيزنطية : دراسة في التاريخ السياسي والثقافي والحضاري ، دمشق، ١٩٧٠

العبادي ، مصطفى، الإمبراطورية الرومانية ، النظام الإمبراطوري ، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨١

عباس، إحسان، تاريخ بلاد الشام من ما قبل الإسلام حتى بداية العصر الأموي ٦٠٠،٦٦١، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٠م

عبد الجابر ، عبد الله وآخرون، الجزيرة العربية واليونان وبيزنطة، دمشق : دار ومؤسسة رسالة، ٢٠٠٩

عبد الحميد ، رأفت، الفكر المصري في العصر المسيحي، مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٠م.

عبد الحميد ،رأفت، الصراع الدولي حول شبه الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي، مجلة المؤرخ العربي، ١٩٩٤م.



عبد الحميد، رأفت وطارق منصور ، مصر في العصر البيزنطي ، ٢٨٤،٦٤١، دار مصر العربية للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠١ م

عبد الحميد، رأفت، بيزنطة بين الفكر والدين ، مصر ، ٢٠٠٨ م

عبد الرحمن، نواف أحمد ، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر ، ممالك شمال الجزيرة ،عمان، ٢٠١٤م

عبد العزيز سالم وأحمد العبادي ، تاريخ البحرية الإسلامية ، بيروت ، ١٩٩٣م

عبد الله ، بكر، الجزيرة العربية، مطابع البيان، ط٣، الرياض، د.ت

العريني ، السيد باز، تاريخ الدولة البيزنطية1081 - 323 هـ ، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٢

العريني ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٦٨م

عطا، زبيدة ، الحياة الاقتصادية في مصر البيزنطية، دار الامين، مصر، ١٩٩٤م.

العظيمي ، محمد بن علي ،ت ١١٦١\٥٥٦م،تاريخ حلب منذ القرن الرابع الميلادي، تحقيق ابراهيم زعرور، دمشق، ١٩٨٤م

العلي ،جواد ،المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، الطبعة: الرابعة الناشر: دار الساقي ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م .

العلـي، صالح أحمد، محاضـرات فـي تاريـخ العـرب، ط٤، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٦٨م

علي، علي السيد، العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والصليبيين ، ط ١، عين لدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، ١٩٩٦م.

علي، محمد، خطط الشام؛ مكتبة النوري - دمشق؛ سنة النشر: ١٩٨٣؛

عمر، كمال توفيق ، مملكة بيت المقدس الصليبية ، دار العلم، بيروت، ط١، ٢٠٠٨م

عمران ، محمود سعيد ، حضارة الإمبراطورية البيزنطية ، مصر ، ٢٠٠٦

عمران، محمود ،معالم تاريخ الإمبراطورية البيزنطية مدخل لدراسة التاريخ السياسي والحربي، ط١، دار المعرفة الجامعية ٢٠٠٠م

العمروي، عمر غرامة، بلاد رجال الحجر، الرياض،١٣٩٨هـ

عوض ، مؤنس ، الامبراطورية البيزنطية،دراسة في تاريخ الاسر الحاكمة، بستان المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٧

العيسى ، سالم، تاريخ الغساسنة ، عيسى سليمان. دار النمير للطباعة و النشر و التوزيع، ٢٠٠٧

غنيم، اسمت ، امبراطورية جستنيان ، د ط ، دار المجمع العلمي ، جدة المملكة العربية السعودية ، ١٩٧٧

الفاسـي، هتون، الحيـاة الاجتماعيـة في شمـال غرب الجزيـرة العربيـة فـي الفتـرة ما بين القرن السـادس قبـل الميـلاد والقـرن الثـاني الميلادي، ط١، الرياض، ١٩٩٤م.



فتحي عثمان، الحدود الإسلامية البيزنطية، ج ١ ، الدار القومية للطباعة والنشر.

فتحي، محمد، السياسة الشرقية للإمبراطورية البيزنطية في القرن السادس الميلادي، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩م

فرانك ، ايرين، طريق الحرير ، ترجمة أحمد محمود، المركز القومي، ط٢، ٢٠١١م

فرح، نعيم، الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى، دمشق: جامعة دمشق، ط٢، ٢٠٠٠م

فيكتور سحاب، إيلاف قريش، المركز الثقافي العربي، بيروت: ١٩٩٢

الفيومي، محمد، تاريخ الفكر الديني الجاهلي ، مكة والصراعات السياسية بين الفرس والرومان ، القاهرة، ط٤، ١٩٩٤م

قاقيش ، رنده ، عمارة الكنائس وملحقاتها في الأردن في العهدين البيزنطي والأموي ، ط. ١ ، ، دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع ، الأردن ٢٠٠٧

القاهرة، د.ت.

القيصري، يوسابيوس، تاريخ الكنيسة ، ترجمة مرقص داوود، ط٢، القهرة، ١٩٧٩م

الكتاب المقدس ، رسالة القديس بولس الثانية الى اهل كورنتس ، ط.ب، ،د.م، ١٩٩٥

كرستينسن ، آرثر ، إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب، عبد الوهاب عزام ، القاهرة ، ١٩٥٧

كمال ، السياسة الشرقية، دار المطبوعات الشرقية ، بيرورت . د.ت .،

كمال، عمر ، تاريخ الدولة البيزنطية ، دار المعرفة، الاسكندرية، ٢٠٠٣م

لطفي ، عبد الوهاب ، العرب في العصور القديمة ، الإمارات العربية الحدية ، ٢٠٠٣م

لينسكي، نويل إمانويل، عهد قسطنطين، ترجمة: أحمد بدر، دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٢م

مانجو ، سيريل ، العمارة البيزنطية ، ترجمه رنده قاقيش ، سوريا ، ١٩٩٩

محروس، إسماعيل حلمي، الشرق العربي القددم وحضارته ، د ط ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ، مصر ، ١٩٩٧

محمد ، عمر يحيى ، البيزنطيون والعرب ، المجلس الاعلى للثقافة ، القاهرة ، ٢٠٠٩

محمد فريد بك ، تاريخ الدولة العليّة العثمانية ، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

محمد كرد علي ، خطط الشام ، ٦ مجلدات . دمشق ١٩٨٢

معمور، أحمد ، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر ، ممالك شمال الجزيرة ،د.ن، د.ت.

منى ، محمود ، دراسات في العلاقات بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية في العصر العباسي الأول، دار الفكر العربي ، ١٩٩٠م.



نصر ، محمد ، التنظيم الإسلامي للعلاقات الدولية ، ط١ ، مركز الدراسات العربية ، مصر ، ٢٠١٥م

نعمان محمد سيد أحمد، حسن كاكوم. ، القيادة الدفاعية، جامعة السودان للعلوم والتكنولوجيا، ٢٠١٢

النقر، عبد الحافظ، التجارة الداخلية والخارجية للعالم الإسلامي، دار الموسوعات، بيروت

هالدون، جون، بيزنطة في حرب، ترجمة : فتحي عبد العزيز، دار ناشري، الكويت، ٢٠١١

هسي ، ج ، م . العالم البيزنطي ، ترجمة وتعليق د.رأفت عبد الحميد ، مصر ، ١٩٩٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣

الواقدي ، محمد بن عمر ،ت ٢٠٧هـفتوح الشام، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٧م

يحيى، عمر ، التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية، د.ط، بيروت، ١٩٨٢

يحيى، عمر، التوجهات في العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية، جامعة الملك عبد العزيز .

يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة، القاهرة، ١٩٩٨م

يوسف زيدان، اللاهوت العربي وأصول العنف الديني. دار الشروق، ٢٠١٤

يوسف كرم، هلا آمون. تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت، لبنان، ٢٠١٦

الرسائل الجامعية :

الحيدري ، علي هادي حمزة ، الأحوال الاجتماعية في الدولة الساسانيـــــة ، ٢٢٤،٦٥١م، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة بابل كلية التربية ، ٢٠٠٦

الحيدري ، علي هادي حمزة ، التنظيمات الإدارية في الدولة الساسانية ، ٢٢٤،٢٢٦،٦٥١م ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، جامعة بغداد كلية التربية ، ٢٠١١

الخرابشة، ممدوح عبد الحليم ، استقرار القبائل العربية في بلاد الشام قبل الفتح الإسلامي القرن ، ٣، ٧م، رسالة ماجستير ، اشراف الاستاذ الدكتور محمد خريسات ، الجامعة الأردنية ،٢٠٠٣

الدوري ، طعمه ، أحوال العراق الاقتصادية في العصر الساساني رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة تكريت ، ٢٠٠٧

العاني ، حقي إسماعيل ابراهيم ، أسواق العرب التجارية في شبه الجزيرة العربية قبيل وفي صدر الإسلام ، رسالة ماجستير ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠

اليحيى، رائد فيصل ، دراسة تحليلية للمسكوكات البرونزية البيزنطية في الفترة الواقعة بين ٤٩١-٦٤٣ م ، رسالة دكتوراة ، العراق .



المجلات العلمية :

إسماعيل، ليلى، القسطنطينية في كتابات الجغرافيين، مجلة المؤرخ المصري، ع٤، مصر .

بيضون، إبراهيم: حملة مؤتة. المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام عام ١٩٨٧

خريسات، محمد، "دور غسان في الحياة العامة في صدر الإسلام"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مج١، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان، تشرين الأول ١٩٨٧،٢١٧، ١٩٨٧

خريسات، محمد، دور العرب المتنصرة في الفتوحات ، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام ، بلاد الشام في صدر الإسلام، مج٢، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان، ١٦،٢٢ آذار ١٩٨٥، ١٩٨٧

رمضاني ،هاني. بيزنطة بين التاريخ والمصطلح. مجلة الدراسات التاريخية، ١٤عدد ، ٢٠١٦

الزيدي ، مصعب حمادي نجم. "موقف تنظيمي الإسبتارية والداوية من حروب الناصر صلاح الدين الأيوبي ٥٧٣ ـ ٥٨٧ هـ١١٧٧ ـ ١١٩١ م." مجلة كلية العلوم الاسلامية ٣.٦ ،٢٠٠٩

سلام، أدور اللوس. خصائص الاشكال الفنية في الرسوم الايقونية البيزنطية. مجلة الاكاديمي ٨١ ،٢٠١٦

صالح ، عبد العزيز حميد ، قسطنطين الأول والعصر المسيحي المبكر ، مجلة بين النهرين ، العدد ١٢٣ ، السنة ٣١، ٢٠٠٣ ،بغداد، ص ٢٢٦، وسيشار إليه لاحقاً : صالح ، قسطنطين الأول .

عاقل، نبيه، "موقف سكان بلاد الشام من الفتح"، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، مج٣، الجامعة الأردنية وجامعة اليرموك، عمان، ١٦،٢٢ آذار ١٩٨٥م، ١٩٨٧م

عباسة، محمود. الحروب الصليبية و نزعة الحب الكورتوازي، المجلة الجزائرية، م٩، ١٩٩٩م

عبد الحكيم غنتاب الكعبي. "نشأة فكرة النقود وتطورها من القرن السابع ق. م حتى القرن السابع الميلادي." مجلة دراسات تاريخية ١٥ كانون الاول ،٢٠١٣

قاموس آباء الكنيسة و قديسيها اثناسيوس الرسولي البابا العشرون، نسخة محفوظة ٠٧ مارس ٢٠١٦ على موقع واي باك مشين.

كريم، مناصر، الحملة البيزنطية على مملكة الوندال بشمال إفريقيا ،٥٣٣-٥٣٤م،مجلة الدراسات التاريخية ٢٠.١ ،٢٠١٨.

المنصوري، محمد، صورة البيزنطيين في الحضارة العربية ، مجلة أسطور، ع٦ ، المركز العربي للدراسات٢٠١٧م

النصرات، محمد، تاريخ جنوبي الأردن في الفترة البيزنطية من وادي الحسا شمالاً حتى خليج أيلة (العقبة) جنوبا (٣٢٤- ٦٣٦م)، المجلة الاردنية للتاريخ و الاثار، م٣،

النصرات، محمد والنعيمات، سلامة، المصادر التاريخية لدراسة تاريخ جنوب الأردن خلال الفترة البيزنطية ،٦٣٦،٣٢٤م،المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، المجلد٣، العدد٢، ٢٠٠٩م

هاني، قيس حاتم. "الصلات التجارية بين شمال شبه جزيرة العرب والهند من القرن الأول وحتى القرن السادس الميلادي." مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية ٧ ،٢٠١٢، ص١٠٣-١١٤.



المراجع الأجنبية :

Anastos ،Milton V. ١٩٦٢،,"The **History of Byzantine Science. Report on the Dumbarton Oaks Symposium** of ".١٩٦١

Aziz ، Ramdan ، **The Treatment of Arab Prisoners of War in Byzatium** ، 2009

Babinger ، Franz ، ٢٠٠٣،Timeand Fatih Sultan Mehmed ، Istanbul: Capricorn Publishing ، ISBN ٠٤-٤١٧-٣٢٩-٩٧٥،

Bebis ،George ،Fall–Winter ،١٩٩٧**"Introduction to the Liturgical Theology of St Basil the Great"**. Greek Orthodox Theological Review. ٣،٤، ٤٢: ٢٧٣–٢٨٥. ISSN .٠٠١٧،٣٨٩٤

Birley ، Anthony R. ،١٩٩٩ ١٩٧١. Septimius Severus: **The African Emperor**. London: Routledge. ISBN .٩٧٨،

Bowersock ،G. W ؛**.Brown** ،**Peter** ؛**Grabar** ،**Oleg. Late Antiquity**: A guide to the Postclassical World. Harvard University Press**.**

de Camp ،L. Sprague ،١٩٤٩،Lest Darkness Fall. Ballantine Books**.**

Dumbarton Oaks Papers. Dumbarton Oaks ، Trustees for Harvard University. ١٦: ٤٠٩–٤١١. JSTOR ١٢٩١١٧٠. doi:..١٠.٢٣٠٧،١٢٩١١٧٠

Encyclopedia Britannica ، ١٥th Edition ، .١٩٧٨

Grierson ،Philip ١٩٨٢،,**Byzantine Coins. London** ، United Kingdom: Methuen. ISBN .١٩٧٨،٤١٦،٧١٣٦٠،٢

Hu ،Winnie ٦،October ،٢٠٠٨"A **Dead Language That's Very Much Alive**". New York Times**.**

Huysmans ، Joris،Karl. Against the Grain: A rebours. The Floating Press٢٠٠٩

REBECCA R. DARLEY ، **INDO**،**BYZANTINE EXCHANGE** ، ٤**TH TO** ٧**TH CENTURIES: A GLOBAL HISTORY** ، A thesis submitted to the University of Birmingham for the degree of DOCTOR OF PHILOSOPHY ، University of Birmingham ، September 2013

Sa'd Addin ، Abd Al،Rahim ، and Abu Ann. Hiafa's Fief and it's Role in the Islamic Franksh Struggle ٩٤٣،٦٩٠،H ١١٠٠،١٢٩١،AD,Diss. .٢٠٠٤

Simeonova ، L ، **Tenth –Century Byzantine Caremonials** ،1998

The Church of the East: **A Concise History** ، Baum ، Wilhelm ، pp. ٣٠،٣١.

The Church Triumphant: **A History of Christianity Up to** ،١٣٠٠ **E**. Glenn Hinson ، p ٢٢٣.



(The Levant Region During the Byzantine Era (4 th Century - The Middle of the 7 th Century)

by the student

Claudia Khalid Obaid

Supervisor

Dr. Musa Bani Khaled

Abstract

Byzantine civilization of the civilizations that have played an important role in the history of the Bilad El-Cham ،an extension of the Roman civilization ،where the Byzantine civilization was characterized by Oriental features ،which made it a mixture of Romanian and Arabic ،is one of the most important civilizations that originated in the country of Shaa What is still the historical evidence we have known ،and as a result of the geographical ،political and economic conditions ،the Romans moved to their civilization and their systems and sciences to the Orient with the aim of expansion until the collapse of the Roman civilization and the Byzantine civilization continued to expand in the Arab mashreq ،where it included the Bilad El-Cham of damascus ،which It was considered the first barrier between the Pygmies and the Arab tribes until Islam came and the Islamic conquests Began.

The study covered the subject of the Bilad El-Cham in the light of Arab sources from the fourth century to the Mid-seventh century A.D. where the first chapter dealt with the history of the origins of the Byzantine Empire and the history of the Bilad El-Cham in the period of study and touched on the naming of the Byzantine Empire and the most important sources of history Byzantine in Arabic works.

During the second semester ،the study showed the situation of the Bilad El-Cham in the Byzantine period from the ٤th to the Mid-seventh century ،in terms of the strategic importance of the Bilad El-Cham in the Byzantine period ،and the situation of the Bilad El-Cham during the Byzantine period "geographical and historical connotations" and the most prominent divisions Administrative of the Bilad El-Cham in the Byzantine era and separated the Byzantine relations with the Arab kingdoms and the impact of those aspects on the eastern policy of the Byzantine Empire.

We also spoke in the third chapter about the cultural systems of the Bilad El-Cham in the Byzantine period and the beginnings of the development of political and administrative systems in the Byzantine state in the south of the Bilad El-Cham ،and the most prominent landmarks of the systems and civilization in the Byzantine countries of the Bilad El-Cham ،from the sciences and architectural arts and religious denominations and the most prominent works Commercial and Agricultural.

The study highlighted the fact that many aspects of Roman civilization were transferred to the Bilad El-Cham and the Arabs were influenced by this civilization ،and how the state Byzantine to apply its ideology and policy by strengthening its relationship with the tribes and earning their loyalty ،and the study showed that most of the historical writings are limited to Periods close to the Islamic era and dealing with specific topics that were almost limited to political aspects ،which invites researchers to use archaeological and foreign studies to study society and cultural manifestations in the periods preceding the establishment of Islamic Eras.

